الجمهوريـــــة الجزائـريـــــة الديمقراطيـــــة الشعبيـــــة
وزارة التعليـــم العالــــي والبحـــث العلمـــــي
جامعـة منتـوري – قسنطينـة

كليــة العلـــوم الإنسانيـــة والإجتماعيـــة
قســـم التـــاريخ

رقـم التسجيـــل :..........................

الرقم التسلسـي :...........................

الضباط الفرنسيون الإداريـون في إقليم الشـرق الجزائـري إرنست مرسييـه نمـوذجـا

مذكرة مقدمـة لنيـل شهادة الماجستير في الـتاريخ الحديث
تخصص تاريخ وحضـارات البحر الأبيض المتوسط

إعـداد الطـالب
عـز الديـن بـومزو

إشراف الأستاذ الدكـتور
مصطفـى حـداد

أعضـاء لجنــة المناقشـــة

تــاريخ المناقشــة

....

	الإسم واللقـب	الــــرتبـــة	الصفـــة	الجامعــة الأصليــة
01	د. عبد الكريم بوصفصاف	أستاذ التعليم العالي	رئيســـــا	جامعة منتوري قسنطينة
02	د. مصطـــفى حــــداد	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الحاج لخضر باتنة
03	د. عبــد الرحيم سكفالـــي	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشــا	جامعة منتوري قسنطينة
04	د. صـــالـــح فــركــوس	أستاذ محـــــاضر	عضوا مناقشــا	جامعة 08 ماي 45 قالمة

السنــة الجامعيــة 2007 - 2008

قسنطينـــة 27 سبتمبـــــر 2007

تقــرير حول رسالــة ماجستيـــــر في التاريــخ الــحديث
للطــالب عــز الديــن بومــزو

أنا الممضي أسفلــه حــداد مصطفى أستاذ دكتــور بجامعــة الحاج لخضر بباتنـــة والمشرف على رسالـــة الماجستيــر للطالب بومـــزو عـــز الديـــن تحـــــت عنـــوان :

" الضباط الفرنسيون الإداريون في إقليم الشرق الجزائري
إرنست مــرسييــــه نمـــــوذجــا"

أؤكــد وأقرّ بأن الطالب عز الدين بومـــزو قـــد أنجـــز الرسالـــة وسلمها للقراءة والتقييــم وهو ينتظر في تاريخ المناقشـــــة.

تقبلوا مني فائـــق الشكـــر والتقـــديـــر والإحتـــرام.

الخطـــــة

الضباط الإداريون الفرنسيون في إقليم الشرق الجزائري
" إرنست مرسييه نموذجا"

4 ـ المهام الثقافية

رابعا : التعريف بإرنست مرسيه.

أ ـ حياته.

ب ـ أعماله.

1 ـ في الميدان العسكري.

2 ـ في الميدان الإداري.

3 ـ في الميدان الفكري.

الفصل الثاني

خصوصيات إقليم الشرق الجزائري

أولاً : الخصوصية الجغرافية

أ ـ حدود إقليم الشرق الجزائري

ب ـ التضاريس

1 ـ المنطقة الساحلية

2 ـ منطقة الهضاب أو السهول المرتفعة

3 ـ المنطقة الشبه الصحراوية أو المنطقة الجنوبية الصحراوية

جـ ـ المناخ

ثانيا : الخصوصية السكانية

أ ـ تعداد السكان

ب ـ عناصر السكان

جـ ـ علاقة السكان بالسلطة المركزية

1 ـ القبائل الممتنعة عن سلطة البايلك

2 ـ قبائل المخزن

3 ـ قبائل الرعية

4 ـ القبائل التي تعيش شيوخه

ثالثا : الخصوصية الاقتصادية

أ ـ النظام العقاري

1 ـ أراضي البايلك

2 ـ أراضي العرش

3 ـ أراضي الملك

4 ـ أراضي الوقف

ب ـ الزراعة

ج ـ الأشجار المثمرة وغير المثمرة

د ـ الرعي وتربية الحيوانات

و ـ الثروة المعدنية والصناعات اليدوية

هـ ـ التجارة

1 ـ تجارة داخلية

2 ـ تجارة خارجية

ـ تجارة برّية

ـ تجارة بحرية

ـ الصادرات

رابعا : قوة إقليم الشرق الاقتصادية

خامسا : أهمية مدينة قسنطينة كعاصمة للإقليم

الفصل الثاني

خصوصيات إقليم الشرق الجزائري

1 ـ حدود إقليم الشرق الجزائري.

2 ـ الخصوصية الجغرافية.

2-1- التضاريس.

2-2- المناخ.

3 ـ الخصوصية الكاتبة.

3-1- تعداد السكان.

3-2- عناصر السكان.

3-3- علاقة السكان بالسلطة المركزية.

4- الخصوصية الإقتصادية.

4-1- النظام العقاري.

4-2- الزراعة.

4-3- الأشجار المثمرة و الغير المثمرة.

4-4- الرعي و تربية الحيوانات.

4-5- الثروة المعدنية و الصناعات اليدوية.

4-6- التجارة.

4-6-1- تجارة داخلية.

4-6-2- تجارة خارجية.

4-6-2-1- تجارة برية.

4-6-2-2- تجارة بحرية.

4-6-2-3- الصادرات.

5- قوة إقليم الشرق الاقتصادية.

6- أهمية مدينة قسنطينة كعاصمة لإقليم.

الفصل الثالث

أهم القضايا التي تناولها مرسييه

- في الجانب التاريخي.
- الإثنوغرافيا.
- الاستعمار.
- العلمي.

المقدمـــة

تعالج هذه الدراسة موضوعاً من موضوعات التراجم وبحث في سيرة شخصية من الشخصيات الفاعلة في القرن التاسع عشر الذي ترك بصماته على الجزائر وعلى الشرق الجزائري بالخصوص في مختلف الميادين: العسكرية والإدارية والعمرانية والثقافية.

تعتبر فترة حياة إرنست مرسييه أي الفترة الممتدة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى بداية القرن العشرين من أهم المحطات وأحرجها في التاريخ الجزائري الحديث كونها تمثل مرحلة تثبت الاحتلال بشتى الطرق.

فإضافة إلى استخدام القوة العسكرية اعتمدت أساليب أخرى منها إنشاء مؤسسة "المكاتب العربية" أو "الشؤون الأهلية" أشرف عليها ضباط إداريون تمثلت مهمتهم في إدارة ومراقبة الأهالي. وأخرى أخذت طابعًا علميا أوكلت لها مهمة استكشاف ودراسة المجتمع الجزائري وقد شكّل الضباط الإداريون أو ضباط المكاتب العربية قسما معتبرا من فريق الباحثين فيها.

وكان إرنست مرسييه واحدًا من أولئك الضباط الإداريين الذين عملوا ضمن "المكاتب العربية" التي كانت تُعتبر بحق "بنوك معلومات" سجلت كل صغيرة وكبيرة في ذلك الوقت. وقد مكنته وظيفته ضمن هيئة المترجمين العسكريين أن يكون أكثر إطلاعاً على أحوال الجزائريين في مختلف الميادين إضافة إلى إتقانه للغة العربية تمكن وبحنكة كبيرة من إدارة أهم مدينة خارج الجزائر العاصمة، ثمّ كرّس نشاطه للتأليف، لذا فإن دراسة هذه الشخصية هي من المواضيع الهامة لدراسة التاريخ الجزائري من أحد مصادره الأساسية إذ أنّ ما قدّمه مرسييه من كتابات تعتبر مادّة أرشيفية وتناولها بالبحث هو عمل مكمّل لدراسة تاريخنا الوطني بإمكانها سدّ بعض الثغرات ومنح إضافات تقرّبنا من الحقيقة العلمية.

لقد كان اختياري لهذا الموضوع نابًعا من اهتمامي بالشخصيات المتميزة عبر التاريخ والتي أثرت في أحداث عصرها والعصور التي تلتها. وكان إرنست مرسييه أحد هاته الشخصيات التي صادفتها كثيرا خلال دراستي الجامعية في مرحلة ما قبل التدرّج أثناء إنجاز البحوث في مختلف الفترات التاريخية. كما صادفته مرة أخرى أثناء عملي بمتحف سيرتا الوطني حيث مكنني ذلك من الإطلاع على الكثير من أعماله خاصة وأن المتحف الذي فتح أبوابه سنة 1931 نقل إليه مقرّ الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة بعد أن كان ببلدية قسنطينة. وقد كان إرنست مرسييه أحد رؤسائها السابقين.

إذًا فقد كان الفضول العلمي أحد الدوافع التي أدت بي إلى محاولة التعرّف على هذه الشخصية وإزالة بعض الغموض الذي يحيط بها. ومما زاد في تمسّكي بهذا الموضوع هي ندرة الدراسات التي تناولته وبالتالي محاولة تقديم شيء جديد للبحث العلمي حتى ولو كان بسيطًا.

وقد حاولت في بحثي هذا معالجـــة إشكاليـــة أساسية تتعلق بوجـــه عام بـــ إرنست مرسييه وبالتحديد أين يمكن وضع هـــذه الشخصية ؟

أفي خانـــة الإداريـيـــن أم في خانـــة العسكريين أم في خانة الباحثين في العلوم الإنسانية ؟ ويمكن أن تنحل هذه الإشكاليـــة إلى التساؤلات الآتيـــة وهي في جوهرها تعبّر عن مشكلات أساسيـــة تضمنتها فصول هذا البحث :

كيف تناول المؤلفون إقليم الشرق الجزائري في فترة سبقت إرنست مرسييـــه وهذا من وجهة نظر أروبيـــة وجزائريـــة ؟

ثم كيف تعامل الغزاة الفرنسيـــون مع مجال الشرق الجزائري وهذا منـــذ ضباط الجيل الأول الذين قادوا الحملات العسكريـــة والتوغل داخل الجزائر العميـــقة إلى ضباط الجيل الثاني الذين كلفوا بتسييـــر الشؤون الأهليـــة وهؤلاء يمثلهم خاصـــة الضباط الإداريون في المكاتب العربية.

وأخيرا ضباط الجيل الثالث الذين تولوا مهام إداريـــة مدنيـــة وبرزوا بمؤلفاتهم وهم أقل عددا من سابقيهم ومن هؤلاء إرنست مرسييـــه وماهي العوامل والأسباب التي أثرت في كتاباته ؟ وماهي القضايا التي تناولها عن الشرق الجزائري وماهي المجالات التي خاض فيها خاصـــة في التاريخ والإثنوغرافيا ؟ وأخيـــرا بأي منطلق تعامل مع تلك القضايا وتفاعل معها ؟

ولقد إستعنت في معالجـــة هذه الإشكاليـــة بالمنهج التاريخي الوصفي عندما كنت بصدد الكشف عن الكتابات التي سبقت فترة إرنست مرسييـــه وكذلك عند دراسة لخصوصيات الشرق الجزائري من الناحية الجغرافية والسكانية والإقتصادية وعن مدينة قسنطينـــة.

كما أنني إستعنت أيضا بالمنهج التحليلي الذي وظفته في تحليل نصوص وكتابات إرنست مرسييـــه.

ولقد تطلب مني إعداد هذا البحث الرجوع إلى مصادره الأساسية، وهي ما كتبه إرنست مرسييه ومن أهمها:

كتاب "تاريخ قسنطينة" "Histoire de Constantine"، وكتاب "تاريخ إقامة العرب في إفريقيا الشمالية" "Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale" وكذلك كتاب "تاريخ إفرقيا الشمالية" في ثلاثة أجزاء "Histoire de l'Afrique septentrionale " كذلك كتاب "الجزائر أمام البرلمان في 1893" "L'Algérie devant le parlement en 1893" الذي عرض فيه مختلف آراء وأفكار حول ماضي وحاضر ومستقبل الجزائر في جميع الميادين.

كذلك عدت إلى مقالاته التي نشرها في مختلف الدوريات والحوليات خاصة "المجلة الإفريفية" "La revue africaine" و"الحوليات الأثرية لمدينة قسنطينة".

"Recueil de notice et mémoire de la société archéologique de Constantine"

كما تمّ الاعتماد على مؤلفين وزملاء له في الوظيفة كفيرو: "مترجمو جيش إفريقيا" "Feraud (H) : Les interprètes de l'armée d'Afrique"

وكتاب بيروني Pyronnet: "الكتاب الذهبي لضباط الشؤون الأهلية (1830-1930)" "Livre d'or des officiers des affaires indigènes (1830-1930)".

كما أنني استعنت كذلك بدراسات كمفاتيح لفهم النظريات الأوروبية حول وصف الشعوب غير الأوروبية خلال القرن التاسع عشر خاصة كتاب: إدوارد سعيد: "الاستشراق، المعرفة، السلطة، الأشياء" وكتاب: لوكا فيليب: فاتان جون كلود: "جزائر الأنثروبولوجيين، نقد السوسيولوجيا الكولونيالية"، ودراسة مهمة للأمريكي مالاكاي Malakey:

"The colonial en counter in French Algeria : A study of the development of power a symmetry and symbolic violence in the city of Constantine"

أما خطة البحث فقد إشتملت على مقدمـــة وثلاث فصول وخاتمـــة.

الفصل الأول تناولت فيته : نماذج عن رؤيـــة بعض الكتاب لإقليـــم الشرق الجزائري قبيل وأثناء الإحتلال وقد إشتمل على أربعـــة مباحث أساسيـــة.

أما المبحث الأول فقد تطرقت فيه إلى رؤيـــة الكتاب الأروبيـــن لإقليم الشرق الجزائري في القرن الثامن عشر مع إشارات إلى بعض مصادر كتابات في القرن السابع عشر.

وقد تناولت فيه الفرنسيين باسيونال Peysonnel وديفوتين Desfentaine والبريطاني شـــاو Shaw كنمادج.

أما المبحث الثاني فقد ذكرت فيه رؤية الكتاب الجزائريـــن لإقليم الشرق الجزائري في القرن التاسع عشر وتناولت كنماذج على ذلك العنتري وإبن المبارك وفي المبحث الثالث بينت كتابات الضباط الفرنسييـــن الإداريـــن وقد تعرضت في البداية لنشأهم ثم إلى تطورهم في الجزائر والشرق الجزائري بالخصوص وأخيرا تناولت مهامهم ووظائفهم المختلفـــة.

وفي المبحث الرابع إتخذت من إرنست مرسييـــه نموذجا لأولئك الضباط الإداريـــن حيث عرفت به متناولا حياته وظروف نشأته ومختلف التأثيرات التي بلورت شخصيته وتطرقت إلى مختلف أعماله في الميادين العسكريـــة والإداريـــة وفي ميدان التأليف.

أما الفصل الثاني فلقد بحث فيه خصوصيات الشرق الجزائري والذي إشتمل بدوره على أربعـــة مباحث كشفت في المبحث الأول عن الخصوصيـــة الجغرافيـــة بينما تناولت في المبحث الثاني الخصوصيـــة السكانيـــة.

أما في المبحث الثالث فقد تعرضت للخصوصيـــة الإقتصاديـــة بينما خصصت المبحث الرابع للحديث عن قسنطينـــة كمدينـــة وعاصمـــة لإقليـــم الشرق الجزائري مبرزا أهميتها عبر التاريخ كمركز حضاري وإقتصادي وإجتماعي.

أما الفصل الثالث والأخير من هـــذا البحث فقد تناولت فيـــه أهم القضايا التي تناولها إرنست مرسييـــه في كتاباته مركزا على جانبيـــن فقط من عدة جوانب.

عالجت في المبحث الأول الجانب التاريخي وفي المبحث الثاني الجانب الإثنوغرافي ولقد خصصتهما بالذكر دون غيرهما لسببيـــن :

1- ضخامة إنتاجـــه وتنوعـــه.

2- ذكره لهذين الجانبين بصريح العبارة عند حديثه عن خصوصيات الشرق الجزائري.

أما عن الصعوبات التي اعترضتني في إعداد هذا البحث فهي موضوعية منها:

ـ انعدام دراسات سابقة حول الموضوع.

ـ لغة إرنست مرسييه الفرنسية وهذا تطلب ترجمتها مما استدعى جهدا إضافياً.

لقد شكلت المؤلفات التي سبقت احتلال الجزائر والتي تتعلق بالجزائر عامة وإقليم الشرق الجزائري خاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر مصدرًا مهمّاً وثمينًا للمعطيات التاريخية، فقد كانت مهيَّأة ومنبئة لبحوث كبيرة ومفاهيم وأفكار تاريخية لمؤلفين أوروبيين تابعين للعهد الاستعماري فيما بعد[1].

وقد تعرضتُ في هذا الفصل إلى ذلك التطور في الكتابة التي تخص إقليم الشرق الجزائري لبعض المؤلفين الأوروبيين في القرن السابع والثامن عشر والتي شكلت أرضية معرفية استغلها الفرنسيون لغزو الجزائر[2].

ثم تطرّقتُ إلى بعض المؤلفين الجزائريين في القرن التاسع عشر والتي استفادوا منها في تثبيت الاحتلال ثم إلى الكتابات الاستعمارية التي تجسّدت في كتابات الضباط الإداريين ومن بينهم إرنست مرسييه.

---

[1]_ Djender, Mahieddine : Introduction à l'histoire de l'Algérie, Alger, ENAL, 1991, p. 86.

[2]_ Lemdorfer, François : La science colonisatrice : Analyse sociolinguistique de thèmes de recherche en sciences sociales sur l'Algérie pendant la période coloniale (Corpus des thèse de droit et lettres), thèse pour le doctorat 3ème cycle, université de Paris, Panthéon, Sorbonne, juin 1982, pp. 62-63.

أولاً ـ رؤية الكتاب الأروبين لإقليم الشرق الجزائري (القرن 17 و18 م)

لقد حظي إقليم الشرق الجزائري بحيّز معتبَر من كتابات الأوروبيين، ليس فقط بسبب أهميته بل لأنه ضمن مجال الصراع المسيحي الإسلامي أي صراع بين حضارتين حضارة مسيحية غربية وأخرى شرقية إسلامية[1]، تمثلت في أروبا وإفريقيا الشمالية وكانت فيها تلك الكتابات شاهدا على ذلك[2].

أخذت هاته المؤلفات شكلا واضحا في القرنين السابع والثامن عشر و لم تكن بالضرورة مخطط لها أو إرادية بل كانت من قبل أسرى[3] كتبوا تاريخ أسْرَاهم[4]، أو من شخصيات دبلوماسية تعاملت مع الأتراك كالقناصلة[5] أو من رجال الدين المسيحيين الذين كانت مهمتهم افتداء الأسرى المسيحيين الذين لم يكن لدى عائلاتهم المال الكافي لافتدائهم[6].

ولما كان اهتمام رجال الدّين منحصرا في افتداء الأسرى وبالتالي انعكس ذلك على معلوماتهم المتضمنة كراهية وعداء واضحا ضد العدو الكافر. أما الأسرى[7] فقد لا تخلو ذكرياتُهم من آثار الأسر الذين عاشوا فيه[8].

أما كتابات القناصلة، فرغم أنها ينقصها التوسع والتعمق في المجتمع فقد استغلت من قبل الباحثين في دراسة الجزائر خلال الفترة العثمانية[9].

الأهمية نفسها حظيت بها كتابات الأسرى ورجال الدّين المخلصين Rédempteur التي

---

[1]- Filali, Kamel : Chaire arabe et étude orientale en Algérie, in. A.U.R.A.M.A., Vol 2, 1998, p. 85.

[2] - Brahimi, Denise : Opinions et regards des européens sur le Maghreb aux XVIIème et XVIIIème siècle, Alger, SNED, 1978, p.7.

[3]- Leimdorfer, F : Op cit, p. 62.

[4] - Tailiart, Charle : L'Algérie dans la littérature française, Paris, Librairie ancienne Edouard Champion, 1925, p.5.

[5]- Leimdorfer, F : Op cit, p. 62 et Tailliart : Op cit, p. 5.

[6]- Leimdorfer, F : Op cit, p. 62.

[7]- لم يعان الأسرى في مجملهم من ظروف سيئة أثناء اعتقالهم بل تبوّأ كثير منهم مناصب سامية في الإدارة والجيش التركي بعد اعتناقهم الإسلام، من هؤلاء على سبيل المثال الأسير الدنماركي هارك أولفس Harck Oulofs (1708-1774) الذي وقع في الأسر سنة 1723 وبيع في سوق العبيد ثم أصبح أسيرا لدى باي قسنطينة وبقي في الأسر 14 سنة، الذي قرّبه من حاشيته وأصبح خزناجيا ثم رئيس الحرس فمترجما، وقد ألف كتابا في سنة 1747 باللغة الدانماركية عن الجزائر وقسنطينة وتوجد منه نسختان فقط. هذه المعلومات من محاضرة ألقاها الأستاذ والباحث الدنماركي رهاهايمر مارتان Rheunheumer Martin المتخصص في فترة القرنين 17 و18، في معهد العلوم والإنسانية والاجتماعية قسم تاريخ في 26 ماي 2004 وأعادها في يوم الخميس 27 ماي 2004 في جامعة العلوم الإسلامية الأمير عبد القادر.

[8]- Tailiart : Op cit, p. 62.

[9]- قشي، فاطمة الزهراء: قسنطينة المدنية والمجتمع: في النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، من أواخر القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 1998، ص 49.

تعكس اختراق وولوج عميق في البلاد، وتحوي وصفاً دقيقاً للحياة اليومية، العادات والعقوبات والآلام من جرّاء التعذيب[1] والتي كانت من بين الوثائق التي اعتمدت عليها وزارة الحربية الفرنسية[2] في حملتها على الجزائر[3].

هناك كتابات أخرى متميزة تعود للقرن الثامن عشر للرحالة[4] Voyageurs ولقد ركزتُ على أبرزهم وتناولت كتاباتهم لعدة أسباب منها :

_ الموضوعية :

قد بين سرد الأحداث في القرن الثامن عشر اهتماماً حقيقياً بالملاحظة العامة حول الناس، والطبيعة منهم: لوجي Laugier، دي فونتين Desfontaine، شاو Shaw، بايسونال Peyssonel [5] وقد قدم هؤلاء الرحالة في القرن 18 ملاحظات ومعلومات مستقاة بطريقة أكثر عقلانية[6].

وكذلك جاءت مواقفهم مختلفة عن كتابات رجال الدّين إذ أثنوا على الحكومة التركية، وهذا هو وجه الاختلاف بينهما، رغم أنه بقيت العديد من مواقفهم معادية وعنصرية[7].

وفي هذا الشأن يقول بايسونال "وبما أنهم مقتنعون أن أتراك الجزائر هم أناس عديمو الإيمان والإخلاص، بدون قانون، فاقدو العقل، غير إنسانيين، برابرة، قساة، بدون أدب، إنها القصص والحكايات التي قدمها رجال الدين حول العبودية في الجزائر والتي ملَؤوا عقولهم بها"[8].

وقد أعطى بايسونال تبريراً لما يقوم به رجال الدّين حيث قال "حماسُ رجال الدّين هؤلاء محمود أو جدير بالمدح: إنه في مصلحتهم أن ينسب كثير من عدم الإنسانية إلى الأتراك لإثارة التعاطف وصدقات المؤمنين"[9].

---

[1]- Brahimi, D : Op cit, p. 9 et Leimdorfer, F : Op cit, p. 63.

[2]- في هذا السياق، يذكر الأستاذ عميراوي، أنّ السلطة الفرنسية اعتمدت على كتب الرحلات والمذكرات التي دونها الأوروبيون خلال العهد العثماني كمصادر أساسية إلى جانب المصادر العربية من مراسلات لرجال السلطة العثمانية. انظر: عميراوي، حميدة: من الملتقيات التاريخية الجزائرية، قسنطينة، دار البعث، 2000، ص 9.

[3]- Leimdorfer : Op cit, p. 61.

[4]- لقد كانت كتابات الرحالة ذات قيمة كبيرة حتى أن دولمال De la Malle نفسه يعترف أن احتلال الجزائر نفسه لم يضف شيئا للمعرفة التي كانت تتعلق بالجزائر. انظر :

Peyssonel, Jean André ; De la Malle Dureau pref : Relation d'un voyage sur les côtes de barbarie : fait par ordre du roi en 1724 et 1725 , Paris, Librairie de Gide, 1838, p. VII.

[5]- Leimdorfer : Op cit, p. 63.

[6]- Brahimi : Op cit, p. 8.

[7]- Leimdorfer : Op cit, p. 63.

[8]- Peyssonel : Op cit, pp. 384-385.

[9]- Ibid, p. 385.

ـ كانت مخطط لها وتتم عن رغبة حقيقية للبحث والتقصي: لقد كان هؤلاء الرحالة في مجملهم علماء (طب وطبيعيات)، فبايسونال كان طبيباً في مرسيليا[1]، ودي فونتين هو أستاذ علم النبات في حديقة الملك[2]. أما شاو فقد قال عنه بايسونال «السيد شاو، دكتور في جامعة أكسفورد، رجل ذو علم كبير خاصة في علم النبات وفي التاريخ الطبيعي»[3].

ولم تعد المرجعية لكتابات الرحالة في عصر الأنوار إلى الكتب المقدسة والكتب القديمة بل للعقل وفيما بعد للتجربة[4].

إن هذا العصر الذي يعرف بالأنوار كانت العقلية الأوروبية تواقة إلى معرفة ما يدور خارج أوروبا[5]. ومن هؤلاء الكتاب الأوروبيين :

أ ـ الكتاب الفرنسيون

1 ـ بايسونال : هو جان أندري بايسونال Jean-André Peyssonel (1694-1775)[6]، أبـــوه سارل بايسونال وأمه آن ازوارد Anne Isouard من عائلة نبيلة. زاول دراسته الأولى في مرسيليا في كوليج ديسبرس Collège Despers، ثم أتمها في باريس، وقد وجّهه الكونت مارسيقلي Le Compte Marsigli صديق العائلة إلى الاهتمام بالتاريخ الطبيعي. عيّن في 21 أوت 1723 مراسلاً لأكاديمية العلوم[7]، كما عمل طبيبا في مرسيليا ثم أرسل إلى إفريقيا الشمالية[8].

فبايسونال أرسل إلى أفريقيا الشمالية بأمر ملكي بهدف دراسة التاريخ الطبيعي لأيالة الجزائر وتونس وكان هذا في 1723، فقد كان هذا هو الهدف الرسمي لرحلته مثلما رأيناه في رسالته الأولى[9].

والرسالة نفسها إلى الأب بينيون M.L'Abbe Bignon وهو الشخص الذي اقترحه للملك للقيام بالرحلة إذ يذكر بايسونال في هذه الرسالة أهدافاً أخرى لهذه الرحلة إذ يقول: «سوف

---

[1]- Bage, Doris : Recherche sur la topographie urbaine de Cirta Constantine, D.E.A, université de Montpellier Paul Valery, UFR III, 2004, p. 16. Voir aussi : Brahimi : Op cit, p. 131.
[2]- Bage : Op cit, p. 20.
[3]- Peyssonel : Op cit, p. 458.
[4]- Leimdorfer : Op cit, p. 32.
[5]- عميراوي : المرجع السابق، ص 11.
[6]- Bage : Op cit, p. 15.
[7]- Peyssonel, J.A : Op cit, p. XVI.
[8]- Bage, D : Op cit, p 15.
[9]- Peyssonel : Op cit, p. XVIII.

تكون خليطا من التاريخ الطبيعي، أصف النباتات، والحيوانات، الأمراض ووسائل علاجها. سوف أحاول حتى أن أدخل ملاحظات حول الجغرافيا القديمة والحديثة، سوف أبحث وأسجل المخطوطات العربية، الكتابات، الأوسمة والتماثيل، سوف يكون خليطا من كل ما يتعلق بالفيزياء، التاريخ والآداب»[1].

وقد كان بايسونال مراسلا لأكاديمية العلوم وكان مشاركا للجمعية الملكية في لندن Associé de la Société Royale de Londre وأكاديمية مونبيليه ومرسسيليا وروان[2] (Academies de Montpellier de Marseille et Rouen).

2 ـ دي فونتين

هو لويش رينيه دي فونتين Louiché René Desfontaine (1750-1833)، ولد من عائلة متوسطة في نهاية قرن الأنوار، ليبرالي، ممثل جيد للفكر البرجوازي وينادي بملَكية معتدلة قادرة على نشر النظام، ضرورية للتقدم الاقتصادي[3]. كان عضوا في أكاديمية العلوم وأستاذ علم النبات في حديقة الملك Prof. de botanique au jardin du roi، أرسل إلى إيالة الجزائر وإيالة تونس ما بين 1783 و1786[4].

وقد أسس لمشروع التجوال في "البربرية[5] Barbarie". ويتكلم دي فونتين عن مشروعه حيث يقول "في 1783 عزمت القيام بمشروع رحلة إلى سواحل البربرية، للقيام بملاحظات حول الجغرافيا، العاديات les Antiquités أي العصور القديمة، عادات السكان وخاصة التاريخ الطبيعي وقد تبين ي أن هاته المناطق لم يقم بزيارتها أي عالم طبيعيات[6].

وقد حظي دي فونتين بتسهيلات إدارية وعملية لتسهيل رحلته مثله مثل أغلب الرحالة

---

[1]- Ibid.- p. 2.

[2]- Ibid.- pp. XVII - XVIII.

[3]- Bage : Op cit, p 20.

[4]- Brahimi, D : Op cit, p 153.

انظر تفاصيل عن حياته في مقدمة كتابه :

Desfontaine, Louiche René; De La Malle pref : Voyage dans la régence de Tunis et d'Alger : fragment d'un voyage dans les régences de Tunis et d'Alger fait de 1783 à 1786, Paris, Libraire de Gide, 1838.

[5]- Ibid, p. VII.

[6]- Ibid, p. 1.

الذين زارو أيالة الجزائر حيث قال «لقد منحت لي ضمانات عن طريق عدة وسائل من قبل السيد دي كيرسي M. Dekercy قنصل فرنسا في الجزائر أنه سوف يكون باستطاعتي الولوج إلى داخل الأراضي والتجوال في ممالك تونس والجزائر ومن حدود طرابلس حتى المغربية منها»[1].

حتى أن دي لمال De La Malle نفسه تعجب من هذه التسهيلات إذ يقول «... هل لنا أن نتعجب أنه لم تعد لنا التسهيلات للتجول داخل إفريقيا، التي تمتع بها الرحالة في القرن الماضي.»[2].

أما التسهيلات في الجانب العلمي فقد ساعدته أكاديمية العلوم حيث قال «أنه عندما عرضت مخططي على أكاديمية العلوم أيدت ذلك ومنحت لي الأموال اللازمة لمشروعي»[3].

ب ـ الكتاب البريطانيون

1 ـ شاو نموذجاً

هناك رحالة آخر ذو شهرة كبيرة زار الشرق الجزائري وهو شاو (1694 ـ 1751)، دكتور في الطب من جامعة أكسفورد[4]، ويعتبر من أشهر الأوروبيين الذين زاروا شمال إفريقيا، وقد استقر لمدة اثنتا عشر سنة فيها خاصة وأنّ مقر إقامته كان الجزائر العاصمة، حيث عمل كاهناً لدى المصارف الإنجليزية[5].

وهو عالم استعمل المنهج العلمي حيث استعاد الجغرافيا القديمة وأتمها بالاعتماد على بعض المحدثين، كما اعتمد على الآثار، وعلم الكتابات القديمة Epigraphie والمنطق البسيط والتفكير الاستنتاجي وكل المعارف المتأكد منها في عصره.

كما أنه اعتمد في الميدان العلمي على دراسة المناخ، الإنتاج الطبيعي و الزراعي والحيوانات كما اعتمد على مجموع ملاحظات البيانات المنتظمة.

وكان يقوم بنفسه بالتجارب وفي بعض الأحيان يطلب المساعدة من علماء أكسفورد[6].

إن شاو يحمل صفات تلك الفترة أين كان الفكر العلمي في خدمة الرأسمالية الأوروبية ورؤيتها للعالم، فقد كان متأثرا بالدين الأنقليكاني البرغماتي وبالإعجاب الذي يُكِنُّه لبلده المزدهر

---

[1]- Ibid, p. 2.
[2]- Peyssonel: Op cit, p. VII.
[3]- Ibid, p. 2.
[4]- Bage, D : Op cit, p. 16.
[5]- Brahimi, D : Op cit, p. 139.
[6]- Ibid, p. 139.

اقتصاديا، وقد أدى به هذا إلى ازدراء واحتقار أي شكل من أشكال التفكير الذي يحكم عليه بالدنو[1].

وهذه ميزة الكتابات في ذلك الوقت حيث تغيرت ما بين القرن 18 وبداية القرن 19 من قبل مراكز المصالح ومن قبل المؤلفين وكذلك المرجعيات الإيديولوجية: من المواجهات المرعبة أو المليئة بالإعجاب بين المسيحية والإسلام إلى القصص الطريفة للأسرى ورجال الدين المنقذين، ثم تبعتها الأوصاف المتعجرفة ولكن أريد لها أن تكون دقيقة حول الميادين الأكثر فأكثر اتساعا وكانت بواسطة رسائل طبعت بالروح العلمية وإيديولوجية الأنوار[2].

فإذاً، فإن الكتابات الأولى لم تكن عنصرية ولكن في بداية القرن السابع عشر فإنّ أوروبا التي بدأت تزدهر اقتصاديًا وجدت ضرورة للعنصرية لتبرير الرغبة في الاستعمار. وقد تطور هذا بعدما تغيرت موازين القوى لصالح أوروبا عسكريًا واقتصاديًا[3].

---

[1]- Ibid, p. 14.
[2]- Leimdorfer, F : Op cit, p. 64.
[3]- Brahimi, D : Op cit, p. 8.

ثانيا ـ رؤية الكتاب الجزائريون لإقليم الشرق الجزائري (القرن 19)

لقد تميزت كتابات الجزائريين أو المحليين التي تناولت إقليم الشرق الجزائري بالقلة حتى أن هناك من أطلق عليها صفة الجفاف التاريخي[1].

من هؤلاء الكتاب المحليين الذين تناولوا الشرق الجزائري في كتاباتهم العنتري[2]، وابن المبارك، وقد خصصتهما بالذكر لأهمية مؤلفاتهما، فقد قالت إيزابيل قرنقو Isabelle Grangaud في هذا الشأن "إنه عندما يتعلق الأمر بالتكلم عن مؤرخي قسنطينة فإننا نفكر في فايست Vaysette ومرسييه Mercier وبدرجة أقل فيرو Feraud، بينما أحمد بن المبارك وحتى العنتري ورغم أنهما نُهِبَا يأتون بعيدا في الأخير[3] فكتاباتهما تعتبران من أهم مصادر تاريخ قسنطينة والشرق الجزائري في العهد التركي إذ رجع إليهما كل من كتب عن قسنطينة من الفرنسيين، فمنهم من ترجمها بالكامل ومنهم من أضاف عليها[4].

فقد استعمل فايست كتاب العنتري "الأخبار المبينة لاستيلاء الترك على قسنطينـــة" "Précis d'histoire de la domination Turque à Constantine" كلَّه في كتاباته[5].

ولكن مع هذا أضاف عليه فايست وثائق جديدة[6] ولكن يرجع إليه الفضل أنه قام بتنظيم الأحداث التي سردت في خلافة البايات وقد ذكر فايست ذلك بنفسه حيث قال بأن هذا العمل هو عمل متمم[7].

وقد يكون فايست قد التقى العنتري وابن المبارك حيث أشار إلى نص العنتري ولكن يبدو

1- Grangaud, Isabelle : La ville imprenable : Histoire sociale de Constantine au 18° siècle, Constantine, Edition Media plus, 2004.- p. 307.

2- نشر كتاب العنتري، تحت عنوان قسنطينة تحت حكم الأتراك بعد ترجمته وذلك في حوليات مدينة قسنطينة لسنة 1928-1929 من ص 62 إلى ص 178. انظر:

El Antari : Constantine sous la domination turque, Trad, Adournon, in R.S.A.Cn T LIX, 1928-1929, 117 p.

3- Grangaud, I : Op cit, p. 311.

4- بن علي شعيب محمد المهدي: أم الحواضر في الماضي والحاضر : تاريخ مدينة قسنطينة، قسنطينة: مطبعة البعث، 1980، ص 290.

5- Saint Calbre, Charle : Constantine et quelques auteurs arabes Constantinois, in R.A, T. LVII, 1913, p. 75.

6- العنتري: فريدة مؤنسة في حالة دخول الترك قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم وذكر شيء مستقاة من سيرة باياتها إلى انقضاء دولتهم واحتواء الفرنسيين على مملكتهم المشهور بـــ(تاريخ بايات قسنطينة)، تحقيق أحمد سيساوي، بحث مقدم لنيل دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، 1980، ص 4.

7 - Vayssette, Eugène : Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837, Ouarda Siari Tengour , Tengour , Pres, Paris, Bouchen, 2002, p. 12.

أنه تجاهل النص التابع لابن المبارك[1] غير أن الأستاذة قشي ترى أن فايست اعتمد على كتابات محمد الصالح العنتري وأحمد بن المبارك وغيرهما[2].

وكما اعتمد عليه فايست فقد اعتمد عليه مرسييه مثل أغلب كتاب القرن 19 م[3].

فعند كتابته لتاريخ قسنطينة وخاصة في فترتها العربية والتركية اعتمد مرسييه على العنتري وعلى آخرين منهم : القيرواني، البكري، النويري، الخطيب، ابن محمد ولكن غفل عن الاعتماد على كتاب تاريخ قسنطينة لابن المبارك[4]. وقد وصف مرسييه كتابات العنتري بأنها مختصرة ومع ذلك قال أنها لا تخلو من فائدة[5].

إذا فكتاب العنتري : "تاريخ بايات قسنطينة" يعتبر وثيقة بالغة الأهمية إذ حاولت تتبع تاريخ العثمانيين بالمنطقة وتقدم دراسة سياسة، اقتصادية واجتماعية للبايلك.

أ _ العنتري

هو صالح بن العنتري بن محمد بن العنتري ولد بين عام 1790 و1800 م، ويعود السبب في عدم الدقة في تحديد تاريخ ميلاده ووفاته حسب الأستاذ يحيى بوعزيز "أنه لم يتحدث أحد عن تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته"، وقد ذُكر أنه توفي بعد 1870[6]، وقد ذُكر أيضا أنه لم يهتم أحد من معاصري المؤلف بالترجمة لحياته[7].

ينتمي العنتري إلى عائلة ذات المكانة الاجتماعية والعلمية في مدينة قسنطينة. فقد كان والده محمد العنتري الكاتب الخاص للحاج أحمد باي آخر بايات قسنطينة[8].

وقد عمل ككاتب بإدارة الشؤون العربية تحت إشراف النقيب بواسوني Capitaine Boissonnet وترك عدة كتابات[9].

1- Idem.

2- قشي : المرجع السابق، ص 49.

3- Grangaud : Op cit, p. 310.

4- El Mobarek, Ahmed : Kitab tarikh Qasantina, trad Alfred Dourion, in R.A, T LVII, 1913, p. 265.

5- بن علي شعيب محمد المهدي: المرجع السابق، ص 290.

6- العنتري: فريدة منسية في حال دخول الترك قسنطينة واستيلائهم على أوطانها، أو تاريخ قسنطينة، مقدمة وتمهيد يحي بوعزيز، الجزائر : د.م.ج، د.م.ج، 1991، ص 4.

7- سيساوي أحمد: المرجع السابق، ص 13.

8- العنتري: فريدة منسية، مقدمة وتمهيد يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 4. انظر كذلك:
Saint Calbre, Charle : Op cit, p. 73 et Grangaud : Op cit, p. 323.

9- Saint Calbre, Ch : Op cit, p. 73.

ونذكر عدة أسباب أهلته لشغل هذا المنصب منها ثقافته الواسعة وكذلك نقمته على الحاج أحمد باي قاتل أبيه[1] كما أن طبع كتابه كان أداة من أدوات الدعاية الاستعمارية[2].

وهنا نقف على دور المكاتب العربية في معرفة ماضي البلاد، فقسنطينة التي لم يكتب تاريخها تحت الحكم العثماني كتب تحت حكم المحتلين للإطلاع على سياسة حكامها من الأتراك وهذا للاستعانة به في حكم البلاد. كذلك للتعرض للحكم التركي بتوجيهات من بواسوني[3] ويتفق يحي بوعزيز مع هذا القول حيث يذكر "...إن بواسوني كلف كاتبه صالح العنتري بأن يؤلف له كتابا عن ذلك ووضع له منهجا وخطة"[4].

وقد كان عمله هذا على الأرجح ما بين 1843 و1846م[5] وتتفق الأستاذة قشي مع هذا التاريخ[6] وترى إيزابيل قرانقو ترى أن هذا العمل تم بعد 1843 ولكن تضيف اسما آخر لطالب هذا العمل أو التأليف وهو الدوق أومال Duc D'Aumal ابن الملك لويس فيليب Louis Phillipe وأخ الدوق أورليانز Duc d'Orléans الذي عين على رأس حكومة المقاطعة سنة 1843[7].

أما عن مضمون الكتاب فقد تحدث العنتري عن البايات الذين حكموا بايلك الشرق منذ فرحات باي (1052 هـ - 1647 م) حتى سقوط قسنطينة في عهد الحاج أحمد باي[8]، مبررا صفاتهم صفاتهم ومحاسنهم ومساوئهم. وقد حاول أن يقدم وصفا دقيقا عن كل باي حيث رأى أن البايات كانوا يعيَّنون من قبل الباشا بالجزائر العاصمة ويتوقف تثبيتهم بالبايلك على نقطتين أساسيتين:

أولا : المحافظة على الأمن في المنطقة.

ثانيا: جمع الضريبة السنوية التي تدفع وتقدم إلى دار السلطان كل ثلاثة سنوات أو ما يطلق عليه بالدنوش الكبير وكذلك كل ستة أشهر عن طريق الخليفة ويطلق عليه الدنوش الصغير.

---

[1] - العنتري: فريدة منسية، مقدمة وتمهيد يحي بوعزيز، المصدر السابق، ص 4.

[2] - العنتري: فريدة مؤنسة، تحقيق أحمد سيساوي، المصدر السابق.- ص ص 19-20.

[3] - المصدر نفسه.- ص27.

[4] - العنتري: فريدة منسية، مقدمة وتمهيد يحي بوعزيز، المصدر السابق، ص 5.

[5] - المصدر نفسه.- ص 5.

[6] - المصدر السابق.- ص 58.

[7]- Grangaud, I : Op cit, p. 324.

[8] - العنتري: فريدة مؤنسة، تحقيق أحمد سيساوي، المصدر السابق. ص ص 35-36.

إذاً فالعلاقة بين الباي ودار السلطان هي علاقة ضرائبية من الدرجة الأولى، كما نستشف من كتابه وخاصة في عهد صالح باي الحملات التي كان يشنها على القبائل.

ويقر العنتري أن أقصى ما وصل إليه نفوذ البايلك هو منطقة تقرت وهذا في عصر صالح باي الذي عاصر عثمان باشا (1791-1997) وكذلك محمد الكبير بمقاطعة الغرب الجزائري.

ومن خلال تتبعنا للعنتري نستشف كذلك بأن العلاقة بين البايلك والقبائل هي علاقة ضريبية لا غير.

أما الفترة الثانية فقد تناول فيها العنتري حكم أحمد باي[1] حيث توسع في الحديث عنها، فتكلم عنه وعن سياسته اتجاه القبائل وبين مزاياه وعيوبه[2] وقد اتهمه بالظلم والجور[3].

أما الفترة الثالثة فقد تناولت وصفا دقيقا عن حصار مدينة قسنطينة من قبل الفرنسيين ومقاومة السكان لهم.

كما تعرض إلى سير بعض الحكام الفرنسيين وذكر خصائصهم، كما وصف الحالة الاقتصادية والاجتماعية خلال السنوات العشر للحكم الفرنسي[4].

إذاً فالكتاب يقدم دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية للبايلك، وقد وظف كمصدر رئيسي في جل الدراسات خاصة وأنه يكاد يكون الوحيد على الساحة[5].

ب ـ ابن المبارك

هو الحاج بن عمر بن أحمد بن محمد العطار القسنطيني، ويعرف أيضا باسم الحاج أحمد بن المبارك[6]، ولقب بالقسنطيني نسبة إلى أصله[7].

ولد بقسنطينة عام 1204 هـ الموافق لـ 1790 م وتوفي[1] سنة 1287 هـ الموافق لـ 1870 م[2].

1- ذكر سيساوي أن العنتري قدم صورة تبدو لأول وهلة موضوعية عن طبيعة الباي حاج أحمد على الرغم من أنه يتهمه بقتل والده. ومجمل القصة أن محمد العنتري لما ذهب رسولا من قبل الحاج أحمد باي اتهم بتلقي رشوة ليشيع بين الناس أن القوات الفرنسية كثيرة العدد والعدة ولكن الحاج أحمد باي لم يتطرق إلى حادثة قتله في مذكراته حيث ذكر: "...أرسلت إلى معسكر الفرنسيين كاتبي ومعه اثنين من المخازنية وظل الرسل غائبين مدة ليلتين ونهار..." انظر: الزبيري محمد العربي: مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، الجزائر، ش.و.ن.ت. ط. 2، 1981، ص 68.

2- العنتري: فريدة مؤنسة، تحقيق أحمد سيساوي، المصدر السابقن ص 41.

3- هي الدعاية بتوجيه من بواسوني لتأليب السكان عليه في ذلك الوقت.

4- المصدر نفسه، ص 42.

5- قشي فاطمة الزهراء: المرجع السابق، ص 58.

6- بن علي شعيب محمد المهدي: المرجع السابق، ص 273.

7- El Mobarek : Op cit, p. 266.

انتقل صغيرا من قسنطينة إلى ميلة[3] وتربى فيها عند أخواله الذين كانوا ينتمون إلى عائلة كبيرة هناك، البنو العطار، وقد بدأ دراسته في زاوية العائلة[4]، حيث أخذ مبادئ العلوم وحفظ القرآن الكريم، ثم رجع إلى قسنطينة لإكمال دراسته على يد شيوخ ذوي شهرة من أمثال الشيخ عمار الغربي الإمام الخطيب في جامع القصبة، ومحمد الميلي المشهور بالتحقيق، ومحمد العربي بن عيسى بمدرسة الكتاني.

أما عن وظائفه فقد ولّي الأوقاف ثم القضاء مرتين والخطابة بمسجد سيدي علي بن مخلوف ومسجد رحبة الصوف[5].

إضافة إلى هذا فقد عمل في التجارة فكان يتوجه إلى تونس لشراء عمائم الحرير وأنواع العطور ثم يبيعها في قسنطينة وقد سافر أيضا لأداء فريضة الحج.

كما تولى منصب الإفتاء المالكي بعد وفاة شيخه أحمد العباسي، كما عين عضوا بالمجلس الشرعي الإسلامي[6] وقد طرد من وظيفته هذه من قبل السلطات الفرنسية بعدما تُؤكِّد من أنه يقيم علاقات سرية مع الحاج أحمد باي[7].

مؤلفاته

لقد كان لنشر مقالين في الوقت نفسه في المجلة الإفريقية في سنة 1913 الفضل في لفت الانتباه إلى الحاج أحمد بن المبارك.

الأول لألفرد دورنو Alfred Dournon[8]، أستاذ في مدرسة الجزائر والثاني لشارل سان

1- ذكر دورنو أ. Dournon أن الشاعر العاشور هو الذي كتب على شاهد قبره والذي يسمح بتحديد تاريخ وفاته وهي كالآتي: توفي يوم الثلاثاء الأول من رجب 1287هـ/ 5 أكتوبر 1870.

2- بن علي شعيب محمد المهدي: المرجع السابق، ص 273.

3- المرجع نفسه، ص 273.

4 - El Mobarek : Op cit, p. 266.

5- بن علي شعيب محمد المهدي: المرجع السابق، ص ص 273-274.

6- المرجع نفسه، ص 274.

7- El Mobarek : Op cit, p. 267.

8- نشر ألفرد دورنو مقالا في المجلة الفرنسية الإفريقية لسنة 1913 Revue Africaine من 41 صفحة أي من صفحة 265 حتى 305 بدأ بتقديم فكرة عن الحاج أحمد بن المبارك حياته وأعماله وكذلك تضمن المقال ترجمة لكتابه والذي بدأه من ص 268 إلى ص 305 أي ما مجموعه 38 صفحة.

كالبر Charles Saint Calbre[1]، مدير مدرسة قسنطينة[2].

وعندما قدّم سان كالبر مختصر حول كتاب ابن المبارك أعلن عزمه عن القيام بترجمته لاحقا وكان يجهل ما قام به دورنو بالجزائر العاصمة الذي ترجمه[3]. وقد أشار دورنو أنه اطلع على نسختين من المخطوط، الأول الموجود في المكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، والآخر محفوظ في مكتبة المدرسة أين يُدرّس[4]، بينما ذكر سان كالبر أن عدة نسخ من كتاب ابن المبارك هي بين يدي تلاميذه[5].

إذًا فقد كتب المخطوط حوالي 1852م وترجم سنة 1913، وطبع لأول مرة في الجزائر عام 1372 هـ - 1852 م بتصحيح من الأستاذ نور الدين عبد القادر الجزائري وأعيد طبعه أخيرا سنة 1971 بعد تصحيح الأستاذ رابح بونار[6].

ومؤلّفه هذا "تاريخ قسنطينة" لا يزيد عن تسع وعشرين ورقة من الحجم الصغير[7] ولا يشمل كل بايات قسنطينة حيث اختصر على ذكر سبعة بايات فقط[8] كما أنه ينقصه الربط الزمني في سرده للأحداث[9].

وعلى العموم فالكتاب يعتبر مرجعا أساسيا لتاريخ الإقليم القسنطيني لا يمكن لأي باحث متخصص الاستغناء عنه[10].

1- نشر شارل سان كالبر مقالا كذلك في السنة نفسها أي في سنة 1913 بالمجلة الإفريقية عرّف فيه ببعض المؤلفين العرب الذين كتبوا عن قسنطينة منهم أحمد بن المبارك، العنتري، ومحمد الشادلي بن محمد بن عيسى والمقال يضم 26 صفحة من ص 70 إلى ص 95.

2- Grangaud : Op cit, p. 309.

3- Idem.

4 - Dournon : Op cit, p p. 265-266.

5- Saint Calbre : Op cit, p. 73.

6- بن علي شعيب محمد المهدي: المرجع السابق، ص 297.

7- مؤلف مجهول: تاريخ بايات قسنطينة: المرحلة الأخيرة، تحقيق مختاري حساني، [د.م]، منشورات دحلب، [د.ت]، ص 6.

8- بن علي شعيب: المرجع السابق، ص 279. انظر كذلك: مؤلف مجهول: المرجع السابق، ص 6.

9- قام بتقديم ترجمة بايات متأخرين على بايات جاءوا قبلهم.

10- بن علي شعيب: المرجع السابق، ص 279.

ثالثا ـ كتابات الضباط الفرنسيين الإداريين وإرنست مرسييه

أ ـ كتابات الضباط الإداريين

1 ـ نشأتهم: بداية نشاطهم

لقد نتج عن اتخاذ قرار غزو الجزائر من قبل فرنسا استعدادات عسكرية بالإضافة إلى استعدادات ذات طابع خاص تتمثل في جمع كل المعلومات المتاحة عن الجزائر. كما تم طبع لمحات تاريخية، إحصائية وطبوغرافية تم توزيعها على الضباط[1].

إضافة إلى هذا تم تنظيم هيئة مترجمين Corps d'interprète حيث وقّع الجنرال ديسبريز Général Desprez قائد الأركان العام في مارس 1830 على أمر يحدّد فيه المترجمين الذين سيتم إلحاقهم بالحملة[2].

وقد كانت من قبلها الحملة على مصر قد أبرزت أهمية المترجمين لدى الحكومة ودورهم في إنجاح الغزو، كالمراسلات بالعربية أو ربط العلاقات مع الأهالي وتوجيه القوات عند الحاجة في بلد مجهول[3].

ومن نتائج هذه الجملة على مصر أن عددا من المترجمين الذين كانوا يعيشون في البلدان العربية من أهل الذمة والذين خدموا مع القوات الفرنسية في مصر رجعوا مع هذه القوات إلى فرنسا وكانوا معها عند احتلال الجزائر[4].

---

[1] - تم كذلك وضع معجمين تحت تصرف ضباط الحملة، الأول كان بأمر من وزارة الحربية من قبل المترجم بنيامين فانسون Benyamin Vincent، والثاني من قبل أبراهام دانينو Abraham Daninos، ولد في الجزائر العاصمة سنة 1707 تحصل على الجنسية الفرنسية وعمل سنة 1830 مترجما لدى المحكمة التجارية بالسين la Seine، انظر :

Masse, H : Les étude arabes en Algérie (1830-1930), in R.A, T. LXXIV, 1933, p. 209

[2]- Pyronnet, R : Livre d'or des officiers des affaires indigènes 1830-1930, T 1, Alger, Imprimerie Algérienne, 1930, pp. 22-23.

[3]- Feraud, Charle : Les Interprètes de l'armée d'Afrique : Archive du corps, Alger, Jourdan A., Librairie, édition, 1876, p. 48.

[4] ـ من هؤلاء الذين شاركوا في حملة نابليون على مصر نجد إلياس فرعون Elias Pharaon وقد خدم ابنه جوني فرعون Joanny Pharaon وحفيده فلوريان Florian Pharaon في الجيش الفرنسي في الجزائر كمترجمين، وهناك مصري آخر كان ضمن جيش بونابرت هو إلياس بوختور Ellious Bocthor والذي أصبح فيما بعد أستاذ اللغة العربية في المدرسة الملكية للغات الشرقية (l'Ecole royale des langues Orientales).

أما جان شارل زكار[1] Jean Charles Zaccar فكان مترجم الإعلام الموجه للعرب من قبل الجنرال دي بورمون De Bourmont[2].

وقد طرحت أمام السلطات الاستعمارية بعد احتلال الجزائر العاصمة عام 1830 قضية إدارة الأهالي، حيث وجد الفرنسيون أنفسهم أمام مجتمع جزائري يجهلون كل شيء عنه، لغته، عقيدته، تقاليده وطبيعة بلاده الجغرافية[3].

وقد أدى هذا إلى الاستعانة بالمترجمين فتحولت مهمة المترجم من مجرد موظف متمكن من اللغتين أو مجرد معجم إلى إداري يعرف القوانين الفرنسية وكذلك على إطلاع على عادات وقوانين الأهالي.

وقد أحدث دي بورمون في السادس جويلية اللجنة الحكومية المشكلة من قنصل ومترجمين وثمانية أعضاء.

وقد أمدت هيئة المترجمين عناصر لتشكيل مختلف المصالح وضمان السير العادي لها منهم :

ـ دوبينوسك d'Aubignosc: عيّن لواءً للشرطة.

ـ جيراردان Gerardin: مهمته التعرف على المباني الحضرية والريفية التي تشكل أملاك الدولة وفي 15 جويلية عين نهائيا على رأس هذه المصلحة.

ـ إيزاب دي سالس وفانسان Eusebe de Salles et Vincent : أعطيت لهما مهمة دراسة الموارد وعائدات البلاد ومنحت كذلك إدارة مصالح الجمارك، والصحة والميناء إلى المترجمين[4].

إذاً فقد طلب الجنرال من هيئة أركانهم من 1830 إلى 1832كل المعلومات التي كانوا يحتاجون إليها عن القبائل المحيطة بالجزائر العاصمة وفي الداخل.

ولقد تعدد الأشخاص المكلفون بهذا العمل أو المسائل الأهلية وتعددت تسمياتهم، فقد مُنح

---

[1]- ولد جان شارل زكار في دمشق، في 19 جانفي 1789 كان مسيحيا. انظر بيوغرافية حياته من كتاب:

Feraud, Ch : Op cit, pp. 182-183-184.

انظر كذلك ما كتبه عميراوي في هذا الموضوع: عميراوي أحميدة صالح: السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري (1830-1850)، رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ، جامعة منتوري، قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، قسم تاريخ، 1998-1999م، ص 387.

[2]- Masse, H : Op cit, p. 209.

[3]- فركوس صالح: احتلال ومقاومة : المكاتب العربية بمقاطعة قسنطينة (1844-1871م)، رسالة دكتوراه الدولة في التاريخ المعاصر، جامعة منتوري، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ،2001، ص 11.

[4]- Feraud, Ch : Op cit, pp. 58-59. Voir aussi : Pyronnet, R : Op cit, p. 24.

هذا المنصب إلى ضباط دواوين الجنرالات، ثم وظف ضباط سامون من الدرك والذين حصلوا في فيفري على لقب آغا العرب[1].

وأول من أسندت إليه هذه الوظيفة كان في عهد الجنرال دي بورمون هو حمدان بن أمين السكة[2]. وكان لكل واحد من القواد الثلاثة آغا خاص به يعينه بنفسه، فإذًا كان دي بورمون قد عيّن حمدان بن أمين السكة، فقد استبدله كلوزيل Clauzel بقائد سرية الدرك منديري Mendiri وكان هذا في 18 فيفري 1831[3].

أما بيرتزن Berthezene فقد عين محي الدين الصغير بن مبارك[4] بقرار إداري في 24 جوان الذي شغل المنصب حتى مارس 1833[5]، وكان هذا بقرار إداري في 24 جوان 1833[6].

لقد فشلت جميع التجارب السابقة لعدة أسباب منها: النظر إلى حمدان بن أمين السكة نظرة احتقار بين الأهالي، أما منديري فكان يجهل اللغة، وعادات البلاد وقد ظهر أكثر رداءة من سابقه، أما محي الذين الصغير بن مبارك[7] فقد غضب بعد توقيف أقاربه[8].

بالإضافة إلى هذا فقد تم تجربة أعوان عديدين رسميين وغير رسميين: رجال أعمال يهود كانوا وسطاء بين القادة والجنرالات ولكن وصفوا بأنهم عديمو الكرامة وكانوا يحطون من قدر فرنسا بدلا من تثبيت هيبتها وزيادة تأثيرها. كذلك لم يكن الأهالي يثقون في هؤلاء الوسطاء[9]. وقد رأى مرسييه في هؤلاء الوسطاء أنهم شكلوا عائقاً في التعرف على المجتمع الجزائري وأنه أبقى الفرنسيين تابعين لهم[10].

إذا فقد كان أحد الشروط الأساسية للعمل في الشؤون العربية هي تكلم لغة البلاد وقد توفر هذا الشرط لدى المترجمين الذين شاركوا منذ الأيام الأولى في عمل هيئة الأركان.

---

[1]- لقب آغا العرب مأخود من الحكم التركي.

[2]- فركوس: المرجع السابق، ص 12.

[3]- Mercier, E : L'Algérie et les questions algériennes, Paris, Challamel Ainé éditeur, 1883, p 29.

[4]- Yaconno, Xavier : Les bureaux arabes et l'évolution de la vie indigène dans l'Ouest du Tell Algérois (Dahra, Chelf, Ouarsenis, Sersou), Paris, Gouvernement général de l'Algérie, collection de documents inédits et d'études sur l'histoire de l'Algérie, III série, T I, Edition Larousse, 1953, p. 10.

[5]- Pyronnet, R : Op cit, p. 25.

[6] - Mercier, E : Op cit, p. 29.

[7]- هو السيد محي الدين بن مبارك ينحدر من عائلته مرابطية بالقليعة ولقد تقم وسخط على الاستعمار الفرنسي بعد اعتقال أقاربه فكانت القطيعة القطيعة بينه وبين الفرنسيين.

[8] - Yaconno, X : Op cit, p. 10. Voir aussi : فركوس: المرجع السابق، ص 12

[9] - Pyronnet, R : Op cit, p. 25.

[10] - Mercier, E : Op cit, p. 29.

ولكن في بداية عام 1833 كان هناك ضابط واحد متمكن من اللغة العربية والذي أسس أول مكتب عربي وهو لموريسيير La Moricière[1].

ونستعرض ما قاله لموريسيير عند تعيينه أو كيف عرض وقائع تعيينه «في شهر فيفري 1833، أراد المعتمد أو المراقب المدني L'intendant civil أن يقوم بنوع من الجرد لكل ممتكلات الحكومة في المدينة أو داخل خطوطنا... لتفحص هذه المسألة يجب معرفة تشكل الملكية في هذه البلاد قبل مجيئنا...»[2].

ويستمر لموريسيير في سرد الأحداث ويطلعنا على أعمال جديدة قام بها ويبدي رضاه وسروره بها «بعد يومين من بداية عملي كلفت بعمل آخر جديد ولكن أكثر أهمية واهتماما من الأول وخاصة فهو يبقيني قريبًا من مهامي العسكرية...»[3].

وقد شرح لموريسيير طبيعة عمله الجديد بالتفصيل حيث تمثل في تنظيم عمل سابق له، فقد ذكر: «كان الدوق قد ذهب ومعه سكرتيره الشخصي وشخص آخر كان يشغل وظائف مشابهة لوظيفة سكرتير.

كان في يد هذين الشخصين إدارة مكتب يطلق عليه الديوان العربي Cabinet Arabe أين تعالج تحت أعين الدوق الذي لم يكن يرى شيئا كل القضايا الدبلوماسية مع سكان البلد، أي بمعنى آخر مع أهالي الداخل، مع بجاية، وعدة نقاط مهمة في الساحل وأخيرا مع أولئك الذي هم في نواحي قسنطينة.

وأمام أناس لا يفهمون العربية، كان للمترجمين اليد الطويلة في كل ما يعمل، كان كل شيء يذهب إلى الأسوأ.

وعند ما شعر الجنرال تريزل قائد الأركان والقائد الأعلى بالنيابة السيد أفيزارد Avisard[4] أن الأمور سوف تستمر على هذا المنوال، كلفني بإقامة مكتب عربي، وذلك من أجل ضبط كل ما كان يجرى من قبل وتنظيم بطريقة صحيحة مصلحة الشؤون الخارجية...

ومنح لي تحت إمرتي أربع مترجمين وسكرتير وكل الموظفين من الأهالي وكذلك إدارة التي تقدر ميزانيتها بـــ 60.000 فرنك في العام»[5].

---

[1] - Pyronnet, R : Op cit, p. 25.
[2] - Ibid, p. 26.
[3] - Idem.
[4] - ذكر مرسييه أنه في شهر مارس 1832 عندما كان الجنرال أفيزارد قائدًا بالنيابة تم تنظيم المكتب العربي حسب نصائح الجنرال تريزل. انظر:
Mercier, E : Op cit, p. 30.
[5]- Pyronnet, R : Op cit, pp. 26-27.

ثم يشير لموريسيير بثقة إلى أهمية عمله قائلا «أظن أن الوزير لن يخلق صعوبة في تثبيتي في موقعي الجديد، ليس فقط أنني مطلوب من طرف القادة العسكريين لكن أيضا من قبل السلطات المدنية حيث أؤدي لهم خدمات يومية لمنحهم مفاهيم يفتقدونها عن البلاد، مهما يكن من أمر فأنا اليوم معين كرئيس للمكتب العربي...»[1].

ومع هذا يبقى لموريسيير متواضعا إذ يقول «... لم يكن هناك مجال للاختيار، كان يجب أن يكون هناك ضابط يتكلم العربية وأنا هنا اليوم الوحيد...»[2].

وقد كان عمل لموريسيير قد نال رضا خلفاء الدوق روفيقو فقد دافع الجنرال أفيزارد[3]عن المؤسسة لدى الوزير وكتب إليه معبرا عن رضاه عن عمله حيث أنه متمكن من اللغة العربية كما أنه مكلف بمراقبة وتصحيح عمل المترجمين، وكان يقدم تقارير يومية عن أوضاع البلاد ويتابع بأمانة العلاقات مع القبائل[4].

وقد أيّد المؤرخون كذلك اختيار هذا الضابط ففي أرشيف الجزائر مازالت تقاريره اليومية عن مواضيع مختلفة مدروسة بعمق من القضايا الصغيرة ذات الأهمية النسبية إلى رئيس القبيلة، ومن اليهودي المتواضع أو الكرغلي إلى المشاكل الدينية الخطيرة التي تفصل بين المسلمين والمسيحيين والتي تُقسم المسلمين أنفسهم[5].

وبعد أن تخلى لموريسيير عن أداء وظائفه لمشاركته في الحملة على بجاية ترك مكانه "لمستشرق عجوز" هو دي لابورت De la Porte الذي لم يكن رجل ميدان حيث كان لا يمتطي حصانا[6].

ثم جاءت حكومة الكونت إيرلون Comte d'Erlon في سنوات 1834 و1835، وكانت حكومة غير مبالية بالمترجمين. وهكذا ألغي المكتب العربي[7] وأعيدت في 1835 وظيفة آغا العرب

[1] _ علّق مرسييه على إنشاء أول مكتب عربي قائلا "هكذا تم إنشاء مؤسسة أصبحت أحد أحسن وسائل الغزو". انظر :

Mercier : Op cit, p. 30.

[2]- Pyronnet, R : Op cit, p. 27.

[3]- هو القائد الأعلى بالنيابة بعد أن ذهب الذوق روفيقو إلى فرنسا بسبب المرض.

[4] - Ibid, p. 28.

[5] - Idem.

[6] - Yaconno, X : Op cit, p. 11. Voir aussi : Feraud, Ch : Op-cit, p.67 et Pyronnet, R : p. 29.

[7] - Mercier, E : Op cit, p. 30.

وعين فيها المقدم ماري مونج Marey Monge وكان تحت تصرفه ضابطين مساعدين ومترجمين وكان مؤهلا لإدارة العرب[1].

ومع مجيء حكومة دامرمون Denys de Damremont نصّب الرائد بيليسي دي رايموند Pellissier de Raymond[2] على رأس الشؤون العربية تحت تسمية "إدارة الشؤون العربية Direction des affaires arabes" وكان هذا في 15 أفريل 1837.

ومن بين الأسباب التي أدت إلى هذا التوسع هو الاهتمام الذي خص به المترجمون نتيجة لظروف الاحتلال نفسه وتوسعه في الجزائر باحتلال مقاطعة قسنطينة، القليعة، بليدة مما أدى إلى ازدياد الطلب على المترجمين[3].

وقد جسد بيليسي هذا الاهتمام حيث عرف قيمة الخدمات التي يمكن أن يقدمها المترجمون فانتدب ستة من هيئة الأركان العامة[4].

وبعد سنتين استقال بيليسي من رئاسة تلك الإدارة وقد كانت لأسباب شرفية كما ذكر الأستاذ فركوس[5] ولكنه كان في خلاف مع خليفة دامرمون الجنرال فالي الذي ألغى مديرية الشؤون العربية ومنحت صلاحيتها إلى هيئة الأركان العامة مثل الأيام الأولى من الغزو[6] وذلك في في 1839[7].

2 ـ تطورهم : الضباط الإداريون في الشرق الجزائري

لقد كان إقليم الشرق الجزائري محل اهتمام الفرنسيين منذ سقوط الجزائر العاصمة، فقد تعرضت مدنه إلى حملات متعددة ومختلفة[8]. وقد تضاعف الاهتمام به بعد مجيء دي روفيقو حيث

1- Yaconno, X : Op cit, p. 11. Voir aussi : Pyronnet : Op cit, p. 29

2- كان بيليسي قبل هذا ملحقا بأول مكتب عربي وقبل هذا شارك في احتلال الجزائر عام 1830 كنقيب في هيئة الأركان ثم مساعداً للجنرال فوارول Voirol، ثم شارك في حملة معسكر وتلمسان، وعين مديرا للشؤون العربية في 1837. انظر مقدمة للناشر:

Pellissier, De Raymond : Description de la régence de Tunis, Tunis, Editions Bouslama, 2ème édition, 1980.

3- Pyronnet : Op cit, p. 29. Voir aussi : Feraud : Op cit, p.68.

4- Idem. Voir aussi : Yaconno : Op cit, p. 12.

5- فركوس: المرجع السابق، ص 13.

6- Yaconno : Op cit, p. 12.

7 - Mercier, E : L'Algérie et les questions algériennes : Op cit, p 30.

8- لقد كانت هناك حملة على عنابة في 25 سبتمبر 1830 بتوجيه من دي بورمون وقيادة دامرمون وتم احتلالها في 13 سبتمبر 1831 وكانت أولى أولى الحملات على بجاية في أوت 1830 وقد تمكن الفرنسيون من احتلالها في سبتمبر 1833.

أنه ربط استمرار بقاء الفرنسيين بالجزائر بالسيطرة على منطقة الشرق الجزائري وقسنطينة[1].
وتجسدت هذه السياسة بعد احتلال مدينة قسنطينة في 13 أكتوبر 1837، إذ كانت هناك 30 حملة عسكرية ضد سكان إقليم الشرق الجزائري، وخاصة منطقة الشمال القسنطيني خلال فترة (1838-1858)[2].

وقد أدت سياسة التوسع هذه إلى زيادة الطلب على المترجمين حيث أن الاهتمام الذي خُصّ به المترجمون كان نتيجة الاحتلال نفسه وتوسعه في الجزائر باحتلال مقاطعات أخرى ومنها مقاطعة قسنطينة[3].

وقد تبلور هذا الاهتمام وبلغ من حيث التنظيم أوجه في عهد الجنرال بيجو Bugaud فقد كان لهذا الجنرال الرغبة في بسط ونشر نفوذ الاستعمار على كامل الجزائر، لذا فقد تم إعادة تأسيس إدارة الشؤون العربية بتاريخ 16 أوت 1841 وكان الضابط دوماس Daumas رئيسا لها[4].

وأعاد بيجو تنظيم مديرية الشؤون العربية، فقد رأى أنه يجب التمييز بين هيئة الأركان المكلَّفة بإعداد العمليات العسكرية وتنظيم سياسي وإداري الذي مهمته توجيه القبائل الخاضعة[5].
الخاضعة[5].

وقد أدى توسع الاحتلال إلى انضواء عدد كبير من القبائل تحت السلطة الاستعمارية و لم تعد المصلحة المركزية في الجزائر العاصمة بإمكانها معالجة كل القضايا نتيجة لكثرتها. وقد أدى هذا إلى وجوب أن تكون هناك لا مركزية، لهذا صدر مرسوم وزاري في الفاتح من فيفري 1844 أسّس للمكاتب العربية[6].

ولعب الجنرال دوماس دورا كبيرا في ظهور هذه المؤسسة وتطورها، حيث أدخل تعديلات على إدارة الشؤون العربية لتتشكل من شبكة ذات نظام متفرع هرمي وفق السلم الإداري لمؤسسة تلك المكاتب[7].

1- عميراوي حميدة : السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري، المرجع السابق، ص ص 169-170.

2- بورغدة رمضان: الجزائريون والعدالة الفرنسية في قسنطينة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، سنة 2000، ص 3.

3-Feraud : Op cit, p. 68.

4- فركوس: المرجع السابق، ص 15.

5- Pyronnet : Op cit, p. 29. Voir aussi : Yaconno : Op cit, p. 12.

6- Pyronnet: Op cit, p. 30.

7- فركوس: المرجع السابق، ص 15.

وقد نص تشريع 1844 على أن كل ناحية عسكرية أي بمعنى كل مقاطعة تكون لها مديرية الشؤون العربية تركز في يدها إدارة الأهالي، وترجع إليها المكاتب العربية المقامة في كل منطقة عسكرية وفي كل موقع احتلال[1].

وقد ذكر الباحث فركوس في دارسته حول المكاتب العربية في الشرق الجزائري[2] أن مقاطعة قسنطينة قسمت إلى وحدات إدارية، وكانت كل وحدة إدارية تشكل دائرة وكل أربع دوائر أو خمس تكوّن قسمة، فقد كانت مقاطعة قسنطينة تتشكل من أربع قسمات وثمانية عشرة دائرة[3].

وقد بين كذلك نوعية المكاتب العربية الموجودة فيها[4] حيث ذكر أن كل قسمة يوجد بها بها مكتب عربي من الدرجة الأولى وكل دائرة بها مكتب عربي من الدرجة الثانية حيث كانت مقاطعة قسنطينة تضم أربعة مكاتب من الدرجة الأولى وأربعة عشر مكتبا من الدرجة الثانية ويضاف إلى هذا العدد إدارة الشؤون العربية بعاصمة المقاطعة[5].

كما وضح فركوس طبيعة مهامها إذ ذكر أن هذه الإدارة مكلفة بتبليغ أوامر الحاكم العام وكذا أوامر الجنرال القائد الأعلى للمقاطعة إلى رؤساء المكاتب الأخرى.

كذلك التنسيق مع رئيس المكتب السياسي بالجزائر العاصمة. وضمان سير المراسلة والتنسيق مع إدارتي العاصمة ووهران للشؤون العربية[6].

3 ـ مهامهم: تكوين المكتب العربي وتطور وظيفة المترجم العسكري

يوجد على كل رأس مكتب عربي، رئيس مكتب وهو ضابط فرنسي ذو رتبة غير محددة، ملازم أول أو نقيب، يوجد تحت إمرته ضابط أو ضابطان ولكن صاحبا رتبة أو أقدمية تكون أقل. ويوجد في السلم التراتبي الخاص بالمصلحة في صف مساعد متربص، مساعد من القسم الثاني والأول.

1- Pyronnet : Op-cit, pp. 32-33.

2- بلغ عدد المكاتب العربية بمقاطعة قسنطينة سنة 1857 18 مكتبا وملحقان وبلغ عدد الضباط الموظفين سنة 1855 39 ضابطا.

3- فركوس: المرجع السابق، ص 19.

4- يوضح كذلك الأستاذ فركوس بجدول تنظيمي يبين التسلسل الإداري للمكاتب العربية.

5- المرجع نفسه، ص 19.

6- المرجع نفسه، ص 19.

- قاضي، قاضي مسلم، ومساعديه.

- سكرتير فرنسي يكون برتبة ضابط صف، عريف أو جندي.

- خوجة أو سكرتير أهلي مكلف بالمراسلات العربية.

- مترجم.

- شاوش، محضر huissier وعون مكتب(1).

- بعض الفرسان(2).

- طبيب ملحق بالمكتب(3).

نلاحظ من خلال مكونات العنصر البشري للمكتب العربي أنه يتكون من عسكريين ومدنيين وموظفين أهالي وفرنسيين ذوي اختصاصات متعددة وهذا بطبيعة الحال كما قلنا من أجل الاحتلال والسيطرة والإخضاع بجميع أشكاله؛ العسكري والثقافي والديني والاجتماعي.

حيث تعد هذه المؤسسة أي مؤسسة المكاتب العربية جزء لا ينفصل عن المؤسسة العسكرية الاستعمارية(4).

وسوف نحاول أن نسلط الضوء على إحدى هذه العناصر المكونة للمكتب العربي وهم المترجمون لأن طبيعة الموضوع تقتضي ذلك فقد كان إرنست مرسييه مترجما عسكريا، ونطرح السؤال الآتي:

هل يعتبر المترجمون العسكريون جزءا من هاته المؤسسة العسكرية؟ أي هل يعتبرون ضباطا ضمن مؤسسة المكاتب العربية؟

إن الرائد بيروني Pyronnet في كتابه الذي خصصه لضباط الشؤون الأهلية من 1830-1930. 1830-1930 Livre d'or des officiers des affaires Indigènes.

قد طرح السؤال نفسه حيث قال : «من هم الضباط الذين يجب أن يظهروا أو أن توضع أسماؤهم في هذا الكتاب»؟

وقد أجاب قائلا: هم:

---

[1] - Pyronnet : Op cit, p. 34. Voir aussi : فركوس: المرجع السابق، ص 17.

[2] - يقدر عددهم بـــ 25 من الصبايحية و8 مخزنيين.

[3] - Girault, Arthur : Principe de colonisation et de législation coloniale, 3ème partie, [S.L], Librairie du recueil Serey. 5ème édition, 1931, p. 137. Voir aussi : Colot, Claude : Les Institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830-1963), Paris : Centre de recherches et d'études sur les sociétés méditerranéennes, édition du CNRS.- Alger, O.P.U, 1987, p. 39.

[4] - فركوس: المرجع السابق، ص 23.

1ـ الضباط الذين بدؤوا قبل التنظيم النهائي للمكاتب العربية في شغل المهمة.

2ـ الملازمون الأولون والنقباء، استثنائيا الضباط السامون الذين شكلوا إطارات المكاتب العربية المسماة لاحقا مكاتب الشؤون الأهلية.

3ـ الضباط السامون واستثنائيا النقباء، الذين كانوا قادة سامون، أي بمعنى الذين كانت لهم سلطة على ناحية صغيرة تضم عدة مكاتب أو ملاحق[1].

ويستمر بيروني في ذكر الضباط الذين لهم الحق في أن يكونوا، ضمن قائمة هذا الكتاب بصفتهم ضباطا أهليين:

4) الضباط السامون، جنرالات الذين كانوا رؤساء مصالح أي بمعنى :

أ - قادة مناطق.

ب - الحكام العامون العسكريون.

5) المترجمون العسكريون الذين هم ضباط شؤون أهلية حقيقيون[2].

ولعل تأكيد بيروني على هذه النقطة هو اعتراف بدور المترجمين العسكريين الذين لم تكن بدايتهم في الجزائر سهلة على الإطلاق حيث لم يكن وضعهم القانوني واضح في بداية الاحتلال حيث كان يجهل هل تتم معاملتهم كعسكريين أم كمدنيين، وهذا ما بينته رسالة التهنئة التي وجهت إلى المترجم ريموزا Remusat الذي برز في حملة المدية.

حيث يذكر مرسل الرسالة وهو الجنرال قائد الأركان العامة Le lieutenant Général chef d'état Major général الأعمال التي قام بها هذا المترجم والمعارف التي يملكها في اللغة العربية ويصل إلى المقطع الذي يشير فيه إلى صفة المترجـــم « …Certainement si vous eussiez été militaire, le passage du col de l'Atlas eut été signalé pour vous par la décoration de la légion d'honneur… »[3].

إن هذه الأوضاع المبهمة والمزرية التي عانت منها هيئة المترجمين قد ذكرها فيرو بشيء من التفصيل في كتابه، قد أدت بهم إلى تقديم مذكرة[4] أو عريضة تضمنت شكاويهم وعرضت خيبتهم في حياة جديدة باختيار الانضمام إلى هذه الهيئة.

تعرض المذكرة كذلك فكرة أن الرجال الذين اختاروا هذه المهنة قد ضحوا وغادروا

1- Pyronnet : Op cit, p. 71.

2- Pyronnet : pp. 71-72.

3- Feraud : Op cit, pp. 60-61.

4- كانت القطرة التي أفاضت الكأس حسب فيرو أنه في 1840 تشاجر مترجم مؤقت أهلي Interprète provisoire indigène وكان في حالة سكر وكان يلبس بدلة ضباط هيئة الأركان بصفة غير قانونية وكانت هذه الحادثة هي التي عجلت بتقديم عريضة الشكوى هذه.

أعمالهم المربحة والعلاقات الحميمية من أجل المجيء إلى الجزائر دون مقابل.

كما يذكرون أعمالهم السابقة والمهام التي قاموا بها من أجل الحكومة والوظائف التي شغلوها ونذكر:

« Ce qui tient à l'appui de ce que nous disons, c'est qu'en effet chaque fois que le gouvernement a eu besoin d'homme pour remplir des fonctions délicates et dans lesquelles l'instruction et l'entente des affaires devaient servir de base, c'est toujours au sein des interprètes qu'il a choisi ses sujets… »[1].

ويقدمون الأدلة فيعرضون قوائم من المترجمين والوظائف التي شغلوها[2]. أما أهم المطالب التي طرحتها هذه المذكرة فهي:

- وجوب ضمان مستقبلهم المعيشي.

- التخلي عن سياسة تسريح المرسمين وتعويضهم بالمساعدين مما أدى إلى استصغار مهنة المترجمين[3]. ومن بين الوسائل المستعملة للحط من قيمة المترجمين هي معارضتهم لوضعهم العسكري في الجيش[4].

وطالبوا رفع مستواهم العلمي حيث اقترحوا طرد المساعدين الأهليين وتعيين في المستقبل شباب فرنسيين مثقفين ينتمون إلى عائلات محترمة[5].

أي طرد العناصر الأمية وغير الأخلاقية وتقديمهم للمحكمة[6].

وقد وُقّعت هذه العريضة في الجزائر سنة 1840 أما الأعضاء الممضون فيها هم :

جوني فرعون، زكار، ريموزا، جوليان Julien، روسو Rousseau، روزيتي Rosetti [7].

بعد تقديم هذه العريضة شكلت لجنة[8] للتكفل بجدية بهذه المطالب متكونة من :

- دوماس : قائد سرية ومدير الشؤون العربية.

- روش Roches: مترجم رئيسي لدى الحاكم.

- ريفي Rivet : نقيب في سلاح المدفعية.

1- Ibid, pp. 73-74.

2- عرضوا قوائم لمترجمين شاركوا في الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر وشغلوا مهام بعد احتلال الجزائر منهم فانسان دوبينوسك وقائد الشرطة وجيرار دان مدير الأملاك وكذلك فرعون أستاذ العربية وأسماء أخرى بلغ عددها 30 اسما.

3- Ibid, p. 77.

4- Ibid, p. 79.

5- Ibid, p. 81.

6- Ibid, p. 83.

7- Ibid.- p.- 84.

8- في أواخر سنة 1842 كلفت لجنة بإعادة تنظيم هيئة المترجمين العسكريين وبتحديد برامج امتحاناتهم. انظر : Masse, H : Op cit,p. 214.

- بريسيني Bresenier : أستاذ اللغة عربية.

- بيربريغر Berbrugger : محافظ مكتبة[1].

وقد خرجت هذه اللجنة بمجموعة من الملاحظات[2] نوجزها فيما يأتي :

- نقص الاهتمام والتقدير لهيئة المترجمين.

- موظفوا هذه الهيئة ليسوا في مستوى الثقة إلا القليل منهم.

- التضحية بالمستوى العلمي والأخلاقي بسبب الاحتياجات الكبيرة لهم.

ونتيجة للأسباب السابقة كانت هجرة العناصر المحترمة[3].

وبالإضافة إلى عرض مختف المشاكل فقد قدمت اقتراحات مستقبلية منها :

- إقامة مؤسسات تعليمية لتكوين المترشحين مع عدم التضحية بالدين عملوا وعدم تعريض حياتهم المهنية للخطر[4].

ولم تكتف الاقتراحات المستقبلية بالتطرق إلى المضمون أي إلى تطوير المناهج التعليمية الخاصة بالمترجمين العسكريين بل تجاوزتها إلى تقديم اقتراحات حول الشكل أي باللباس والرتبة والتعريف بها كالتالي توجد لدى الجيش بين الضباط وصف الضباط.

ونتيجة لتوصيات هذه اللجنة ظهرت أولى القوانين سنة 1845[5] التي نصت في فقرتها الأولى الأولى على تشكيل هيئة لمترجمين موجهين بصفة خاصة للجزائر وفي فقرتها الثانية تنص على أن هذه الهيئة تتكون من مرسمين ومساعدين، وفي الفقرة الثالثة أعطت قائمة للمترجمين والمرسمين وطريقة تعيينهم، أما في الفقرة السادسة فقد تعلقت بتنظيم الامتحانات وفي الفقرة السابعة حددت أعضاء لجنة الامتحان[6].

وقد ظهر سنة 1847 في النشرة الرسمية لنشاط الحكومة رقم 258. Bulletin officiel des Actes du Gouvernement n° 258. برنامج الامتحانات[7].

---

[1]- Feraud : Op cit, pp. 84-85.

[2]- وجدت هذه الملاحظات ضمن أوراق عائلية للأستاذ برسنيي Bresnier.

[3] - Ibid, pp. 86-87.

[4]- Ibid, p. 89.

[5]- توجد كل القوانين الصادرة في الملاحق.

[6]- Ibid, pp. 106-107.

[7]- Ibib, pp. 115-116.

وفي العام الموالي أي سنة 1848 ظهر مرسوم آخر ينظم هذه الهيئة[1].

وفي 24 فيفري 1854 صدر مرسوم إمبراطوري ينظم فيه كذلك عمل المترجمين[2].

كما صدر في 24 جوان 1858 مرسوم نص على تشكيل وزارة خاصة للجزائر والمستعمرات وقد وضع المترجمون تحت تصرف هذه الوزارة الجديدة.

وجاء المرسوم نصه الحرفي كالآتي:

"يتبع المترجمون وزراة الجزائر والمستعمرات، لقد كان لديهم دائما طابع مدني أكثر منه عسكري وأن توظيفهم لا يمكن أن يتم إلا عبر الإدارة المركزية في الجزائر".

غير أن المترجمين، استمروا بالقيام بالخدمة الفعلية Service Actif.

غير أنه صدر مرسوم آخر في 12 أوت 1861[3] ضمهم من جديد إلى الجيش وأصبحوا تابعين إلى وزارة الحربية وأعيد تنظيمهم من جديد[4].

ولقد أوكلت للضباط الإداريين الفرنسيين أو ضباط المكاتب العربية ومنهم المترجمون مهام عديدة[5] منها : مهام سياسية، إدارية، عسكرية وأخرى علمية وأدبية[6].

2 ـ 1 ـ المهام السياسية والإدارية

- التنظيم السياسي لقيادات الأهالي.
- إعداد البيانات البيبليوغرافية والمعلومات حول القادة وعائلات الأهالي المتنفدة[7].
- إعداد الوثائق التاريخية حول قبائل المقاطعة.
- إعداد المعلومات الجغرافية والطبوغرافية.
- إقامة قواعد الضريبة والتحقق من المواد الملزمة.

---

[1]- Ibid, p. 117.

[2]- يتكون المرسوم من 18 فقرة وقد صدر كنتيجة لرسالة بعثها كاتب الدولة للحرب سان أرنو Saint Arneaud وقد بين فيها أهمية عمل المترجمين العسكريين إذ أنهم ولطبيعة منصبهم يتحتم عليهم أن يكونوا مطلعين على الإجراءات السياسية أو خطط العمليات العسكرية.

[3]- يضم هذا المرسوم 21 فقرة.

[4]- Ibid, pp. 143-144

[5]- لمزيد من الإطلاع حول مهام ضباط المكاتب العربية. انظر :

Milliot, Louis ; Morand, Marcel ; Godin, Frederic ; Gafiot, Maurice : L'œuvre législative de la France en Algérie, Paris, collection du centenaire de l'Algérie, institution de l'Algérie, librairie Felix Alcan, 1930,pp.17-18

[6]- يقسم ياكونو مهام ووظائف المكتب العربي إلى خدمة نشيطة Service Actif وخدمة حضرية Service Sédentaire. انظر تفصيل ذلك في : Yaconno, X : Op cit, pp. 15-16.

[7]- صنفها ياكونو أنها من المهام التي تدخل ضمن الخدمة الحضرية.

- تطبيق السيناتوس ـ كونسيلت Senatus-Consulte المتعلق بتشكيل الملكية داخل القبائل.

- المسائل المتعددة المتصلة بالضريبة والتي تعود للدولة في البلدان الإسلامية.

- شرطة الطرقات والأسواق[1].

- معاينة الجرائم والجنح المرتكبة في الإقليم الخاضع للعسكريين من قبل الأهالي والبحث عن مرتكبيها.

- التعليم العام بين القبائل.

- العدالة الإسلامية[2].

- العدالة في بلاد القبائل[3].

2 ـ 2 ـ المهام العسكرية

كان ضباط المكاتب العربية لا يتوفرون إلا على عدد قليل من الصبايحة[4] Sphais وهذا في بداية 1844 عندما كلفوا بالوظائف السياسية والإدارية عندما قطع الاحتلال شوطا كبيرا في الجزائر.

فثورات 1845 و1864 لسيدي الشيخ وثورة المقراني أدت إلى ضرورة الحصول على معلومات ذات طابع عسكري وكان ضباط المكاتب العربية هم الذين يقومون بذلك. وكانوا يرافقون هذه القوات[5].

كذلك كانت ترافق القوات النظامية قوات إضافية ومتممة تطلب مؤقتا من القبائل الخاضعة.

وكانت هذه الفرق تحت مسؤولية مؤسسة المكاتب العربية، وهذه الفرق يطلق عليها القوم Goums[6] وهي تضم في الغالب مشاة أو فرسان أو الإثنين وكذلك ما يسمى المخزن[1] أو الخيالة[2].

1- صنفها ياكونو ضمن مهام الخدمة النشيطة.

2- لقد تناول الأستاذ فركوس بالتفصيل المهام الإدارية والسياسية منها القضاء وكيفية الفصل في القضايا المطروحة وكذلك الضريبة. انظر فركوس: المرجع السابق، من ص 37 إلى ص 119.

3- Pyronnet : Op cit, p. 51.

4- تمّ تأسيس جيش من الفرسان العرب عام 1841 من جنسيات مختلفة: فرنسية ومغربية وتونسية تحت قيادة ضباط من الفرنسيين والأهالي سمي جيش الصبايحية، وصار في النهاية يتشكل من ثلاثة فيالق، تمركز أحدهم في عنابة. انظر: عميراوي: السياسة الفرنسية والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري، المرجع السابق، ص 164.

5- Pyronnet, Op cit, p. 57.

6 ـ فركوس: المرجع السابق، ص ص 25 -26.

وكانت هذه القوات تحت قيادة قائدها الأهلي وهم دورهم يطيعون أوامر إطارات فرنسية أما القادة فهم ضباط المكاتب العربية أو المترجمون العسكريون[3].

2 ـ 3 ـ المهام الثقافيـــة

لقد شكل ضباط المكاتب العربية ومن بينهم المترجمون العسكريون نخبة من وجهة النظر الثقافية وقد أعطيت لهم تعلميات من بينها الإهتمام بكل المسائل ذات الطابع التاريخي، الجغرافي، الإثنولوجي...

إنّ جزءًا كبيراً من المعرفة التي نملكها اليوم حول إفريقيا الشمالية وحول الإسلام كانت بفضل ضباط المكاتب العربية[4]، رغم أن هذه المعارف هي وسيلة لتنفيذ استراتيجية استعمارية وتحقيق ما يسمى بـــ "الاستعمار الفكري"[5].

إذ يعتبر المجهود الفكري مرحلة من مراحل الاستعمار والذي بدأ عند الاحتلال أو الحملة العسكرية ثم الاستعمار الاستيطاني ثم الكتابة[6]، فإيدويولوجية الإرث الروماني تتماشى والغزو الفرنسي[7] في الجزائر، على الصعيد العسكري و العلمي و الثقافي.

غير أنه بدأ بالاهتمام بالجزائر من الناحية العلمية في مارس، 1839[8] عندما قدم وزير التجارة إلى أكاديمية الكتابات والآداب. Académie des Inscriptions et des Belles Lettres

شاهد قبر مسيحي Epitaphe Chrétienne تعود إلى القرن الرابع ميلادي ولفتت الانتباه إلى الماضي المسيحي للجزائر[9] وقد أصبح ضباط الاستعمار مكتشفون علميون كتبوا في المجالات

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص 27.

[2] - المرجع نفسه، ص 31.

[3]- Pyronnet : Op cit, p. 57.

[4]- Idem.

[5] - فركوس: المرجع السابق، ص 12.

[6]- Lemdorfer : Op cit, p. 59.

[7]- Bage : Op cit, p. 27.

[8] - أسست الحكومة في 1837، لجنة مكلفة بالاكتشافات العلمية في الجزائر تتكون من 25 شخصا من بينهم 14 عسكريا، وصلت إلى الجزائر في ديسمبر 1839 وقامت بنشر مجموعة تضم 26 مؤلفا وذلك بين سنتي 1842 و 1867، كلفت مليون فرنك فرنسي ذهبي، وكانت حول الفيزياء، العلوم الطبيعية، الفيزيولوجيا، الطب، علم الحيوانات، الفنون الجميلة، التاريخ، الجغرافيا، الإثنوغرافيا.

[9]- Ibid, p. 21.

المختلفة لماضي الجزائر[1].

فقد تناولت أعمال ضباط المكاتب العربية دراسات حول العادات والتقاليد لمختلف الأعراق كالأتراك، العرب، القبائل، الميزابيين، أو الأنواع المهنية، كالحدادين، الإسكافيين، تم وصف مختلف أوجه الحياة اليومية[2].

لقد كتبوا في التاريخ والدين كالنقيب بواسوني والنقيب دي نيفو De Neveu وكذلك في الطبوغرافية والإحصائيات وفي الآثار وفي التعليم الأهلي[3].

فقد كانت المكاتب العربية عند تأسيسها عام 1844 تعتبر كمراكز لجمع المعطيات والمعلومات[4]، فقد ترك ضباط المكاتب العربية وراءهم أرشيفا ضخما أين يمكن لأي باحث أن يجد معلومات دقيقة جدا حول مختلف ميادين البحث[5].

ومن هؤلاء الضباط الذين ينطبق عيهم هذا القول نجد بيليسي وخاصة عمله حول الشرق الجزائري حيث قيم دي لمال دراسته الميدانية حول الشرق الجزائري في الجزء الثاني من الحوليات الجزائرية Les annales algériennes وذكر أن معلوماته تتفق مع كتاب العصر القديم والمؤلفين العرب في العصور الوسطي ومع الرحالة المحدثين وأن مجمل هذه الوثائق تثبت بوضوح على أن مقاطعة قسنطينة يمكن أن تصبح مركزا لمستعمرة مزدهرة يمكن أن تكتفي ذاتيا في الوقت نفسه تزيد من تجارة وثروة البلد الأم[6].

كذلك فقد أمدنا شارل فيرو ورين Rinn وإسترهازي Estherhazy وروبين Robin بمعلومات حول الشرق الجزائري حيث تناولوا أهم القبائل ببايلك الشرق[7].

---

[1]- Filali, Kamel : Dynamique identitaire et problèmes de l'idéologisation de l'histoire en Algérie, in A.L.E.M.M, Vol. V, édition université Mentouri, 2001.- p. 9.

[2]- Malakey, James Michael : The colonial encounter in French Algeria : A study of the development of power a symmetry and symbolic violence in the city of Constantine, presented to the faculty of the graduate school in partial fulfilment of the requirement for the degree of doctor of philosophy, university of Texas at Austin, August, 1980, p. 34

[3]- فركوس: المرجع السابق، ص 205.

[4]- Filali : Dynamique identitaire… , Op cit, p. 9.

[5]- Yaconno, X : L'Algérie de puis 1830, in R.A, TCI, 1956 le centenaire de la société historique algérienne (1856-1956), pp. 18-19.

[6] - De la Malle, Dureau : Province de Constantine : Recueil de renseignement pour l'expédition ou l'établissement des Français dans cette partie de l'Afrique septentrionale, Paris, librairie de Gide, 1837, p. 78.

[7]- سيساوي أحمد: النظام الإداري لبايلك الشرق (1791-1830)، رسالة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، 1988، ص ص 7-8.

كما أن مساهمة المترجمين العسكريين كانت ذات قيمة كبيرة منهم دي سلان De Slane، ليون روش، فيرو ودي موتيلسكي de Motyliski فقد كان كل واحد منهم يشغل اختصاصا واحدا أو عدة اختصاصات كعلم المياه L'Hydrologie، الآثار L'archéologie، علم اللغات la Linguistique، المياه الجوفية les eaux Souterraines، العادات والتقاليد، الأساطير والطرق الدينية وآثار الهيمنة الرومانية[1].

ولقد شارك المترجمون العسكريون في كثير من الجمعيات العلمية Les compagnies savantes. فعند إنشاء الجمعية التاريخية الجزائرية في 1856 Société historique Algérienne كان أغلبية الأعضاء المؤسسين من هيئة المترجمين العسكريين، وهكذا كان حال المترجمين الرئسيين دي سلان، وشوسبوي Shousboe، وكليرك الذين أصبحوا مساعدين لبربريغر[2] وبريسني والذين كانوا يحاولون تنظيم مؤسسة في الجزائر مشابهة لتلك التي يطلق عليها "معهد مصر القديم" لجمع وحفظ كل ما يتعلق بالتاريخ والآثار ولغة البلدان الإفريقية، وقد أمدت هيئة المترجمين العسكريين العديد من الشركاء المراسلين Associés correspondants الذين شاركوا في هذا الإنجاز العلمي.

كما ضمت الحوليات الأثرية لمدينة قسنطينة العديد من المترجمين بين أعضائها[3].

[1]- Pyronnet : Op cit, p. 58.

[2]- يرجع الفضل للمستعربين الثلاثة لبيربرنغر وشربونو ودي سلان بمساعدة بعض المتخصصين الآخرين في تأسيس وتنظيم اثنين من بين الجمعيات العلمية في الجزائر.

[3] - Feraud : Op cit, pp. 141-142.

رابعا ـ إرنست مرسييه

1 ـ حياته

ولد إرنست مرسييه Ernest Mercier في 17 سبتمبر 1840[1] في لاروشيل[2] La Rochelle من أسرة مثقفة فقد كان والده ستانيسلاس مرسيه Stanislas Mercier مساعد قائد في الحامية حيث كان جراحا عسكريا[3]. أما جده كلود جوزيف مرسيه Mercier Claude Josef فكان شيخ بلدية ونائب حاكم في سان هيوبليت تحت حكم نابليون الأول Napoleon 1er.

كان أول اتصال لأسرة مرسييه بالجزائر عند مجيء والده ستانيسلاس إليها تحت حكم الماريشال بيجو، ثم قرر أن يقيم بصفة نهائية مع عائلته في الجزائر حيث استقر مع زوجته وأولاده الثلاثة غوستاف Gustave، إرنست Ernest الذي كان عمره 14 سنة وجورج الذي توفي في الجزائر[4] في مركز أومال Centre d'Aumal الذي أنشىء حديثا[5].

كان مرسييه قبل مجيئه للجزائر قد تابع دراسته في كوليج لاروشيل و لم ينقطع عن التعلم بعد مجيئه للجزائر فقد خصص وقت فراغه في تعلم اللاتينية، العلوم، اللغة العربية[6] التي قطع فيها شوطا كبيرا نظريا وتطبيقيا سمحت له بالتعرف على التاريخ العربي الإسلامي بإطلاعه على مؤلفات المؤرخين العرب وأن يخوض في كل المسائل التي كانت تعتر حساسة وذات خطورة في ذلك الوقت كمسألة الاستعمار، الأهالي، العدالة الإسلامية.

ولاشك في أنه كان لعائلته دورا كبير في مسيرة حياته إذكانت تتمتع بالتقاليد الإدارية والمستوي الثقافي اللذان تركا آثار في حياته، كما أن حياة المعمّر القاسية نتيجة للظروف الحياتية الصعبة[7] قد ولدت لديه روح العزيمة والمثابرة والتصميم[8] فيما بعد في ميدان التأليف حيث قال

---

[1]- Debane, Odilon : Hommage à un grand Algérien : Ernest Mercier, conférence faite devant la société de géographie de Marseille en décembre 1938, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1944, p. 104.

[2]- لاروشيل مدينة فرنسية تبعد حوالي 477 كلم عن باريس، تطل على المحيط الأطلسي. انظر :
Grand Larousse encyclopédique, T. 9, Paris, 1964.- p. 431.
وانظر موقع لاروشيل على الخريطة في: Mémo Larousse encyclopédie, Paris, 1990, p. 420

[3]- انظر عقد الازدياد في سجل الولادات في:
Mercier, Maurice : Vie intime d'Ernest Mercier, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1944, p. 125.

[4]- Vallet, Eugène : Ernest Mercier, Maire de Constantine et historien de l'Afrique du Nord, in R.S.A.C (le centenaire) T. LXIV, 1937, p. 392.

[5]- أومال هي سور الغزلان اليوم، مركز فرنسي أسس سنة 1846 كان برجا في العهد التركي، وقديما كانت تسمى أوزيا Auzia. انظر:
Grand Larousse encyclopédique, T. 1, Paris, 1960, p. 727.

[6]- Vallet, E : Op cit, p. 392.

[7]- Mercier, M : Op cit, p. 125.

[8]- كان يدرس وحده على الطاولة تحت ضوء المصباح، وكان أبوه يخلق له صعوبات كبيرة، كان يحرك الطاولة ويأخذ المصباح لوحده.

عنه أوجان فالي Eugène Vallet "أحد خصائص مؤلفنا هي حقيقةً عدم التخبط إذ في كل مرة يتطرق فيها إلى موضوع فإنه لا يتخلى عنه أبدا"[1].

أما عن بيئته فيصف مرسييه أومال[2] فيقول:

"Aumale, de construction toutes française est situé sur un petit plateau de forme allongée qui s'élève au fond d'une vallée dominée dans toutes les directions par des montagnes de diverses hauteurs. Au sud se dresse le dira qui intercepte de ses trois 6 groupes énormes l'horizon."

" Au Nord la vallée se prolongée en une gorge étroite qui donne passage à la route d'Alger. Le pays des environs immédiats nu et désolé… ".

و قد بعث له أخوه الأكبر برسالة جاء فيها:

"Si tu ne peux plus supporter la vie d'Aumale, laisse tout la et va-t'en, quitte à revenir plus tard "[3].

إن هذه الرسالة هي شهادة ودليل على قسوة الحياة في أومال والتي سمحت كما ذكرنا من قبل من تكوين شخصية صلبة وقوية كما أنها كانت منطقة طرد دفعت به إلى النظر إلى آفاق أخرى وقد طبق إرنست مرسييه نصيحة أخيه واختار مهنة سمحت له بالتنقل واكتساب خبرات ومعارف عديدة سنتعرف عليها من خلال الأعمال التي قام بها.

فبعد نجاحه في مسابقة المترجمين العسكريين باشر عمله في سبدو بالغرب الجزائري ثم الحروش، وتنس وأخيرا إلى قسنطينة أين استقر فيها نهائيا في سنة 1873 وهي السنة نفسها التي تزوج فيها في بلدة والديه في مونبيليارد Monbéliard وتزوج بماري أرنستين دوستيكس Marie-Ernestine de Styx وكان له خمسة أولاد[4] وتوفي في قسنطينة في 16 ماي 1907[5].

2 ـ أعماله 2 ـ 1 ـ في الميدان العسكري

بدأت حياة إرنست مرسييه العسكرية سنة 1865 أي في الخامسة والعشرين من عمره عندما اجتاز بنجاح امتحانات مترجم عسكري[6] ويعتبر نجاحه في امتحان الدخول هذا خطوة مهمة

---

[1]- Vallet, E : L'oeuvre écrite d'Ernest Mercier, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1944, p. 12.

[2]- للإطلاع أكثر على أومال أو سور الغزلان الحالية وتاريخها من الفترة القديمة إلى الفترة الاستعمارية ومعرفة مختلف خصائصها الجغرافية، الجيولوجية، الحيوانات، المياه، السكان، الغطاء النباتي، مختلف الإحصائيات، انظر:

Pares, Jh : Etude historique sur la ville d'Aumal depuis sa fondation jusqu'à nos jours, Alger, imprimerie Algérienne, 1912.- 92 p.

[3]- Mercier, M : Op cit, p. 130.

[4]- Vallet, E : Ernest Mercier : Maire de Constantine et historien…, Op cit, p. 392.

[5]- Ibid, p. 398.

[6]- Ibid, p. 393.

جدا في طريق النجاح والتألق إذ كانت هيئة المترجمين العسكريين هي المكان الذي تخرجت منه شخصيات بارزة وعلماء منهم دي سلان، مترجم كتاب ابن خلدون، ليون روش وفيرو[1].

ومباشرة بعد ذلك تلقى تعيينه للمكتب العربي بسبدو، والذي يقع على الحدود المغربية. وفي العام 1866 عين كمترجم قضائي في تنس[2] ثم أرسل إلى الحروش أين عين كذلك كمترجم قضائي. ولكن رغم أن بعض المراجع تذكر أنه عمل في تنس كمترجم قضائي ثم أرسل إلى الحروش إلا أنه في رسالة التعيين التي أرسلت إليه بتاريخ 28 أفريل 1866 عرف بصفة مترجم عسكري في سبدو والتي تدفعنا إلى الاعتقاد أنه انتقل مباشرة من سبدو إلى الحروش وليس إلى تنس وأنه ربما يكون قد عمل في تنس بعد عمله في الحروش.

و هذا نص الرسالة

Monsieur Mercier Interprète Militaire à Sebdou
"J'ai l'honneur de vous informer que par décret en date du 14 de ce mois, sa majesté l'empereur vous a nommé interprète judiciaire à El Arrouche. Je reçois à l'instant une dépêche de M le procureur général par laquelle, Il vous invite a vous rendre sans retard à votre nouveau poste. Agréez, Monsieur, l'assurance de ma considération très distinguée, "Le Procureur Impérial "[3].

وفي عام 1870 شارك إرنست مرسييه في إخماد ثورة المقراني وقاد كتيبتين من الميليشا و لم يكتفي بالمشاركة في العمل العسكري بل تعداه إلى الكتابة عنها[4] وهذا مظهر من مظاهر تميزه.

2 ـ 2 ـ في الميدان الإداري

انتخب إرنست مرسييه ثلاث مرات على رأس بلدية قسنطينة. فقد انتخب في بداية الأمر مستشارا بلديا في 4 ماي 1884 وعين بعد الاجتماع الأول للمجلس شيخا للبلدية ابتداء من 18 ماي 1884 واستقال من مهامه في 10 أكتوبر 1887[5].

---

[1]- Mercier, M : Op cit, p. 150.

[2]- Vallet, E : Op-cit.- p. 393. Voir aussi : Haddad Mostafa : Ernest Mercier (1840-1907) : Historien de l'Algérie, de l'Afrique du Nord et Maire libéral de Constantine, in R.H.M, Tunis, Août 1992, pp. (154-156).

[3]- Mercier, M : Op cit, p. 151.

[4]- كتب أرنست مرسييه عن ثورة المقراني وذكر الظروف التي أحاطت بها قبل انطلاقها منها هزيمة فرنسا ضد ألمانيا، والصراعات بين المكاتب العربية والمستوطنين كما تطرق إلى أسبابها المباشرة وغير المباشرة. انظر:

Mercier, Ernest : Le Bach Agha Mokrani et les causes de l'insurrection de 1871, extrait du bulletin de la réunion d'études Algériennes, Paris, imprimerie la Fray. , 32 p.

[5]- Vallet, E : Ernest Mercier : Homme politique, son œuvre municipale, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, 1944, p. 80.

ثم انتخب مرة ثانية في 03 ماي 1896 وباشر عمله في 11 ماي من السنة نفسها[1]، ثم أعيد انتخابه لعهده ثالثة في ماي 1900 واستقال في 8 ديسمبر سنة 1900 لأسباب صحية[2].

في عهدته الأولى على رأس بلدية قسنطينة والتي دامت 3 سنوات قام إرنست مرسييه بأعمال وإنجازات مست ميادين الأشغال العمومية، الثقافية، العمران.

فمن مجاري صرف المياه إلى بناء الطرقات وأرصفة وأنابيب نقل مياه وأسواق ومحلات تجارية إلى أشغال تخص المسرح ومكتبة عمومية إلى متاحف أثرية وأخرى فنية إلى إنجاز شوارع جديدة، منها شارع دار الباي[3].

ومن بين الأشغال المهمة التي تم إنجازها طريق الكورنيش الذي يمنح قسنطينة منفذا نحو الخارج واتصالا بالبلديات المجاورة وخاصة العامة وأصح هذا الطريق جزء من الطريق الوطني الذي يربط قسنطينة بسكيكدة أو كما تسمى في ذلك الوقت فيليب فيل[4] Philippe Ville.

كما قام كذلك بالأشغال التمهيدية لخفض أرضية الكدية[5].

وقد قام إرنست مرسييه بجرد كل أعماله التي قام بها في عهدته الأولى وضبط فيها النفقات والمداخيل ونشرت في كتيب في سنة 1887[6].

ونسعترض بعض هذه الإنجازات لأن القائمة طويلة ولا يمكن ذكرها كلها.

فتحْت عنوان الأشغال الجديدة في ما يخص مجاري المياه ذكر مجمل مجاري صرف المياه وأماكن إنجازها وتكلفتها منها:

- إنجاز قناة في ساحة القصر Place du Palais.
- إنجاز قناة في سانت أنتوان Saint Antoine.
- إنجاز قناة في شارع أورليانز Orléans.
- إنجاز قناة في شارع الشرق Boulvard de l'Est.
- إنجاز قناة في القنطرة El Kantara.
- إنجاز قناة في شارع فيكتور هيغو Boulvard Victor Hugo.

1- Ibid, p. 83.
2- Ibid, p. 88
3- Ibid, p. 82.
4- Idem.
5- Idem.
6- Mercier, E : Trois années d'administration municipale (du 20 mai 1884 au 10 octobre 1887), Constantine, Imp. Imp. Braham, 1887, 16 p.

- إنجاز قناة في شعبة عين العرب في القنطرة Chabet Ain-el-Arab Kantara.

و هو عمل أدى إلى تحويل مستنقع إلى طريق عمومي.

- بناء قناة طريق المنصورة.

- بناء قناة طريق بيانفي Route Bien fait (القسم الأول).

- بناء قناة طريق بيانفي (القسم الثاني).

وقد بلغت مجمل تكاليف هذه الأعمال 57.030 فرنك[1] كما ذكر مرسييه كذلك الأرصفة والطرقات وعددها 10 بتكلفة قردها 44.460 فرنك[2].

كذلك أنجز الأسواق والأسواق المغطاة والمسالخ منها سوق مغطى في ساحة لقاليت Place des Galettes وبناء دكاكين في داخل سوق الخضر وتهيئة جديدة للمسلخ بتكلفة تقدر بـــ 79.750 فرنك[3].

كما ذكر كذلك تحت عنوان المسرح أشغال وإصلاحات قام بها بتكلفة قدرت بـــ 14400 فرنك كذلك بغلت تكاليف أشغال الغاز وتكاليف الإصلاحات حوالي 400.000 فرنك[4].

أما فيما يتعلق بالأشغال الكبرى فقد ذكر عدة شوارع وطرقات مفتوحة منها :

شارع في القنطرة وشوارع أخرى منها شارع في سان جان Saint Jean وشارع تيارس Thiers[5].

أما المشروع الكبير فهو يتمثل في تخفيض أرضية الكدية Le Dérasement du Koudiat والذي أسهب في ذكره[6].

وفي عهدته الثانية أصبحت هاته القضية أي تخفيض أرضية كدية عاتي[7] في مقدمة انشغالاته. ومن أجل إنجاز هذا العمل الضخم اتصل إرنست مرسييه بمقاول يدعى ريمس Remes

---

1- Ibid, p. 9.
2- Ibid, pp. 9-10.
3- Ibid, p. 10.
4- Ibid, p. 11.
5- Idem.
6- Ibid, p. 12.

7- الكدية هو المكان المرتفع أو اسم جبل على أبواب قسنطينة كانت عبارة عن مقبرة Nécropole على مساحة 7 هكتارات ويعتقد أنها كانت مكان معبد بونيقي قديم ويوجد بمتحف سيرتا الوطني بقسنطينة نصب ندري Stèle Votive وجد في كدية عاتي ومؤرخ في القرن الثاني قبل الميلاد، يحمل رقم الجرد : 3C. P.565. انظر كذلك وصف هذا النصب وصورته في كتاب :

Belabed Zineb : Notices (Stèle grecque), sous la direction de Geneviève Sennequier, Cécile Colonna, l'Algérie au temps des royaumes Numides (V° siècle avant J-C, 1er siècle après) J-C, [ouvrage collectif], paris, Somogy éditions, 2003, p. 114.

الذي قدم اقتراحات عملية وغير المشروع لأسباب اقتصادية من تخفيض الأرضية إلى تجريفها وبدأت أولى الأشغال سنة 1896[1].

إذا فإن شرف بداية هذا الإنجاز يعود إلى إرنست مرسييه وقد أثر هذا المشروع إيجابيا على توسع مدينة قسنطينة حيث تضاعفت مساحتها إلى ثلاثة مرات مما كانت عليه[2].

وفي المقابل واعترافا بقيمة هذا الإنجاز تم تخليد اسم مرسييه في كدية عاتي فقد سمي شارع باسم إرنست مرسييه Ernest Mercier في الكدية الذي هو الآن يسمى بنهج الحرية[3] كذلك منح اسم ابنه غوستاف مرسييه Gustave Mercier للمتحف الذي فتح أبوابه بمناسبة مرور 100 سنة على احتلال الجزائر[4].

إضافة إلى ما سبق فقد قام إرنست مرسييه بإنجازات إدارية سمح له منصبه بتطبيقها منها في ميدان العمل وهذا لفائدة العمال، فقد قرر المجلس البلدي تطبيق يوم العمل بثماني (08) ساعات في مواقع البناء Sur les chantiers كذلك قام في أكتوبر 1898 بتشكيل بورصة العمل La bourse du travail لتخليص العمال من استغلال مكاتب التشغيل لهم[5].

و لم تكن أفكاره الرائدة والسابقة لعصره منحصرة في ميدان الشغل فقد تعدت إلى الميدان الطبي، ففي17 ماي 1897 أسس مصلحة المساعدة الطبية في مكان الإقامة حيث كلف أطباء بتسليم إيصالات الدواء، الحليب، المواد الغذائية الأساسية إلى العائلات المعوزة.

وهذا كان له هدفان رصد واكتشاف، الأمراض من مصادرها وفي نفس الوقت تخفيض مصاريف العلاج[6].

أما في ميدان التعليم فقد كان كذلك في مقدمة أولوياته حيث أنشأ في 1897 كوليج للبنات وفي سنة 1899 تم تأسيس المدرسة الابتدائية بسيدي مبروك وقام بزيادة عدد المعلمين وتم تزويد المدارس الابتدائية والعليا للأولاد والبنات بنظام داخلي.

1- Vallet, E : Ernest Mercier, homme politique…, Op-cit, p. 85.

2- Ibid, p. 86.

3- Assemblée populaire communale : Guide de la ville de Constantine, mise à jour au 1er novembre 1982, p. 13.

4- Vallet, E : Ernest Mercier, homme politique…Op cit, p. 82

5- Ibid, p. 86.

6- Ibid, p. 87.

كما تـــم منح المدارس الإسلامية معونات مختلفة، وتم تشجيع المدارس ذات الـــزرابي[1] Les écoles de tapis بالإضافة إلى أعمال أخرى عديدة[2].

لقد كان لهذه الأفكار والخطوات الشجاعة ومختف الإنجازات أثرها الكبير في إعادة انتخابه في الانتخابات التي جرت في ماي 1900 والتي استمر خلالها بإدارة الأشغال التي هي في طور الإنجاز وتسوية الملفات العالقة، وأرسي قواعد برنامج تكميلي للأشغال، منها جسر جديد على الرمال، أشغال بناء مقر الولاية L'hôtel de ville[3].

وبسبب تقدم سنه وتدهور صحته لم يستطع مرسييه الاستمرار في عمله ففضل التقاعد وقدم استقالته من منصب شيخ بلدية قسنطينة في 8 ديسمبر 1900.

و في 27 جانفي 1901 ترك مكانه لـــ إميل مورينو Emile Maurinaud الذي كان مساعدا له والذي شغل منصب مستشار بلدي منذ 1892 والذي استمر في إنجاز العمل الذي بدأ من قبل إرنست مرسييه[4]. وقد ذكر مورينو هذا الأمر في مذكراته «تمّ انتخابي كشيخ بلدية لمدينة قسنطينة قسنطينة بعد استقالة مرسييه بسبب المرض وذلك في جانفي 1901»[5].

3 ـ مؤلفاتـــه

لقد ترك إرنست مرسييه إنتاجا غزيرا في ميدان الكتابة والتأليف يتمثل في عشرات المقالات والكتب.

فأول مقال نشره كان في المجلة الإفريقية وعمره 23 سنة، وقد كانت تلك المجلة وسيلته الوحيدة في مجال النشر حتى سنة 1868، حينها بدأ يكتب مقالاته في الحوليات الأثرية لميدنة قسنطينة.

ثم توقف نهائيا عن نشر أعماله في المجلة الإفريقية سنة 1873، وهي سنة الانتقال والاستقرار إلى قسنطينة حيث تفرّغ للجمعية الأثرية لقسنطينة وساهم في تطورها[6]. كما بدأ في سنة 1874

[1] - يقصد بها ربما المدارس القرآنية أو الكتاتيب.

[2]- Ibid, p. 88

[3]- Idem.

[4]- Idem.

[5] - Maurinaud, E : Mes mémoires : première compagne contre le décret Crémieux, Alger, édition Braconnier frères, 1941, p. 164.

[6] - Vallet, E : L'œuvre écrite d'Ernest…, Op cit, p. 9.

نشر أعماله لدى ناشرين خواص والتي كانت عبارة عن كتب عرض فيها أفكاره حول تعريب شمال إفريقيا[1]. وقد تناول كتاب مرسييه شتى المواضيع التي كانت تطرح في ذلك الوقت؛ عن المسائل الجزائرية، حول القانون الإسلامي، الوقف، الملكية العقارية وإدارة الأهالي وأحوالهم الشخصية وحقوقهم السياسية[2] وعن الآثار والقوانين المطروحة للمناقشة[3]، كذلك المواضيع التاريخية والإثنوغرافية.

وما ميّز كتابات مرسييه أنه انطلق من الجزء إلى الكل، من مقالات قليلة الصفحات إلى المؤلفات الضخمة التي كان منها ثلاثة، ومن هنا نرى أن أوجان فالي قسّم حياة مرسييه الفكرية إلى ثلاث مراحل:

ـ المرحلة الأولى : 1863 ـ 1875 تاريخ نشر :

« Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale ».

ـ المرحلة الثانية : من 1875 إلى سنوات 1888 ـ 1891 التي ظهرت فيها 3 أجزاء من تاريخ إفريقيا الشمالية.

ـ المرحلة الثالثة : 1890 ـ 1907 تاريخ وفاته والتي انتهت بنشر تاريخ قسنطينة 1903 Histoire de Constantine[4].

وتعتبر مرحلة التتويج لدى مرسييه حيث أصبح فيها رئيسا للجمعية الأثرية للقطاع القسنطيني سنة 1993.

ولقد قمنا بحصر جميع أعمال مرسييه في جدول توضيحي لحصيلة إنتاجه الفكري[5].

وهكذا نرى أنّ إرنست مرسييه تمكّن خلال مسيرته الطويلة كأحد عناصر المكتب العربي، كتب تقارير وشارك في أعمال عسكرية بحكم وظيفته، وكمؤرخ وباحث في شتى مجالات المعرفة ومسيّراً إداريًا وشيخ بلدية لثاني مدينة في الجزائر من تخصيص دراسة للشرق الجزائري على الخصوص.

[1] - Marçais, George : Ernest Mercier historien de l'Afrique berbère et arabe, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, 1944, p. 35.

[2] - Bernard, Augustin : Ernest Mercier et la question indigène, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, librairie orientaliste, 1944, pp 57-58.

[3] - Ibid, p. 59.

[4] - Vallet, E : L'œuvre écrite d'Ernest…., Op cit, p.8.

[5] ـ انظر الجدول في الملحق رقم 1.

خصوصيات إقليم الشرق الجزائري

عرف إقليم الشرق الجزائري منذ القديم تسميات متعددة فمن الماسيل[1] إلى نوميديا[2] إلى بايلك قسنطينة ثم إقليم قسنطينة، كل هذه التسميات أشارت إلى مجال جغرافي محدد[3] وذلك نظرا لأهميته منذ القديم[4].

وقد ذكر العديد من الرحالة الأوروبيين هذه التسميات فقد أشار إليها شاو من خلال العنوان الذي عرف به الإقليم في كتابه والذي سماه نوميديا أو مقاطعة الشرق أو مقاطعة قسنطينة[5].

كذلك عدد بايسونال هذه التسميات من نوميديا إلى إقليم قسنطينة[6] كما أطلق عليه كذلك اسم مملكتي قسنطينة وبجاية كما عرف ببلاد الغرب في العهد الحفصي[7] وسمي كذلك بشرق المغرب الأوسط ثم بالقطاع الشرقي[8]. إن تعدد هذه التسميات هو مؤشر على أهمية إقليم الشرق الجزائري وإنفراده بمميزات جعلته يحتل الصدارة في كل المراحل التاريخية ومصدرا لاهتمام الجغرافيين والمؤرخين والرحالة والدبلوماسيين الأجانب[9].

كما نالت عاصمته الإدارية سيرتا قسنطينة حظا أوفر من الكتابات[10]، فقد كانت مقرّ حكم مسينيسا 238-148 ق.م وملجأ ليوغرطا أثناء مقاومته للرومان[11].

---

[1]- الماسيل: هي مملكة كانت تشمل جغرافيا الأراضي "الجزائرية" الشرقية و"التونسية" الغربية إلى حدود قرطاج.

[2]- نوميديا: مصطلح لم يذكر في النصوص التاريخية إلاّ خلال القرن الثامن ق.م وقد يكون اسما لقبيلة أو مجموعة قبائل وكانت تعيش على نفس أراضي الماسيل.

[3]- Haddad, Mostafa : Mm Durand -Evard François Préface : L'émergence de l'Algérie moderne : le Constantinois (l'Est Algérien) entre les deux guerres 1919-1939, T. 1, Batna, Imprmerie A. Guerfi, 2001, p. 1.

[4]- فركوس صالح : المرجع السابق، ص 9.

[5]- Shaw : Voyages de Monsr Shaw, M.D. dans plusieurs provinces de la barbarie et du levant contenant des observations géographique, physique, philologique et mêlées sur les royaumes d'Alger et de Tunis, sur la Syrie, l'Egypte et l'Arabie petrée, traduit d l'anglais, tome premier, à la Hate, chez Jean Neaulme, M.Dcc. XLIII (1743), p. 108.

[6]- Peyssonel : Op cit, pp. 267-268.

[7]- معاشي جميلة: الأسر المحلية في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10 هـ/16م إلى القرن 13 هـ/19م: دراسة اجتماعية سياسية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، معهد العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، 1990-1991، ص 2.

[8]- عميراوي، ح: السياسة والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري... المرجع السابق، ص 26.

[9]- قشاعي فلة: النظام الضريبي بالريف القسنطينيي أواخر العهد العثماني 1771-1837، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1989-1990، ص 2.

[10]- عميراوي: السياسة والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري... المرجع السابق، ص 25.

[11]- Haddad : Emergence de l'Algérie…, Op cit, p. 1.

مع أن هناك من يخالف هذا الرأي ومنهم الأستاذ فيلالي كمال، الذي يرى أن الكتابات التي تتحدث عن قسنطينة نادرة وتعد على الأصابع[1] ولكن يمكن أن نقول رغم هذا أن قسنطينة نالت قسطا كبيرا من الاهتمام بالمقارنة بمثيلاتها من المدن الجزائرية وإذ كان الباحث فيلالي كمال يشير إلى كتابات القرن التاسع عشر[2] فإن قسنطينة قد تناولها الكتاب منذ القديم إلى يومنا هذا.

ويعتبر إقليم الشرق الجزائري أو مقاطعة الشرق الجزائري من أوسع المقاطعات في الجزائر حيث يذكر شاو أنها تتساوى تقريبا مع المقاطعتين الأخريين[3]، أي أن مقاطعة قسنطينة تشكل لوحدها تقريبا نصف إقليم الجزائر[4]. وقد وصف مرسييه باي قسنطينة بأنه أهم باي في أيالة الجزائر[5] لما يملكه من ثروة ومساحة وسكان[6].

وقد أثر هذا الاتساع على نواحي أخرى منها الناحية الاقتصادية والبشرية[7] وهذا ما سنتعرض له في حينه، فقد كان بايلك الشرق هو الأكثر اتساعا، الأكثر أهمية والأكثر سكانا[8] وذكر فونتير ديبارادي Venture de Paradis «أن المقاطعة الأكثر غنى هي تلك التي توجد في الشرق أو قسنطينة»[9].

كذلك يتميز إقليم الشرق الجزائري بحدود مفتوحة على كل الجهات[10] إذ تنتهي إليه طرق الصحراء ومركز انطلاق إلى تونس وطرابلس وفي الشمال يتوفر ساحله على موانئ طبيعية منفتحة على السواحل الأوروبية[11].

ولقد لخص أندرى نوشي André Noushi في مقدمة دراسته حول الشرق الجزائري كل هذه

1- Regis, Louis ; Filali Kamel : Préface : Constantine et sa région : voyages et séjours 1879, Constantine, publication de lershmn, université de Constantine, imprimerie Dar-Al-Houda, Ain Mlila, 2005, p I.

2- ذكر كتابات العنتري فريدة مؤنسة، ومجاعات قسنطينة وكتاب تاريخ قسنطينة لابن مبارك ثم ذكر كذلك بعض الكتابات الفرنسية منها كتاب إرنست مرسيه، مونوغرافية قسنطينة ومقاطعاتها لفيرو.

3- Shaw : Op cit, p.108.

4- Couget, George : Voyages aux origines de l'Algérie et de la province de Constantine 1830-1900, France, édition Esprit livres, 2003, p. 19.

5- Mercier, Ernest : L'Algérie en 1880, Le cinquantenaire de l'Algérie, Paris, Challamel Ainé éditeur, 1880, p. 14.

6- Mercier, Ernest : L'histoire de l'Algérie septentrionale T1 (des origines à 1045), Paris, Leroux, 1888, p 141.

7- معاشي، جميلة: المرجع السابق، ص 4.

8- Temimi, A : Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837), publication de la revue d'histoire Maghrébine, 1978, p.58.

انظر كذلك كتاب مؤلف مجهول، تحقيق حساني مختار، المرجع السابق، ص ص3-4.

9- De Paradis, Venture : Alger au XVIII^ème siècle, 2^ème édition, Tunis, édition Bouslama, p. 18.

10- عميراوي: السياسة والمقاومة الوطنية في الشرق الجزائري.. المرجع السابق، ص 25.

11- قشاعي، فلة: المرجع السابق، ص 2.

الخصائص عند إبرازه للأسباب التي دفعته للبحث في إقليم الشرق الجزائري حيث قال أنه يضم نصف سكان الجزائر وأنه يجمع المناطق الثلاثة الكبرى للطبوغرافية الجزائرية، التي هي أكثر وضوحا من المناطق الأخرى والتي تعطيه تميزا من الناحية المناخية كما أن موارده الاقتصادية هي الأهم قياساً بالإقليمين الآخرين[1].

ونتيجة لكل هذا فقد كان إقليم الشرق الجزائري يمثل أهمية كبيرة للمستعمر لما يقدمه من فوائد وامتيازات[2] وهذا بشهادة الفرنسيين أنفسهم «الفرنسيون وجدوا في الشرق الجزائري المجموع الأكثر غنى من حيث التربة وما تحتها وكذلك المناطق الأكثر سكانا... »[3].

ولقد كان لخصوصيات إقليم الشرق الجزائري أثرها ومكانتها الكبيرة في كتابات مرسييه إذ نالت حيزا معتبرا من مواضيعه.

كما تناول خصوصيات أخرى منها السكانية[4] وخص مدينة قسنطينة بمقالات جديدة في الجانب التاريخي والعمراني[5] وكذلك في الجانب السكاني[6].

إذاً فقد كانت خصوصيات الشرق الجزائري مصدرا مهما وملهما لكتاباته العديدة. وسوف نحاول أن نلمّ بهاته الخصوصيات بشيء من التفصيل.

1- Noushi, André . Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'à 1919, Paris, presse universitaire de France, 1961, p. VI.

2- فركوس صالح.- المرجع السابق.- ص 10.

3- Roger, Leonard ; Lecorne, Bernard ; Meyer, René : Constantine et son département, Constantine, imprimerie Attali, 1953, p. 7.

4- Mercier, E : Histoire de l'Afrique septentrionale, T. III (de 1515 à 1830), Paris, Leroux, 1981, p. 204.

5- Mercier, E : Abd-Er-Rahmane : Bey de Constantine, in R.S.A.C, T. CXVIII, 1876, p 428.

6- Mercier E : Constantine au XVIème siècle : Elévation de la famille El Feggoun, in R.S.A.C , TXIX, 1878, 37 p.

أولاً ـ الخصوصية الجغرافية

أ ـ حدود إقليم الشرق الجزائري

يمتد إقليم الشرق الجزائري على رقعة جغرافية واسعة يقدرها شاو بـــ 230 ميل طولا و100 ميل عرضا[1]، أما بايسونال فيقدرها بـــ 100 مرحلة Lieux من الشرق إلى الغرب[2].

أما عن حدود بايلك الشرق فتنتهي عند الغرب وحسب شاو عند وادبوبراك[3] Boobrak ويحدد موقعه[4] أو إقليم ونوغة وبرج حمزة وأعماق جرجرة[5]. وهذا ما ذهب إليه مرسييه كذلك[6].

أمّا الشريف الزهار فيدخل وطن حمزة في عمالة باي قسنطينة[7] ويحد إقليم الشرق غربا واد الصمار الذي يعرف بوادبني منصور وبني عباس الذي يصب بالقرب من بجاية[8] أما نوشي فيحددها بدقة أكثر إذ تمر عبر البيبان إلى قرية أولاد منصور وأكثر جنوبا إلى المراكز الصغرى لسيدي هجرس وسيدي عيسى ونحو الشمال، فإن الخط الفاصل هو الذي يفصل مرتفعات جرجرة عن منخفضات واد الساحل، وتذهب حتى إلى البحر المتوسط لتنتهي عند رأس كاربون.

وفي الجنوب الغربي تدخل الحضنة شكليا ضمن بايلك قسنطينة[9] وبعد 1844 أي سنة إنشاء المكاتب العربية عينت حدود إقليم الشرق الشمالية الغربية من واد الصومام إلى جبال الحضنة التي تمثل الحدود الغربية الجنوبية للمقاطعة[10]. ومجمل القول فإن الحدود الغربية تتمثل في جبال البيبان، وقرى بني منصور وسفوح جبال جرجرة الشرقية والجنوبية، وإلى برج حمزة، وقريتي سيدي هجرس وسيدي عيسى التي تفصلانه عن بايلك التيطري في الجنوب الغربي[11].

1- Shaw : Op cit, pp.- 108-109.

2- Peysonel : Op cit, p. 269.

3- Shaw : Op cit, p. 108.

4 ـ يذكر شاو أنّ موقع واد بوبراك يوجد على مسافة مرحلة من هذا الواد مدينة دلس على ساحل البحر.

5- بوعزيز، يحي: الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي بالشرق الجزائري خلال القرن التاسع عشر، أعمال المؤتمر الثالث لتاريخ وحضارة المغرب (العالم الريفي المغربي: مجموعات وطباق اجتماعي)، وهران: 26-27-28 نوفمبر 1983، نشر د. م. ج، 1987، ص 301.

6 - Mercier, E : Histoire de l'Afrique septentrionale, T. III, Op cit, p. 141.

7- الزهار، أحمد الشريف: مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754-1830)، تحقيق أحمد توفيق المدني. الجزائر، ش.و.ن.ت، ط 2، 1980، ص 48.

8- سعيدوني: ناصر الدين، ورقات جزائرية : دراســـات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2000، ص 154.

9- Noushi.- Op cit.- p.-15.

10- فركوس صالح : المرجع السابق، ص 8.

11- العنتري: فريدة منسية، مقدمة وتمهيد بوعزيز يحي، المرجع السابق، ص 18.

وقد وضح نوشي وضعية الحدود هذه وأطلق عليها الحدود المتحركة حيث ذكر أن قائدا محليا يكون هو الوسيط بين الباي والسكان، ولهذا فإن المقاطعة ليس لها حدود واضحة بل يتحكم فيها القادة الكبار[1].

وهذه الصراعات كانت بين عائلتين متنافستين، البن شنوف المدعومين من قبل أولاد صاولة وأحرار سادة الحنانشة[2] حيث كان لهذه القبيلة السلطة المطلقة على كل الحدود من القالة حتى إلى جنوب تبسة[3].

وكان خط الحدود كالآتي: خط ينطلق من طبرقة قاطعا مجرى واد مجردة وتاركا الكاف شرقا وتبسة غربا ومتجها نحو واد سوف[4] وقد احتفظ البايلك تقريبا بهاته الحدود حتى فترة الاستعمار الفرنسي[5].

أما حدود إقليم الشرق الجنوبية فهي تمتد حتى الصحراء[6] وفي بسكرة عاصمة الزاب توجد حامية تركية لها قصر صغير بناه الباي مزود بستة قطع مدفعية[7].

وبالإضافة إلى بسكرة تدفع مدينة ورقلة وواد ريغ ضريبة سنوية تقدر بـــ **40** عبدا أسودا ولكن لم تكن هاتان المنطقتان تابعتين كليا لسلطة الباي حيث أن هناك عددا من القرى في منطقة واد ريغ والزاب خارج السلطة العثمانية[8]. كما يحددها شاو جغرافيا حيث لا تمنح المجموعات الغربية والشرقية أي مظهر من مظاهر الاحترام والخضوع[9].

أما العنتري فقد ذكر أن صالح باي وصل إلى أقصى نقطة في الجنوب لم يصلها أحد من البايات السابقين وهي تقرت[10] ورغم أنه حاصرها إلا أنه لم يدخلها لانعدام المؤن[11].

إذا فحدود إقليم الشرق الجزائري الجنوبية تمتد إلى ما وراء بسكرة وواد سوف، وتقرت وورقلة في حوض واد ريغ وإيغرغر[12].

---

[1]- Noushi : Op cit, p. 15.

[2]- Mercier, E : Histoire de Constantine, Constantine, Marle et Biron, 1903, p. 221.

[3]- Feraud, Charle : Histoire des villes de la province de Constantine : la calle, in Association ouvrières, Alger, 1877, p. 32.

[4]- Noushi : Op cit, p. 15.

[5]- معاشي، جميلة: المرجع السابق، ص 3.

[6]- Peyssonel : Op cit, p.-269. Voir aussi p. 190.

[7]- Shaw : Op cit, p. 167.

[8]- Ibid, p. 165.

[9]- Idem.

[10]- العنتري: فريدة منسية، مقدمة وتمهيد يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 62.

[11]- سعيدوني، ناصر الدين: المرجع السابق، ص 154.

[12]- بوعزيز يحي: المرجع السابق، ص 301.

وعلى العموم فإن الحدود الجنوبية هي غير واضحة مثلها مثل الحدود الشرقية وإذا كانت السلطة الاسمية للباي تمتد حتى توقرت إلأ أن جبال الأوراس والنمامشة تعيق هذه السيادة[1].

أما الحدود الشمالية فهي أوضحها حيث يحدها البحر المتوسط وذلك باتفاق المؤرخين والجغرافيين والرحالة[2].

ب ـ التضاريس

تنقسم إلى عدة أقسام وتتنوع في مظاهرها ابتداء من ساحل البحر وتنتهي بالصحراء جنوبا[3]. وقد قسمت إلى ثلاثة مناطق :

1 ـ المنطقة الساحلية الجبلية.

2ـ المنطقة الوسطى للهضاب العليا.

3ـ الحافة الجبلية شبه الصحراوية[4].

وقسمت كذلك إلى أربعة مناطق :

1 ـ المنطقة الساحلية.

2ـ منطقة الهضاب أو السهول المرتفعة.

3ـ المنطقة الجبلية الجنوبية.

4 - المنطقة الصحراوية[5].

1ـ المنطقة الساحلية

وتتميز بوجود سلاسل جبلية ممتدة على طول البحر[6] وهذا وصف لشاو ساحل هاته المقاطعة ـ أي مقاطعة الشرق الجزائري ـ"من بوبراك حتى بوجيا Boujeiah وتقريبا حتى بونة هي جبلية ومملوءة بالصخور..."[7]. والجبال متدرجة في ارتفاعها من الغرب إلى الشرق إذ هي أكثر ارتفاعا

1- Noushi : Op cit, p. 15.

2- Peyssonel : Op cit, p. 290 et p. 269. Voir aussi : Noushi : Op cit, p. 15.

3- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 2.

4- Noushi : Op cit, p. 2.

5- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 2.

6- فركوس صالح: المرجع السابق، ص 8.

7- Shaw : Op cit, p. 109.

وقربا من البحر في الغرب منها في الشرق جبال البابور 2004 م، القل 1183 م، إيدوغ 827 م، القالة 659 م[1] تتخلل هذه الجبال سهول ضيقة تتواجد بين البحر والجبل من بجاية حتى سكيكدة[2].

ويصف بايسونال هذا المظهر من تضاريس المنطقة "أكملنا سيرنا بعد أن اجتزنا السهل ويقصد به سهل بونة ودخلنا في سلسلة جبلية متجهة من الشرق إلى الغرب بمحاذاة الساحل"[3].

2_ منطقة الهضاب أو السهول المرتفعة

تكوّن مجالا طبيعيا يقع بين السلاسل الجبلية الساحلية والسلاسل الجبلية في الجنوب[4] ويطلق على السلاسل الجبلية هذه اسم جبال الأطلس وتتجه من الشرق إلى الغرب وتسمى واحدة منها بالأطلس الصغير تبدأ من طبرقة في أيالة تونس وتمتد على طول البحر المتوسط حتى مملكة المغرب، والأخرى تسمى بالأطلس الكبير توازي السلسلة الأولى أو الأطلس الصغير وتبدأ من على بعد ثمانين مرحلة من مصر وتنتهي في المحيط الغربي. وغالبا ما تربط هاتان السلسلتان الكبيرتان بسلاسل صغيرة[5]، وتقطع مقاطعة قسنطينة هاتين السلسلتين المتوازيتين الأطلس الكبير والصغير وتقع قسنطينة قسنطينة كذلك بين هاتين السلسلتين، في وسط مجموعة من الجبال ترتبط بالأطلس الصغير[6].

تتكون سلسلة الأطلس الكبير[7] من جبال عمور في الغرب وجبال الأوراس في الشرق[8] وتعتبر جبال جرجرة من أعلى جبال الأطلس الصغير وتوجد على طريق الجزائر قسنطينة[9].

وتشرف قسنطينة على سهول واسعة تمتد إلى جبل أوراس جنوبا وإلى سفوح جبال جرجرة إلى الجنوب الغربي[10] وتسمى بمنطقة الهضاب[11]. ويتكون من إقليمين إقليم شرقي يمتد إلى حدود تونس وغربي حتى إلى جبال البيبان ويفصل بين هذين الإقليمين مدينة قسنطينة حيث تشكل مركز الثقل لهذين الإقليمين كما تعرف الناحية الشمالية بين هذين الإقليمين بالتل والجنوبية بالسباخ[12].

1- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص ص 2-3.

2- Noushi : Op cit, pp. 2-3.

3- Peyssonel : Op cit, p. 281.

4- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 5. انظر كذلك: Shaw : Op cit, p.15 et Noushi : Op cit, .p.3.

5- Desfontaine, Op cit.- pp.- 260-261.

6- De la Malle : Province de Constantine, Op cit, pp.- 113-114

7 - يعطي شو وصفا للأطلس الكبير. انظر: Shaw : Op cit, p. 109 et pp. 144-145.

8- فركوس: المرجع السابق، ص 8.

9- Desfontaine : Op cit, p. 262.

10- De La Malle : Op cit, p.114. Voir aussi : Shaw : Op cit, p. 109.

11- من خصوصيات الهضاب العليا في الشرق الجزائري أنها أكثر اتساعا منها في الغرب الجزائري.

12- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 5.

3 ـ المنطقة شبه الصحراوية أو المنطقة الجنوبية الصحراوية

تتكون من سلاسل جبال متصلة تمتد من الغرب إلى الشرق، نبدأ من جبال الحضنة التي تشرف في جهاتها الجنوبية على الهضاب العليا، ثم تأتي كتلة جبال الأوراس[1] والتي هي كما ذكرنا هي ضمن الأطلس الكبير والتي تعتبر كحد للصحراء من جهة الشمال[2] والتي تعزل بشكل واضح الهضاب العليا عن المنطقة الصحراوية[3] وكذلك تشكل حاجزا يبعد تأثيرا المناخ الصحراوي عن الهضاب[4].

أما مرتفعات النمامشة وتبسة فهي ذات ارتفاع متوسط 1200-1400 متر ويكون اتجاه مرتفعات النمامشة من الغرب إلى الشرق بينما اتجاه مرتفعات تبسة فهو من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي[5]. وبسبب ارتفاعهما المتوسط فهي تسمح للتأثيرات الصحراوية بالمرور والتوجه بعيدا إلى الشمال[6].

وعلى العموم يمكن أن نستخلص ثلاث مميزات عامة من تضاريس الشرق الجزائري:

1 ـ وجود اثنين أو ثلاثة حواجز جبلية ساحلية تحد من التأثيرات البحرية.

2 ـ توزيع السلسلة شبه الصحراوية يسمح بمرور التأثيرات الصحراوية وأن تتقدم إلى الهضاب العليا.

3 ـ اتجاه الهضاب العليا وتواجدها بين السلسلتين الشمالية والجنوبية يمنحها طابع قاري يتغير حسب الارتفاع والطبوغرافيا والتضاريس[7].

ج ـ المنـــاخ

كان مناخ الجزائر عامة والشرق الجزائري بصفة خاصة محل اهتمام الرحالة والمؤرخين حيث وصف دي فونتين مناخ شمال إفريقيا أو كما يسميها هو البربرية Barbarie فذكر أنه ذو مناخ جميل جدا على طول الساحل ويكون الجليد نادرا حتى في ذروة الشتاء[8].

أما فيما يخص الأمطار فتبدأ بالسقوط في نهاية شهر أكتوبر وتستمر في السقوط من وقت

---

[1]- المرجع نفسه، ص 6.

[2]- De La Malle : Op cit, p.11.

[3]- Noushi : Op cit, p. 4.

[4]- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 6.

[5]- Noushi : Op cit, p. 5.

[6]- Idem.

[7]- Idem.

[8]- Desfontaine : Op cit, p. 263.

لآخر حتى الأيام الأولى من ماي[1]. أما إذا توجهنا بعيدا في الداخل أي على مسافة 100 إلى 120 مرحلة إلى الجنوب من الساحل تزداد درجة الحرارة وتقل الأمطار[2].

وأما دي لمال فقد ذكر أن الأمطار أو البرد يكون بدايتهما في منتصف شهر أكتوبر وهذا في كل شمال إفريقيا[3] يعطى كذلك تحديد البداية ونهاية فصل الربيع عند الإفريقيين حيث يبدأ من 15 فيفري إلى 18 ماي أما فصل الصيف فيبدأ من 19 ماي إلى يوم 16 أوت حيث يكون فيها الجو حارا والسماء صافية[4].

وتتميز سواحل إفريقيا الشمالية ومنها سواحل الشرق الجزائري بالاعتدال، واستشهد دولمال بما قام به شاو حيث ذكر "لا يعاني السكان في سواحل إفريقيا الشمالية من البرد الشديد أو الحرارة إلاّ نادرًا، فخلال 12 سنة التي أقام فيها شاو في الجزائر العاصمة لم يشهد إلا مرتين نزل فيها مقياس الحرارة إلى درجة التجمد، بينما كان الريف كله مغطى بالثلج"[5].

وهذا الاعتدال كما ذكرنا ينطبق على السواحل فقط ولا ينطبق على قسنطينة الذي يتميز مناخها بالقسوة ويصل إلى درجة التجمد في الشتاء[6].

ويرجع هذا التباين بطبيعة الحال إلى تأثير التضاريس على المناخ كما رأينا من قبل. فاعتدال مناخ المنطقة الساحلية وضيق الفوارق الفصلية[7] ناتج عن تأثير البحر الذي يحد من عمل الجليد[8].

أما منطقة الهضاب فتتميز بقلة تساقط الأمطار وعدم انتظامها 800 مم في الجهات الشمالية وأقل من 400 مم في الجهات الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية[9].

وإذا كان الجليد عامل مضر خاصة بالفلاحة في فصل الشتاء[10] فكذلك هناك الرياح القادمة من الصحراء الكبرى أو ما يمسى بالسيروكو والذي يكون في فصل الصيف[11].

وقدم نوشي جداول توضيحية نأخذ بعض منها كأمثلة فيما يخص فارق درجة الحرارة على الساحل وفي المناطق الداخلية وكذلك عدد أيام الجليد وعدد أيام السيروكو.

---

[1]- Idem.
[2]- Ibid, p. 265.
[3]- De La Malle : Op cit, p. 132.
[4]- Ibid, p. 134.
[5]- Ibid, p. 135.
[6]- Ibid, p. 137.

[7]- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 3.

[8]- Noushi : Op cit, p. 6.

[9]- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 5.

[10]- Idem..
[11]- De La Malle : Op cit, p.136.

فارق درجة الحرارة على الساحل

المدينـــة	الأدنى ـ المتوسط الشهري	الأقصى ـ المتوسط الشهري	متوسط الفرق
بجايـــــة	11°9 جانفي	32°6 أوت	14°4
سكيكدة فيليب فيل	10°55 جانفي	24°7 أوت	14°15
القالـــة	12° جانفي	26°1 أوت	

فارق درجة الحرارة في المناطق الداخلية

المدينـــة	الأدنى- المتوسط الشهري	الأقصى- المتوسط الشهري	متوسط الفرق
قسنطينة	7°10 جانفي	25°45 أوت	18°35
قالمة	9°25 جانفي	26°55 أوت	17°30
برج برعريريج	5°35 جانفي	26°75 جويلية	21°40
سطيف	4°80 جانفي	24°70 جويلية	19°90
تبسة	6°10 جانفي	26°80 جويلية	20°70

عدد أيام الجليد في السنة

قسنطينة	18.4 يوم
قالمة	19.7 يوم
البرج	63.4 يوم
سدارتة	47.3 يوم من ديسمبر إلى مارس
عين البيضاء	29.7 من نوفمبر إلى فيفري
تبسة	18.9 من نوفمبر إلى مارس
خنشلة	21.1 من نوفمبر إلى مارس[1]

عدد أيام السيروكو في السنة

خنشلة	60 يوم
عين البيضاء	39 يوم[2]

[1]- Noushi : Op cit, pp. 6-7.

[2]- قشاعي فلة: المرجع السابق، ص 6.

ثانيا_ الخصوصية السكانية

1 _ تعداد السكان

ذهب عدد كبير من المؤرخين والباحثين والجغرافيين إلى اعتبار إقليم الشرق الجزائري هو الإقليم الأكثر سكانا في أيالة الجزائر[1]، ولكن لم تكن هناك إحصاءات دقيقة لعدد السكان[2]. فقد كان مشكل المصادر والمعطيات مطروح بشدة حتى القرن التاسع عشر، إذ كانت تقديرات الكتاب المحليين، والدبلوماسيين والرحالة والجغرافيين تنقصها الدقة والأسلوب العلمي مما جعل تلك الأرقام عرضة للنقد[3]. ونظرا لتذبذب تلك الإحصاءات فقد طرح ياكونو Yaconno الإشكالية الآتية: "هل يمكننا تقدير سكان الجزائر في 1830؟" وقد حاول الإجابة عنها بتقديم كل الإحصائيات التي تتعلق بالجزائر والشرق الجزائري من تقرير بوتان Boutin في 1808 إلى غاية سنة 1856[4]. ونفس هذه الإشكالية طرحها نوشي فيما يتعلق بتقدير عدد سكان قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي لها[5].

وقد قدر شالر عدد سكان الجزائر بمليون نسمة[6] بينما أعطى رقم خمسة وعشرين ألف نسمة لعدد سكان مدينة قسنطينة[7]. وقد أكّد هذا الرقم نوشي واعتبره الرقم الصحيح لعدد سكان قسنطينة عشية الاحتلال الفرنسي لها[8]. وقبيل الاحتلال كانت تقديرات الفرنسيين لعدد سكان قسنطينة بــ20 ألف نسمة[9]. أما عدد سكان مقاطعة قسنطينة في عهد الحاج أحمد باي فكان 1.200.000 نسمة[10] بينما توصل الباحث التميمي إلى رقم 1.131.000 وذلك في الفترة نفسها[11].

أما عن تعداد السكان بعد الاحتلال فقد قوّم إحصاء 19 جانفي 1842 عدد السكان استنادا

---

[1]- كان بايلك قسنطينة هو الأكثر سكانا في أيالة الجزائر، حيث كان يضم عدة مدن ومراكز سكانية ويمثل عدد السكان فيه ثلثي سكان الأيالة.

[2]- Ibid, p. 20.

[3]- Taboutin, (Dominique) ; Vilquin, (Eric) ; Noel, (Jean) : L'histoire de la population de l'Afrique du Nord pendant le deuxième millénaire, communication présentée à la conférence "The History of world population in the second Millennum" organisée à florance du 28 au 30 Juin 2001 par le comité de démographie historique de l'UISP et la Sociata Italiana Didemografica Stirica, p. 2.

[4]- Yaconno, X : Peut-on évaluer la population de l'Algérie vers 1830, in R.A, T. XCVIII, 1954, pp (277-307).

[5] - Noushi, A : Constantine à la veille de la conquête française, in C.T, n° 11, 1955, p 374.

[6]- شالر وليام: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824) تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1982، ص 38.

[7]- المصدر نفسه، ص 36.

[8] - Noushi : Constantine à la veille la conquête…, Op cit, p 377.

[9] - De La Malle.- Op cit, p. 151.

[10]- Yaconno, X : Peut-on évaluer… ; Op cit, p. 298.

[11]- Tamimi : Op cit, p. 59.

إلى عدد الخيام رقم 780640 لعدد سكان الريف و53000 نسمة لسكان الحضر، أما عدد الخيام فكان 108730 أي أكثر من 07 أشخاص في المسكن الواحد[1].

أما تعداد الجنرال براغواي دي هيليي Bragvay D'hilliers الذي قدمه إلى وزراة الحربية بتاريخ 13 جوان 1844 فقد قدم رقم 495 866 . نسمة وقد اعتمد على حساب الخيم والأكواخ وعلى 05 أشخاص في المسكن الواحد[2].

أما كاريت Carette، عضو اللجنة العلمية فقد طبق طريقة أخرى في عملية الحساب حيث اعتمد على حساب عدد المحاربين فقد كان رأيه أنهم يشكلون الثلث بالنسبة للمجموع وقد أعطى رقم 952000 هو تعداد مقاطعة قسنطينة[3].

أما أول إحصاء رسمي فقد كان سنة 1844-1845 في عهد بيجو وقد كان الرقـــم: 1.016.716 نسمة[4]. أما في سنة 1850 فقدر عدد سكان مقاطعة قسنطينة بـــ1.913.000[5]، وفي مطلع سنة 1851 بلغ عدد سكان الإقليم 1.300.000 نسمة[6].

أما تقرير الجنرال ألارد Allard في 7 جويلية 1852 فقد ذكر أن عدد السكان المسلمين هو 1.349.000 والسكان الأروبيين 27113 نسمة[7].

أما مرسييه فقد ذكر إحصاء لإقليم الشرق اعتمادا على المكاتب العربية. ففي 1851 بلغ عدد سكان مقاطعة قسنطينة 1.101.421 نسمة وهز يفوق رقم سكان مقاطعة الجزائر 756.267 نسمة ووهران 466.157[8] أما آخر إحصاء حسب مرسييه فكان سنة 1881 وبلغ فيه سكان إقليم الشرق الجزائري 1.174.002[9].

ب ـ عناصر السكان

صنف الأوروبيون سكان الجزائر في العهد العثماني اعتمادا على عنصر العرق[10] و لم يخرج

---

1 - Noushi : Enquête sur le niveau de vie…, Op cit, p. 20.
2 - Idem.
3- Ibid, pp. 20-21.
4- Ibid, p. 21.
5- Yaconno : Peut-on évaluer la population…, Op cit, p. 290.
6- فركوس صالح: المرجع السابق، ص 9.
7- Noushi : Op cit, p. 21.
8 - Mercier, E : L'Algérie en 1880. Op cit, p. 155.
9 - Mercier, E : L'Algérie et les questions algériennes : Etude historique statistique et économique, Paris, Challamel Ainé éditeur, 1883, p. 136.
10- شويتام، أرزقي: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره، ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الإسكندرية، كلية الأدب، قسم تاريخ، 1988، ص 68.

عن إطار هذا التقسيم سكان إقليم قسنطينة. ففي مذكرة تعود إلى ما بعد 1839 قسم الفرنسيون سكان إقليم قسنطينة إلى أربعة أعراق متمايزة هي :

القبائل ـ العرب ـ الترك ـ اليهود[1].

وقبل هذا التاريخ قسموا من قبل دي لمال إلى :

البربر أو القبائل ـ العرب ـ الأتراك والكراغلة ـ اليهود[2]. وكان الباحث التميمي قد أعطى نفس هذا التقسيم[3].

وقد تناولت هذه الكتابات في مجملها خصائص كل عنصر وعلى غرار ما قمنا بأبحاث يمكن تقسيم سكان الإقليم إلى سكان مدن وريف وهذا الصنف الأخير يشكل حوالي 90 %[4] غير أن سكان المدن وخاصة مدينة قسنطينة التي كانت تعتبر المدينة الرئيسية في الإقليم ورغم قلتهم بالنسبة لمجموع السكان فإنها كانت تعتبر المركز السياسي والاقتصادي الذي أدى بها لأن تلعب دورا اجتماعيا بالغ الأهمية[5].

ولا تقتصر ظاهرة تفوق سكان الريف عن المدن على الشرق الجزائري بل تميز الجزائر كلها في تلك الفترة[6].

جـ ـ علاقة السكان بالسلطة المركزية

كان الشرق الجزائري يتشكل من القبائل والأعراش وفروعها وقد قدّر عددها في بداية التنظيم الإداري الاستعماري 250 قبيلة أو عشيرة[7] وكانت العشيرة أو القبيلة أو الأسرة هي أساس الهرم الاجتماعي للريف[8] وقد استغلت الإدارة التركية الاختلافات الموجودة داخل القبائل من أجل فرض سلطتها[9].

---

1 - سعيدوني، ناصر الدين: المرجع السابق، ص 157.

2- De La Malle : Op cit, p. 149.

3- Temimi : Op cit, pp. 55-56.

4 ـ عمري الطاهر: بنية الريف والمدينة قبل الاحتلال الفرنسي، أعمال ملتقى دولي في التاريخ (التغييرات الاجتماعية في البلدان المغاربية عبر العصور)، 23-24 أفريل 2001، منشورات مخبر الدراسات التاريخيـــة والفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، طبع شركة دار الهدى عين مليلة، الجزائـــر، ص 213.

5 - قشي فاطمة الزهراء: المرجع السابق، ص أ.

6 - السايح فيلالي: العلاقات السياسية الجزائرية التونسية، ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، قسم تاريخ، 1998، ص 22.

7- Temimi : Op cit, p. 58.

8 - عميراوي: السياسة والمقاومة الوطنية في الشرق...، المرجع السابق، ص 34.

9 - سيساوي أحمد: المرجع السابق، ص 150.

وقد ذكر الباحث الهادي محمد الشريف في دراسته لطبيعة العلاقات بين الدولة والمجتمعات القبلية قبل الفترة الاستعمارية أن الدولة تستعمل وتستغل تقريبا في كل مكان الاختلافات داخل المجتمع وعدم مساواته لفرض سلطتها والهيمنة على الجميع[1].

وقد تجسدت هذه السياسة في علاقة الإدارة البايلكية بالقبائل حيث ذكر الهادي محمد الشريف كذلك "أن علاقة الدولة المغربية قبل الاستعمار لم تخرج عن القاعدة العامة حيث كان هناك تمييز البعض منها عن البعض الآخر وتفضيل مستويات معينة على حساب البعض الآخر كأعيان القبائل على حساب مجموع الرعايا وبفرض السيطرة على القبائل الخاضعة في تسيير شؤونها أو السماح بالاستقلال الذاتي للمجموعات التي يصعب التحكم فيها"[2].

وقد اختلف الباحثون في تصنيف هذه القبائل فالبعض أدخل العامل الجغرافي والبعض الآخر صنفها حسب هيكلها الداخلي وآخرون حسب العلاقة التي تربطها بالسلطة.

فهناك قبائل الشمال القسنطيني أو الساحل نسبة لتمركزها الجغرافي وهناك من سماها بالقبائل وتعيين الجماعة[3] أو قبائل ممتنعة عن سلطة البايلك[4] أو التجمعات المستقلة ذاتيا[5].

وهناك قبائل يكون أعيانها معينين من قبل البايلك أو قبائل الرعية[6] وهناك القبائل المفضلة أو ذات المزايا[7] أو ما يسمى قبائل المخزن[8] وهناك القبائل التي تعين رؤساءها[9] أو الأسر المحلية الحاكمة التي كانت تحكم في الشرق الجزائري[10] أو القيادات العسكرية الدينية[11]. وسوف نستعرض هذه القبائل بشيء من التفصيل.

---

[1]- Cherif, Mohamed El Hadi : Introduction des rapports de l'état et des communautés tribales au Maghreb, Actes de III° congrès d'histoire et de la civilisation du Maghreb, (Le monde rural maghrébin : communautés et stratification sociale), Oran 26-27-28 novembre 1983, Alger, OPU, 1987, p. 274.

[2]- Idem.

[3]- سيساوي، أحمد: المرجع السابق، ص 150.

[4]- قشاعي: المرجع السابق، ص 140.

[5]- حسب محمد الهادي الشريف هما متواجدين في الجبال والسهول، انظر كذلك: عميراوي: السياسة والمقاومة الوطنية... المرجع السابق، ص 33.

[6]_ قشاعي: المرجع السابق، ص 129.

[7]- Cherif Mohamed H: Op cit, p 274.

[8]_ سيساوي: المرجع السابق، ص 37.

[9]_ المرجع نفسه، ص 138.

[10]__ معاشي: المرجع السابق، ص 18.

[11] _ Cherif, M.H: Op cit, p. 282.

1 ـ القبائل الممتنعة عن سلطة البايلك

وهي قبائل مستقلة تقريبا عن سلطة البايلك وتخضع لقادة يختاروهم بأنفسهم[1] وهذا يعود لأسباب جيوسياسية فسرت تمتع هؤلاء السكان باستقلال داتي اتجاه المخزن حيث لم تخضع تماما المناطق الجبلية والصحراوية من قبل المخزن منها بلاد القبائل والأوراس[2] أي المناطق الجبلية والصحراوية والجهات الصعبة المسالك والنائية كمناطق الشمال القسنطيني وجبال البابور والأوراس ونواحي الصحراء[3].

إذا فنتيجة للوضعية الجغرافية الصعبة وبعدها عن الحاميات العسكرية وفرسان المخزن فقد أدت بهؤلاء السكان إلى الامتناع عن سلطة البايلك[4] وعدم الاعتراف بها في أحيان كثيرة[5] حيث حيث كانت لا تدفع الضرائب إلا بالقوة[6].

وكنموذج عن هذه القبائل نجد قبائل الشمال القسنطيني حيث أحصى فيرو 32 قبيلة قسمها بين كبيرة وصغيرة[7] وهي من أشد القبائل بأسا والأتراك في حالة حرب دائمة معهم ولم تتمكن الحكومة المركزية من إخضاعهم[8]، ولا يملك بايات قسنطينة إلا سلطة اسمية وقد أثبت مصير عصمان باي في منخفض واد الكبير أن السلطة التركية لم تكن معروفة[9].

وكانت هذه القبائل تنصاع وتخضع لسلطة الجماعة في أغلب القضايا السياسية والاجتماعية[10].

وقد كانت إرادة الجماعة والعادة أي العادة التقليدية المتبعة هي دائما التي تنتصر حتى وإن حاول قاضي أو رجل دين تطبيق نص قرءاني أو تشريع إسلامي وهذا أدى إلى وجود المثل القائل: "عند القبايل القاضي يحكم ولكن الجماعة تلغي الحكم"[11].

1- سيساوي: المرجع السابق، ص 150.

2- Cherif, M.H: Op cit, p. 283.

3- قشاعي: المرجع السابق، ص 140.

4- المرجع نفسه، ص 142.

5 -Temimi : Op cit, p. 51.

6- معاشي: المرجع السابق، ص 177.

7- Feraud, Ch : Histoire des villes de la province de Constantine : Gegelli in R.S.A.C, T. XIV, 1870, p. 74.

8- شالر وليام: المرجع السابق، ص 116.

9- Feraud, Ch : Histoire des villes…Gegelli, Op cit, p. 39.

10- سيساوي: المرجع السابق، ص 150. انظر كذلك :

Ageron, (Ch R) : L'Algérie Algérienne : de Napoléon III à de Gaule, Paris, Sindbad, 1980, p. 51.

11- Feraud, Ch : Histoire des villes… Gegelli, Op cit, p. 36.

كذلك كان الحال نفسه بالنسبة لسكان القبائل الذين يسكنون بين جبال بجاية والقل حيث كانوا مستقلين و لم يتمكن الأتراك أبدا من فرض الضرائب عليهم[1].

ورغم الخوف الذي يمثله الأتراك فلم يتمكنوا فعليا من السيطرة على الناحية الجبلية للساحل وكان هؤلاء السكان يواجهون الأتراك بمقاومة شديدة في كل مرة يحاولون إبراز قوتهم ضدهم[2]، فقد كانوا لا يريدون أبدا الخضوع إليهم[3].

وقد لاحظ الفرنسيون الشيء نفسه عند مجيئهم حيث وصفهم فيرو كالآتي "كان السكان القبائليون الذين يسكنون هاته الناحية مجموعين في قبائل مستقلة ونصف متوحشة، عريقة في القديم ومطيعة لشيوخ مؤثرين ونافدين يدافعون بكل حرية عن أقاليمهم وهذا ما لاحظناه لاحقا"[4].

وقد ذكّر فيرو بصعوبة البلاد الجغرافية التي عانى منها الأتراك والتي عانوا منها هم كذلك حيث قال "باختصار كان بلدا صعب المنال بالنظر إلى الموارد القليلة التي كانت بحوزتنا في تلك الفترة..."[5].

أما السكان فهم ينقسمون إلى قبائل مستقلة، وكل قبيلة تنقسم إلى عدد من الفروع[6].

أما عن نظام السلطة داخل القبائل المتواجدة بين سكيكدة والقل فإن كل بطن أو فرع هو مشكل من عناصر ذات أصول مختلفة وكل فرع من العائلة يرى أنه متساوي مع الآخرين ولا تعترف بفرع أعلى حيث لم يوجد رئيس قبيلة بمعنى الكلمة[7].

وبخصوص السلطة داخل القبيلة فلم تكن هناك سلطة محددة، فالجميع لم يكن يعترف إلا بسلطة الواقع أو الملموس التي تعود إلى قائد العائلة، وعندما يصبح عدد العائلات _ المجتمعة حول نفس القضية _ معتبرا تصبح سلطة الشيخ متغيرة جدا حسب قوته الروحية والجسمية، وكان الشيخ نفسه مضطرا لاستشارة الأعيان واتباع رأي الأغلبية عند كل قضية مهمة و لم يكن يسوي بنفسه إلا المناقشات الخاصة قليلة الخطورة[8].

2 _ قبائل المخزن

"وهي عبارة عن تجمعات سكانية مصطنعة متمايزة في أصولها مختلفة في أعراقها وأقرّها الأتراك

1- De La Malle : Op cit, p. 85.
2 - Feraud : Document pour servir l'histoire de Phillipe ville, in R.A, T. XX, 1876, p. 94.
3 - Shaw : Op cit, p. 126.
4 - Feraud, Ch : Document pour servir l'histoire de Phillipe ville, Op cit, p. 52.
5- Idem.
6 - Idem, p. 93.
7- Idem.
8 - Ibid, p. 94.

على الأراضي التي وجدت عليها، لتكون عونا لهم وكذلك منهم من استقدموا كأفراد من جهات مختلفة تؤلف حينها جماعة شبه عسكرية ترتبط مصالحها لخدمة الحكومة التركية"[1]، وقد ذكر إرنست مرسييه أن تنظيم المخزن يتكون من أشخاص من أصول متعددة يضعونهم على الطرق الرئيسية، بعد طرد سكانها الأصليين مع منحهم أراضي وامتيازات مقابل مراقبة الطرقات وتقديم فرسان عند الحاجة[2] أو "هي قوات مساعدة لإسناد الجيش النظامي (المحلة) لجباية الضرائب أو الحملات الكبيرة وهذا مقابل بعض المزايا"[3]، وكانت هذه المزايا متعددة[4].

إذا فالقبائل المخزنية هي القبائل الموالية للسلطة[5] ولكن يمكن أن تستغني السلطة عن خدمات خدمات قبيلة مخزنية وترجعها إلى وضع قبيلة رعية.

وتختلف تركيبة كل قبيلة مخزنية، فهناك قبائل هي بطبعها مخزنية منذ قرون وهناك قبائل تصبح مخزنية عند أحداث معينة[6].

أما مجمل قبائل الشرق الجزائري فإنه يختلف عن مخزن الغرب حيث أن البايات لم يشعروا بضرورة تنظيم القبائل كقوات عسكرية كما هو في الغرب حيث كانت قبائل الدواوير والزمول تهتم بفلاحة الأرض التابعة للدولة كذلك كانت تشكل قوة عسكرية[7].

وكانت الزمول تتواجد بجنوب قسنطينة[8] والدواوير بالجنوب الشرقي ووصل عدد فرسانها إلى ألف فارس يشاركون في جمع الضرائب مع محلة الباي[9].

وقد كان الرحالة بايسونال شاهدا علي باي قسنطينة[10] "وهو يعسكر مع حوالي 300 جندي في معسكر مشكّل من 12 خيمة كل خيمة تضم 25 رجلا... وكانت عدة دواوير من العرب تحيط بهم على شكل دائرة ومهمتهم مدّ يد العون إلى الأتراك"[11].

1- سعيدوني ناصر: المرجع السابق، ص 258.

2 - Mercier, E : L'Algérie en 1880, Op cit, p. 5.

3- Cherif, M.H : Op cit, p. 275.

4- تتمثل هذه المزايا في : منح مراعي واسعة لتربية الحيوانات وأراضي زراعية أو الحق في ملكية منازل بقسنطينة ليبقوا على صلة بالجهاز الإداري للبايلك والإعفاء من الضرائب الشرعية كالعشور والزكاة.

5- معاشي جميلة: المرجع السابق، ص 37.

6- Cherif, M.H: Op cit, p. 275.

7- سيساوي: المرجع السابق، ص 37.

8- أقرت الزمول في سهول عين مليلة، على الطريق الذي يربط قسنطينة والأوراس والزبيان، وقد أقطعت من طرف صالح باي واستطاعت تجنيد ما لا لا يقل عن 500 فارس لفائدة البايلك.

9- قشاعي : المرجع السابق، ص 134.

10- ذكر مرسييه أنه بوكمية وقد كان متواجدا على بعد 36 مرحلة من بونة. انظر :

Mercier, E : Histoire de Constantine : Op cit, p. 245.

11- Peyssonel : Op cit, p. 289.

وقد كان دور قبائل المخزن ذا فعالية كبيرة في تثبيت الحكم التركي وذلك بالمشاركة في إحلال الأمن بإخماد الثورات والمشاركة في الحملات العسكرية وهذا ما أدى بباسونال إلى إبراز هذا الدور قائلا "...إنه من العجب مع هذا العدد القليل من الجند الأتراك تمكّنهم من إخضاع كل البلاد التي يسكن فيها عرب على استعداد تام للثورة"[1].

3 ـ قبائل الرعية

وهي القبائل التي تخضع لهيمنة السلطة وحاجاتها الضريبية[2] وليس في استطاعتها أن تعصي أوامر البايلك لأنها مراقبة من فرسان المخزن من زمول ودواوير[3] وكذلك عن طريق المحله التي تأخذ الضرائب من هذه القبائل[4] كذلك لأنها محرومة من وسائل الدفاع عن نفسها حيث منعت من امتلاك البنادق والسيوف[5].

وبالإضافة إلى القبائل فقد دخل ضمن جماعات الرعية الفلاحون والتجار الصغار والحرفيون الذين يشتغلون بالأعمال الفلاحية والصناعية سواء أكانوا بالريف أو المدن وكانوا يخضعون إضافة إلى السلطة الحاكمة وسلطة الإقطاع المحلي والتركي الذي تكون من الموظفين السامين وأسر البايات[6].

وتعتبر جماعات الرعية مصدر ثروة البايلك إذ يتحملون كل المطالب والتكاليف المالية ويدفعون العديد من الضرائب كما يقومون بأعمال السخرة بأراضي البايلك (العزل)[7].

4 ـ القبائل التي تعين شيوخها

لقد كانت سلطة الباي خارج المدن معترفا بها من قبل القبائل والشيوخ أو الأحلاف القبيلية التي ترجع إلى نفوذ قبيلة واحدة[8].

وقد فرضت هذه القيادات العسكرية أو الدينية نفسها في مناطقها وأمام السلطات بوسائلها الخاصة[9].

---

[1]- Ibid, p. 290.

[2]- Cherif, M.H: Op cit, p. 277.

[3]- قشاعي: المرجع السابق، ص 129.

[4]- Cherif, M.H: Op cit, p. 278.

[5]- قشاعي: المرجع السابق، ص 129.

[6]- معاشي: المرجع السابق، ص 178.

[7]- قشاعي: المرجع السابق، ص 129.

[8]- سيساوي : المرجع السابق، ص 138.

[9]- Cherif, M.H : Op cit, p. 82.

ومن هذه القيادات:

ـ شيخ الحنانشة، الأحرار في الشرق.

ـ شيخ العرب بوعكاز في الجنوب.

ـ شيخ مجانة أولاد مقران في الغرب[1].

وقد ذكر مرسييه في كتاب تاريخ قسنطينة تحت عنوان نفود أو قوة العائلات الإقطاعية الحنانشة والدواودة وبوعكاز وآل المقراني[2] وكذلك ذكرهم في كتابه تاريخ إفريقيا الشمالية[3].

وعلى العموم فقد تركز حكم بايلك الشرق أو إقليم الشرق الجزائري في يد خمس أسر محلية حاكمة هي:

ـ أسرة أحرار الحنانشة الذين يحكمون الحدود الشرقية للبايلك.

ـ أسرة بوعكاز من قبيلة الدواودة حكام الصحراء.

ـ أسرة المقراني، حكام مجانة الذين يحكمون الحدود الغربية للبايلك.

ـ أسرة بن جلاب وتحكم مدينة تقرت وأريافها جنوب البايلك.

- أسرة بن قانة ظهرت على الساحة في منتصف القرن الثامن عشر وكانت لها مشيخة العرب[4].

وقد تمتعت هذه القبائل بقوة كبيرة حيث دخلت في مواجهة مع الأتراك وقد كان على رأس هذه المواجهة شيخ العرب أحمد بن صخري وخالد من قبيلة الحنانشة وحدثت بينهما معركة بين قسنطينة وسطيف وتم الاتفاق على السلام بالشروط الآتية:

1 ـ على الأتراك ألا يطالبوا الثائرين بضريبة اللزمة.

2 ـ أن يعودوا إلى الجزائر العاصمة مباشرة وإلا قُضي عليهم نهائيا.

3 ـ إعادة بناء حصن فرنسا لأن تهديم الحصن هو الذي دفع بهؤلاء إلى عدم دفع الضريبة والثورة على الأتراك.

---

[1]- Feraud, Ch : Les Harar : Seigneurs des Hnanchas : Etude historique de la province de Constantine, in R.A, T. XVIII, 1874, p. 23.

[2]-Mercier, E : Histoire de Constantine, p 250.

[3]- Mercier, E : Histoire de l'Afrique Septentrionale, T.3, p 6.

[4]- معاشي: المرجع السابق، ص 18.

وهكذا نرى أنه تمّ تقسيم السلطة بين أحرار الحنانشة، بوعكاز وأولاد مقران[1]، وقد جرت العادة على أنه حينما يعين باي جديد فإنه تجتمع القيادات على ضفاف الرمال يسلم فيها ممثل الباشا القفطان إلى قادة العائلات الثلاث ثم يلبسه الباي الجديد[2]. وقد أصبح هذا التقليد جزءا من النظام العثماني تتوقف عليه استمرارية النظام اقتصاديا وسياسيا[3].

وقد ذكر بايسونال "أن قائد الحنانشة يتسلم القفطان من الباي وهو في صف الباي"[4]. وقد ذكر بعض الباحثين أن هذا التقليد حدث بعد ثورة 1638[5] ولكن ربما يكون قد حدث قبل تلك الثورة حيث ذكر ذلك فيرو مستشهدا بابن المبارك[6].

"وبعدما استقرّ الأتراك في قسنطينة قادمين من بونة وتونس، قسموا السلطة بين ثلاثة وبعد اتفاق سمح للأتراك بالسكن في قسنطينة، ثلث السلطة لشيخ العرب، ثلث السلطة للحنانشة والثلث الأخير للأتراك من هنا جاء التقليد على أنه بعد أن يتم تعيين الباي الجديد، يبعثه إلى شيخ العرب ثم إلى شيخ الحنانشة"[7].

وقد تساءلت الباحثة ليلى بابس عن مدى جدية هذه المقارنة في وضع سلطة شيخ الحنانشة مع نفس درجة سلطة البايليكين وخلصت إلى القول أن هناك أدلة عديدة تؤكد حقيقة أن الحنانشة يتصرفون في حالات عديدة كسلطة مركزية ومنها: وجود جهاز عسكري مختص مهمته ضمان الأمن، وجباية الضرائب على الأراضي (أو إقليم الحنانشة) وحتى وراء تلك الأقاليم حسب طموح ذلك الوقت.

وقد لخصت الباحثة كل ذلك في عناوين منها: إدارة وضرائب، التسلسلية في الحكومة، الادعاء بلقب سلطان وطبيعة استيراتيجية التحالفات هي كلها عوامل مميزة لهرم السلطة[8].

وعلى غرار هذه القبيلة هناك عائلة كبيرة محلية هي عائلة المقراني التي تولت القيادات العسكرية والدينية وفرضت نفسها على تلك المنطقة[9].

---

[1]- لم يكن أولاد مقران ضمن ذلك التقسيم في تلك الفترة وقد ذكر فيرو أنه من المحتمل أن عائلة المقراني قد أضيفت لأنها تتحكم في السيطرة على الاتصالات بين الجزائر وقسنطينة.

[2]- Feraud, Ch : Les Harar…, Op cit, pp 200-201.

[3] - Filali, K : Le don : Epine dorsale du système Ottoman, le cas de l'Algérie, in A.L.E.R.M.M, Vol V, 2002, pp.9-10.

[4]- Peyssonel : Op cit, p. 292.

[5]- سيساوي: المرجع السابق، ص ص 138-139.

[6] - El Mobarek, A: Op cit, pp. 258-286.

[7]- Feraud, Ch : Les Harar…, Op cit, pp 200-201.

[8]- Babes, Laila : Mythes d'origine et structures tribales dans le Constantinois sous la domination Turque : Essai sur le fondement du pouvoir politique, thèse de Doctorat de 3è cycle, spécialité étude politique, Aix-en-province, 1984, pp. 266-267.

[9]- Cherif, M.E : Op cit, p. 82.

وكان البايلك يستخدم هذه العائلات ذات النفوذ والذين يعرفون بجماعة الجواد وهي عائلات شبه إقطاعية محلية تستمد نفوذها من أصولها الشريفة ومكانتها المميزة كما تعتمد في فرض كلمتها على ما تملكه من ثروات (أراضي زراعية شاسعة _ محاصيل _ قطعان من الماشية) وهي تشكل حلقة وصل بين القبائل الممتنعة عن سلطة البايلك والبايلك[1].

من هذا كله نرى أن علاقة البايلك بمختلف القبائل في إقليم الشرق الجزائري تتحدد وفقا لوزن القبيلة وقوتها.

فإذا كانت كبيرة فإن العلاقات تكون على أساس المصلحة المتبادلة أما إذا كانت صغيرة فإنها تكون مستغلة. أما القبائل التي توجد في مناطق جغرافية صعبة فتعيش شبه مستقلة وثائرة[2].

وقد استعلمت السلطة هذه الاختلافات وعدم المساواة للتحكم في الجميع وذلك بتفضيل البعض على البعض الآخر والاعتراف باستقلالية البعض وإحكام الضغط على آخرين[3].

ثالثا _ الخصوصية الاقتصادية

لقد أثر تنوع التضاريس والمناخ على الناحية الاقتصادية[4] حيث نتج عنه تنوع في النشاط الاقتصادي[5]، المحاصيل الزراعية والتبادل التجاري، وهذا ما سمح لمقاطعة الشرق أن تتبوأ مكانة مرموقة بين مقاطعات الجزائر الأخرى، فقد كانت مقاطعة الشرق أو قسنطينة هي المقاطعة الأكثر غنى[6].

يعتمد النشاط الاقتصادي في الشرق الجزائري أساسا على الفلاحة، وتربية الحيوانات، الصناعات التقليدية والتبادل التجاري[7]. وسوف نستعرض في بداية الأمر أهم نشاط اقتصادي مورس في الشرق الجزائري وكان 95% من سكان أرياف إقليم الشرق يمارسون هذا النشاط

---

[1]- قشاعي: المرجع السابق، ص ص 140-141.

[2]- عميراوي، حميدة: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس في أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، قسنطينة، دار البعث، 2005، ص42.

[3]- Cherif, M.H: Op cit, .p. 274.

[4] - Noushi : Enquête sur le niveau des populations rurales… Op cit, p.2.

[5]- فركوس: المرجع السابق، ص ص 8-9.

[6]- De Paradis, V: Op cit, p. 18.

[7]- بوعزيز، يحي: المرجع السابق، ص 305.

الفلاحي[1]، ومن هنا تكمن أهمية التعرف على طبيعة ملكية الأرض في الشرق الجزائري لأنها كانت أساس الحياة الاقتصادية[2] كذلك حددت شكل وقيمة الضريبة فيما بعد[3].

كذلك فقد أثرت في توسع الاستعمار الفرنسي[4] لأنها كانت تتوافق مع الشكل الاجتماعي والذي هو أساسا قَبَلي[5].

أ _ النظام العقاري: ويتكون من:

1- أراضي البايلك، 2- أراضي العرش، 3- أراضي الملك[6].

أما مرسييه فقد قسمها إلى :

1- أراضي الموات، 2- أراضي الدولة: العزل وأراضي المخزن، 3- أراضي الوقف[7].

أما سعيدوني فقد قسمها كالآتي:

1- الملكيات الخاصة، 2- ملكيات البايلك، 3- الأراضي المشاعة، 4- أراضي الوقف، 5 - أراضي الموات[8].

وقد ذهب آخرون إلى:

1- أراضي البايلك، 2- أراضي عرش، 3- أراضي الخواص، 4- أرضي الحبوس[9].

أو إلى:

1-أرض ملك، 2- أرض عرش، 3- أرض مخزن، 4- أرض صحراوية أو موات، 5- أرض بايلك[10].

أما مولود قايد فقد قسمها إلى:

---

1 - قشاعي، فلة: المرجع السابق، ص 95.

2 - المرجع نفسه، ص 95.

3- Noushi: Enquête sur le niveau de vie…, Op cit, p.96.

4 - لقد استغل الفرنسيون شكل الملكية في الجزائر، خاصة أراضي العرش وحتى أراضي الملك للاستحواذ عليها ومنحها للمعمرين الفرنسيين. وكان إرنست مرسييه من الذين عبّروا عن ذلك بوضوح حيث نفى وجود أراضي العرش في الجزائر، وذكر أنه لا يوجد مالكين لها. انظر :
Mercier, Ernest : La propriété foncière musulmane en Algérie : condition légale, situation antérieure, état actuel de la question, Alger, Typographie Adolphe Jourdan, 1898, p. 26.

5 - Megherbi, Abdelghani : La Paysannerie Algérienne face à la colonisation, Alger, Edition ANEP, 1973, p.20.

6- Noushi : Enquête sur le niveau de vie…, Op cit, p. 79.

7 - Mercier, E : La propriété foncière musulmane..., Op cit, pp 10-11.

8- سعيدوني، ناصر الدين: ملكية الأراضي بالجزائر أواخر العهد العثماني وتأثيرها على البنية الاجتماعية بالريف، أعمال المؤتمر الثالث للتاريخ وحضارة وحضارة المغرب (العالم الريفي المغربي: مجموعات وطباق اجتماعي)، وهران: 26-27-28 وفمبر 1983، نشر د.م.ج، 1987، ص 216.

9- سيساوي: المرجع السابق، ص 107.

10- عميراوي: من الملتقيات التاريخية... المرجع السابق، ص 44.

1- ملكيات خاصة، 2- ملكيات جماعية، 3- ملكيات الأمير والتي تتكون من رطب البايلك والعزل والجبرى والحبوس[1].

وسوف نستعرض كل صنف على حدا.

1 ـ أراضي البايلك

تشمل هذه الأراضي ممتلكات البايلك وتنقسم إلى نوعين:

الأول: هي الأراضي الخاصة أي المخصصة للباي وعائلته، وتكون فيها الأراضي خصبة ومسقية جيدا وصالحة لكل أنواع الزراعة، وتتم زراعتها عن طريق التويزة التي تفرض على القبائل المجاورة أو عن طريق الخماس الذي يتحصل على جميع وسائل وأدوات الإنتاج مقابل خمس منتوج الجابدة[2] (آلة الحرث والحيوان الذي يجرّها)[3].

أما النوع الثاني فهي الأراضي التابعة للدولة أو العزل وتنتشر حول مدينة قسنطينة على شكل حزام وتضم كذلك أخصب الأراضي[4]، ومصدر هذه الأراضي : أراضي العائلات المالكة التي سبقت الوجود التركي والأراضي المصادرة من قِبل البايات[5].

وفي هذا السياق نورد التصرف الذي قام به أحمد باي تجاه عرش أولاد عبد النور[6] وهكذا وصلت الأملاك المصادرة من قبل أحمد باي واحدا وعشرين ملكية استفاد هو وعائلته بثمانية ملكيات[7].

وأحيانا تكون الاستفادة عن طريق الشراء[8] ونشير إلى أنّ أراضي العزل تنقسم إلى عدة أصناف:

1 ـ 1 ـ عزل الخماسة: تستغل هذه الأراضي من قبل الخماسين مع منحهم وسائل الإنتاج ويحصل الخماس على 5/1 مقابل جهده بينما تحصل السلطة على 5/4من المحصول[9].

1- Gaid, Mouloud : Chronique des Beys de Constantine, O.P.U, L [S.D], p. 141 et les pages suivantes.

2 - Noushi : Enquête sur le niveau…., Op cit, pp. 79-80.

3_ الجابدة بالمفهوم الفلاحي الريفي: المحراث والحيوانات التي تجرها سواء ثيران أو خيول أو أحمرة.

4- قشاعي: المرجع السابق، ص 97.

5 - Mercier, E : La propriété foncière musulmane…, Op cit, p. 10.

6- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 80.

7- سيساوي: المرجع السابق، ص 107.

8- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 80.

9- Idem.

1 ـ 2 ـ عزل جبري: أو الأراضي الجوابرية وتمثل الجزء الأكبر من أراضي البايلك[1].

وتعطى هذه للفلاحين مقابل دفع ضريبة جبري أي 12 صاع من القمح و12 صاع من الشعير على الجابدة، وكان على المستفيد الإعتناء بعدد معين من الجابدات المحددة من قبل الباي ويمكنه أن يزيد على المساحة المتفق عليها مع الباي لفائدته الخاصة[2].

1 ـ 3 ـ عزل الغريب: وهي الأراضي التي منحت للقبائل مقابل تربية والاعتناء بقطعان الباي ولا تدفع هذه القبائل إلا العشور (صاع من القمح وصاع من الشعير عن كل جابدة) وكذلك ضريبة الحكور التي قدرت بـــ 10 ريالات[3] وكانت تلك القبائل تتعهد بإمداد الباي وموظفي البايلك بكل بكل ما يحتاجونه من الزبدة واللحوم[4].

1 ـ 4 ـ عزل متاع الجبل: تقع هذه الأراضي في المناطق الجبلية التي يجد البايلك صعوبة كبيرة في فرض سيطريته عليها فمنح استغلالها لبعض العائلات القوية مقابل المال[5] أو مقابل خدماتهم كعائلة بن لفقون[6].

2 ـ **أراضي العرش**

يشير العرش إلى القبيلة المشكلة من عدة أفخاد أو أقسام وأرضهم. وقد استعمل لتعيين نوع النظام العقاري. ويؤكد نوشي أن العرش لا يعني أبدا الملكية الجماعية[7] إذ أنّ طريقة استغلال الأرض الأرض تكون بتعاون أفراد القبيلة على فلاحة الأرض دون اقتسام نتاج الأرض إذ أن كل فرد يملك بُذوره الخاصة، وقطعانه وأدوات الحرث الخاصة[8]. وينتقل حق التمتع في استغلال الأرض عن طريق طريق الإرث العائلي[9] أي أن حق التمتّع بالملكية ينتقل من الأب إلى الابن، وقد أدى هذا إلى تحولها إلى أراضي ملك. كذلك فإن استغلال الأرض عن طريق العمل هو أساسي لفهم نظام أراضـــي العرش[10] ونتيجة لما سلف ذكره فإننا نرى أن المرأة أبعدت وحرمت من وراثة الأرض لأنها عمليا لا

---

[1]- قشاعي: المرجع السابق، ص 99.

[2]- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 81.

[3]- Idem.

[4]- قشاعي: المرجع السابق، ص 100.

[5]- Noushi : Enquête sur le niveau…., Op cit, p.81.

[6]- قشاعي: المرجع السابق، ص 100.

[7]- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 85.

[8] - Ibid, pp. 86-87.

[9]- سيساوي: المرجع السابق، ص 114.

[10]- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, pp. 86-87.

يمكنها أن تقوم بهذا الجهد الخاص بالرجال، فإذا توفي أحد مستغلي الأرض من دون ترك وريث يستطيع خدمة الأرض فإنها تذهب إلى القبيلة أي الذي هو قادر على خدمتها[1].

3 ـ أراضي الملك

تعني كلمة ملك حرّية التصرف المطلق في الأرض حيث دخلت هذه الكلمة في القاموس الفرنسي القانوني واللغوي خلافا لمفهوم ملكية العرش الذي كان بالنسبة لهم أقل وضوحا[2].

ويحذر نوشي من ربط مفهوم الوضع القانوني لأراضي الملك بالقانون الفرنسي إذ يقول أن الحق في الملكية بالنسبة للعائلة يرجع إلى فترة بعيدة جدا وفق عقود أصلية أقيمت من قبل رجال دين بحضور الجماعة، وعند ما لا يكون هناك عقد كتابي فإنه وحده التصريح والإشهار يكفيان للتأكيد على إثبات الملكية[3].

وقد قام نوشي بمقارنة بين قانون الملك وقانون التمليك الفرنسي حيث ذكر أن الأرض تنتقل فيما يخص القانون الأخير عن طريق الوراثة أو الهبة وهذا بالنسبة للانتقال العادي، إذ أن الابن البكر للشخص المتوفى هو صاحب الحق في الملكية وفي تسيير الأملاك والبنايات أمام إخوته قبل بلوغهم، كما أنّ للنساء حق الملكية ونقل الملكية[4].

ومع هذا فقد نبه نوشي إلى اختلافات واضحة مع القانون الفرنسي ترجع إلى ثقافة المجتمع الجزائري إذ يمكن للمالك أن يبيع ملكيته عندما يريد ذلك ولكن ليس كما يحلو له،إذ يعتبر البيع إهانة كبيرة بالنسبة للبائع وعائلته لأنه تخلى عن ما تركه الأجداد[5]. وهذه معايير اجتماعية يمكن أن نقول أن المجتمع الجزائري خص بها.

وأراضي الملك هي مرتبطة بقدرة أصحابها على ممارسة الزراعة وكذلك التعهد بالمطالب المخزنية المتوجبة عليها[6].

ولا يتوجب عليها إزاء الدولة إلا الزكاة والعشر[7] ويتميز هذا النوع من الملكيات بأنه يخضع

يخضع

[1]- قشاعي: المرجع السابق، ص 105.

[2]- Noushi: Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 89.
[3]- Ibid, pp. 89-90.
[4]- Ibid, p. 90.
[5]- Ibid.

[6]- قشاعي: المرجع السابق، ص 101.

[7]- سعيدوني، ناصر الدين: ملكية الأراضي...، المرجع السابق، ص 211.

للمعاملات والبيع والشراء ولأحكام الإرث والهبة والشفعة[1].

أما عن عوامل تكونها تاريخيا فيعود إلى عدة أسباب: ـ استصلاح الأرض أو حيازتها عن طريق الشراء، أو ملكيتها عن طريق الإرث لهذا حرص أصحاب هذه الأراضي على تسجيلها بعقود تثبت ملكيتهم وتؤكد تلك الأعراف والعادات التي أدت بأن تعرف كل ملكية خاصة باسم العائلة التي تملكها وعلى الأغلب يحصلون على عقودهم من القضاة أو رجال الدين[2]، أما العائلات ذات النفوذ والتي هي بعدد تسعة وعشرين وهي تعد من العائلات التي أعطت بايات للمقاطعة كأولاد بن الحسين، أولاد صالح باي، أو عائلات المرابطين كأولاد لفقون وأولاد باشتارزي أو العائلات التي تشغل وظائف في المخزن كأولاد بن كوتشك علي، أولاد بن البجاوى وأولاد بن جلول[3] وهذه العائلات تحصل على فرمانات من البايات وذلك خوفا من المصادرة[4].

و لم تكن كل الملكيات الخاصة تتمتع بالعقود وهذا ما مكّن الفرنسيين فيما بعد من الاستحواذ عليها بحجة عدم توفرها على الوثائق الرسمية[5].

أما عن أماكن تواجدها فإنهابالقرب من المدن[6] كقسنطينة والمناطق الجبلية بنواحي جيجل، فرجيوة وجبال البابور والأوراس التي تمكنت من الإبقاء على هذه الملكيات بسبب صعوبة التضاريس وصعوبة استغلالها[7].

4ـ أراضي الوقف[8]

وتسمى كذلك بأراضي الحبوس وهي أراضي موقوفة لفائدة المؤسسات الخيرية (مكة المكرمة والمدينة المنورة)[9] والمساجد والمدارس والأضرحة والزوايا[10] وقد أوقفها المحسنون وكذلك البعض من أصحاب الثروة حتى لا يستولي عليها البايات[11] وقد أوكل التصرف فيها لناظر الأوقاف وهذا

1- قشاعي: المرجع السابق، ص 101.

2- المرجع السابق، ص 102.

3- Gaid, M : Op cit, p. 142.

4- قشاعي: المرجع السابق، ص 102.

5- المرجع نفسه، ص 104.

6- سيساوي: المرجع السابق، ص 116.

7- قشاعي: المرجع السابق، ص 103.

8- وضع مولود قايد أراضي الحبوس ضمن أملاك البايلك.

9 - Mercier, Ernest : La propriété foncière musulmane, Op cit, p. 11.

10- قشاعي: المرجع السابق، ص 107.

11- سيساوي: المرجع السابق، ص 130.

بمساعدة الوكلاء[1]. وقد تولى الإشراف على الأوقاف التابعة لقسنطينة ونواحيها بعض أفراد العائلات ذات المكانة الدينية[2] مثل عائلة بن لفقون حيث سمح لها احتكارها لمشيخة البلاد تولى مسؤولية الإشراف على الأراضي الموقوفة ويعود حق الانتفاع بهذه الأملاك إلى محبسة أو سلالته ولا يتحول إلى المصلحة العامة إلا لعدم وجود وريث ولا تخضع أراضي الوقف للضرائب ولا يمكن حيازتها أو بيعها أو إرثها[3].

ب ـ الزراعة

تميزت أراضي إقليم الشرق الجزائري بالخصوبة مما أدى إلى وفرة الإنتاج الفلاحي فقد ذكر دي فونتين "أغنى مناطق "المملكة" هي نواحي قسنطينة، بونة..."[4] كما قام بتحديد المناطق التي نعطي المحاصيل الوفيرة وتتمثل في بلاد قسنطينة من جهة الغرب، الشمال الغربي والجنوب الغربي[5]. واتفق دي بارادي مع دي فونتين حيث ذكر "أن أحسن الحبوب والسنبلة التي تحمل أكبر عدد من الحب هو الذي في مقاطعة قسنطينة"[6].

كما أشار بايسونال إلى سهل عنابة وحدّد موقعه الجغرافي وذكر مميزاته خاصة فيما يتعلق بالقمح[7]، كما وصف اتساعه حيث يقول "اجتزنا بعد ذلك سهل بونة الذي كانت مسافته ثمانية مراحل تقريبا"[8]، ويحدد مساحته وموقعه الجغرافي بدقة فذكر "يبلغ طوله عشرة مراحل وعرضه ما بين أربعة وخمس مراحل ويحده من الجنوب الجبال، ومن الشمال البحر وينتهي من جهة الغرب بمستنقع يسمى قرارة"[9].

كما أشار دي لمال كذلك إلى سهل عنابة وسماه بالسهل الشاسع بطول 40 ميلا وعرض 25 ميل وهو شديد الخصوبة يصلح لإنتاج كل أنواع الحبوب[10].

وهذه الخصوبة لا تقتصر على سهل عنابة بل تتعداها إلى السهول الساحلية في الجزائر حيث

1- سعيدوني: ملكية الأراضي...، المرجع السابق، ص 215.

2- انظر ما كتبه كمال فيلالي حول توزيع أملاك الحبوس من الأثاث والمباني والملكية بين العائلات الأكثر حظوة في فترة صالح باي من 1776-1792. انظر:

Filali, Kamel : L’Algérie mystique : des Marabouts fondateurs aux Khwan insurgés XV-XIX, Paris, édition Publisud, 2002, p 130 et les pages suivantes.

3- قشاعي: المرجع السابق، ص 108.

4- Desfontaine : Op cit, p. 260.

5- Ibid, p. 308.

6- De Paradis, V : Op cit, p. 22.

7- Peyssonel : Op cit, p. 276.

8- Ibid, p. 281.

9- Ibid, p. 276.

10- De la Malle : Op cit, pp. 65-66.

ذكر دي فونتين "إنها تنتج محاصيل جيدة من دون وضع الأسمدة"[1].

وتعتبر زراعة الحبوب من الزراعات الأساسية والمهمة في مقاطعة الشرق الجزائري، فزراعة القمح الصلب والشعير تمتد من مجانة إلى الحدود التونسية وهي قاسم مشترك بين كل القبائل حتى فيما يتعلق بالقبائل القاطنة بالجبال كجبال جيجل[2] أو الشاوية في الأوراس[3].

إذا فزراعة الحبوب تمثل النشاط الفلاحي الأساسي في الإقليم والذي يمتد إلى شمال الصحراء[4] الصحراء[4] بل أن زراعة القمح موجودة في الصحراء ولكن بمساحات قليلة بسبب نقص الأمطار[5]. الأمطار[5].

ومن المعروف أنّ القمح كان من المحاصيل الجزائرية الهامة وكانت الأنواع الصلبة هي وحدها التي تزرع في الأيالة ويبدأ الحرث عادة في وسط أكتوبر بعد سقوط الأمطار الخريفية، ويأتي الحصاد في آخر ماي أو بداية جوان، ويؤتمن على الموسم متى سقطت أمطار الربيع بوقتها المحدد في شهر أفريل[6].

وهناك أنواع أخرى من الحبوب تنتج في الشرق الجزائري كالشعير، الدرة، السورغو[7] ولكن ولكن يأتي الشعير في المرتبة الأولى[8]. وتتم زراعة الدرة والسورغو في شهر أفريل وتنضج في شهر أوت[9].

وبالإضافة إلى زراعة الحبوب والتي كانت تمارس على نطاق واسع فكانت كل منطقة تنتج محاصيل خاصة بها فمنطقة جيجل يتميز سكانها بمهارتهم في الزراعة بالإضافة أن إقليم جيجل مسقي جيدا[10] نتيجة لوجود عدة ينابيع وخصوبة الأرض كما ينتج الجلود، الشمع والزيت[11] وكذلك التين الشوكي والجوز إضافة إلى زراعة الكتان[12].

وينطبق هذا على منطقة سكيكدة حيث تتمتع بمياه وفيرة وأودية خصبة[13]. وتتنج إحدى

---

[1]- Desfontaine : Op cit, p. 270.

[2]- مارمول كربخال: إفريقيا، ج 2، ترجمة محمد حجي وآخرون، الرباط، دار نشر المعرفة، 1989. ص 381.

[3] -Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 67.

[4]- Desfontaine : Op cit, p. 266.

[5]- Ibid, p. 265.

[6] _ سبنسر، وليم: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتعليق عبد القادر زيادة، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1980، ص 120.

[7] - Desfontaine : Op cit, p. 266.

[8]- Ibid, p. 277 .

[9]- De La Malle : Op cit, p. 70.

[10]- De La Malle : Op cit, 63.

[11]- Peyssonel : Op cit, p. 174.

[12]- De La Malle.- Op cit.- p. 63.

[13]- Feraud, Ch : Document pour servir l'histoire de phillipe ville,… Op cit, p. 93.

قبائل القل وهي قبيلة أولاد الحاج Oulad El Hadj والتي تقع على بعد 50 كلم من الجنوب الشرقي للقل الصوف، الجلود، الشمع، العسل، الزيوت، الفلين[1].

كما تتميز منطقة القالة بخصوبة تربتها ووفرة المياه فيها[2]. وعلى العموم فقد تميزت السهول الساحلية كبجاية، وجيجل، والقل، وعنابة[3] بإنتاج مختلف الخضروات كالبصل والثوم واللفت، والجزر والخيار[4].

كما كانت هناك زراعات أخرى التي تعتبر نادرة كالقطن بنواحي الحضنة وسطيف والتبغ بمناطق الأوراس والهضاب العليا وواد سوف[5] وعنابة[6] وحتى على كامل سواحل إفريقيا[7].

بالإضافة إلى ذلك هناك التوابل كالزعفران والكمون والكروية ببطون الأودية بالأوراس وكذلك قصب السكر[8] بنواحي قسنطينة وعنابة وواحات الصحراء.

وهناك زراعات أخرى كالخشخاش أو الكيف الذي كان ينتج بالساحل والمنطقة الجنوبية لواد سوف[9].

ج ـ الأشجار المثمرة وغير المثمرة

وجدت في المناطق الجبلية وأراضي الفحوص القريبة من مدن قسنطينة وعنابة وميلة والمسيلة وبجاية وجيجل وسطيف[10]. ومن أنواع هذه الأشجار: التين، الكروم، الرمان، الخوخ، التفاح، الإيجاص، البرقوق، المشمش، الزعرور، الكرز، البرتقال والليمون[11].

---

[1]- Ibid, p. 104.

[2]- Feraud Ch : Histoire des villes…..la calle…, Op cit, p. 29.

انظر كذلك قشاعي: المرجع السابق، ص 11.

[3]- بوعزيز، يحي: المرجع السابق، ص 307.

[4]-De Paradis, V : Op cit, p. 24.

[5]- قشاعي، فلة: المرجع السابق، ص ص 11-12.

[6]- De Paradis, V : Op cit, p. 24.

[7] - De La Malle, Op cit, p. 70

[8]- ذكر دولمال أنه كانت هناك محاولات قد تم القيام بها لتربية دودة القز وأعطت نتائج مشجعة. وقد ذكر حادثة طريفة فسّر بها عدم تطور هذه الزراعة في إفريقيا، فاعتمادا على روايات سكان البلاد ذكر أن إنجلترا التي كانت تخشى منافسة الجزائر لمستعمراتها قد دفعت 300 ألف فرنك لأحد دايات الجزائر لتدمير أول طاحونة للسكر التي كانت تتواجد بالقرب من هذه المدينة. انظر: De La Malle,Op cit, pp.76-77.

[9]- قشاعي: المرجع السابق، ص 12.

[10]- المرجع نفسه، ص 11. انظر كذلك: مارمول: المرجع السابق، ص 381.

[11]- بوعزيز، يحي: المرجع السابق، ص 307.

وكذلك الأشجار المثمرة التي تنموا طبيعيا كالبلوط ذو الثمار الناعمة وشجرة الزيتون البري[1].

ويأتي الزيتون في الصف الثاني من بين الأشجار المفيدة التي يتم غرسها في الجزائر وكانت زراعته منتشرة بكثرة في الشرق الجزائري حيث كانت هناك مزارع جميلة له في نواحي عنابة وبجاية[2] وكانت أكبر وأكثر جمالا من تلك التي كانت في فرنسا[3].

إضافة إلى الأشجار المثمرة المسقية فقد كان إقليم الشرق الجزائري يتميز بغطاء نباتي معتبر ومتنوع كالفلين والبلوط[4] حيث تستعمل ثمارها كغذاء للسكان أثناء فصل الشتاء وفترة الأزمات والقحط، ونصح دي فونتين بغرس هذه الشجرة بفرنسا[5].

ومن أكبر فوائد هذه الثروة الغابية هي كونها مادة أساسية في صناعة السفن حيث يذكر شاو «أن القسم الكبير من ألواح الأخشاب التي تستعمل في ورشات الجزائر تأتي من المنصورية Ma,-So-Reah...»[6]. وأيضا من نواحي جيجل حيث كانت عائلة حبيلس بن عواز، العائلة العائلة الأكثر أهمية في قبيلة بني فوغال مكلفة بحراسة ومراقبة الكراستة أو الخشب الموجه للصناعة البحرية الجزائرية[7].

فقد كانت غابات بني فوغال تتمتع بجودة عالية لاحتوائها على شجر السندبان والبلوط الذي يعطى خشبا ذا جودة عالية، وهيكلا وبنية أكثر كثافة وتحملا[8]. كما كانت بجاية بها غابات كثيفة[9].

كذلك كانت الكراستة التي تمون الورشات التابعة للبحرية بالمواد الأولية تابعة إلى سلطـــة آل المقراني[10].

وكانت الصناعات الخشبية هي أحد العناصر الاقتصادية التي ساهمت في عظمة نسب

1- Desfontaine : Op cit, p. 262.
2-Ibid, pp. 294-295.
3- De La Malle : Op cit, p.77.
4- Desfonatine : Op cit, p. 262. Voir aussi : Peyssonel : Op cit, pp. 272-273.
5- Desfontaine, Op cit, p. 307.
6- Shaw : Op cit, p.114.
7- Feraud, Ch: Histoire des villes…. Gegelli…, Op cit, p. 85.
8- Filali : L’Algérie mystique…, Op cit, p. 120.

9 ــ مارمول: المرجع السابق، ص 377.

10- Filali : L’AIgérie mystique… Op cit, p. 120.

المقراني[1].

وكانت الفائدة الوحيدة للبايلك من كل هذا تشغيل الورشات البحرية اللازمة والأساسية لأنشطة "القرصنة" وكانت هذه الأوطان توفر المادة الأولية لذلك النشاط، ونشير في هذا الصدد إلى وجود وثيقة تحدد المبيعات الموجهة للمقر العام للبحرية حيث كانت هناك طلبية قام بها وكيل الحرج تشير إلى 10 صندان (1 صندان = 10حمولات من الخشب)، وحصل على إثرها المقراني مباشرة على المال من نقيب المهنة لأتراك جيجل مصروفة من قبل أميرال البحرية[2].

كما تميزت منطقة عنابة بوفرة الأخشاب التي تعتبر من المواد المصدرة، وهي في مجملها تجلب من المناطق الغابية المحيطة بها مثل غابات إيدوغ وبني صالح والقالة وسيبوز وقد امتازت أخشاب هذه المناطق بجودة أنواعها وملاءمتها لصنع السفن الشراعية[3].

أما الأشجار التي تميز الصحراء فهي النخيل التي تنتج التمور بوفرة وتعتبر الغذاء الرئيسي لأهل المنطقة[4].

ولا تقتصر أهمية الغابة في إقليم الشرق الجزائري على مستوى أصحاب السلطة بل تلعب دورا كبيرا في حياة سكان الريف الجبليين عموما كالرعي وحطب التسخين وفي التصنيع اليومي حتى أنهم رفضوا بعد الاحتلال استبدال أراضيهم الواقعة بين الغابات بأخرى في السهول[5].

د ـ الرعي وتربية الحيوانات

وتعتبر من الأنشطة الاقتصادية الأساسية في الشرق الجزائري إضافة إلى الزراعة وتختلف أولويتها حسب طبيعة المناطق فهي تعتبر نشاطا رئيسيا، إذ خصص داخل بلاد الجزائر للرعي درجة أكبر من الفترة الموالية تحت حكم الفرنسيين[6]، في مناطق الهضاب العليا والمناطق السهبية[7]، بينما يعتبر نشاطا مكملا في المناطق الشمالية[8] وتتجلى أهمية هذا النشاط الاقتصادي في عدد رؤوس المواشي فرغم وجود صعوبة قي تقديم إحصائيات دقيقة لأعداداها، بسبب كثرة الحروب

1- Idem.
2- Idem.

3- سعيدوني: ورقات جزائرية...المرجع السابق، ص 514.

4- Desfonatine : Op cit, p. 265.

انظر كذلك: فركوس: المرجع السابق، ص 9.

5-Noushi : Enquête sur le niveau…., Op cit, p. 61.

6- سبنسر وليم: المرجع السابق، ص 118.

7- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, pp. 56-66.

8- قشاعي: المرجع السابق، ص 14.

الاستعمارية، ومصادرة الجيش الفرنسي لها[1] إلا أنه حسب إحصائيات عام 1845 ذكر أن هناك 346004 رأس من الأبقار، 2310036 رأس من الأغنام، 311767 رأس من الماعز، 90636 رأس من الخيل، 76723 رأس من البغال، 269087 رأس من الجمال[2].

ويعتبر البدو الرحل أصحاب أكبر عدد لرؤوس المواشي خاصة الأغنام كما تنفرد قبائل معينة بالنصيب الأكبر من الثروة الحيوانية، فالنمامشة الذين يصل تعدادهم إلى 20000 يملكون حوالي 32000 رأس غنم، و7000 حصان و2000 بغل و1000 من الماعز و1000 بقرة و80000 جمل.

والحراكتة الذين يصل تعدادهم إلى حوالي 30000 نسمة يملكون أكثر من 350000 رأس غنم و65000 جمل، 5600 حصان و1000 من الماعز و1000 من البغال[3].

وقد نتج عن هذا النشاط ـ أي الرعي وتربية الحيوانات ـ عدة مواد استهلاكية وأخرى تدخل في الصناعة، كإنتاج الزبدة المملحة ولحم البقر والخروف المحضر والمحفظ في منطقة عنابة كما كانت قسنطينة والقل تنتجان كمية كبيرة من جلود الماعز تحضر وتكون بألوان مختلفة وأقمشة من الصوف تستعمل كلباس[4] كما تنتج منطقة القل وبجاية مختلف جلود الأبقار والماعز[5].

وقد استعمل جزء من هذا الإنتاج في التبادل التجاري مع الفرنسيين حيث ذكر بايسونال أن الصوف والجلود من بين المواد التي تتاجر فيها الشركة الفرنسية[6].

هـ ـ الثروة المعدنية والصناعات اليدوية

يزخر إقليم الشرق الجزائري بثورة معدنية معتبرة منها الحديد[7] وكذلك الرصاص[8] ومعدن ومعدن حمض الكبريت[9] والرخام والفحم.

وتتوزع هذه المعادن على كامل الشرق الجزائري إذ يوجد الحديد في سلسلة الجبال التي تمتد من طبرقة حتى بونة[10] وتحتوي منطقة القالة على مناجم الحديد، النحاس والرصاص الفضي[11]، كما يوجد الرصاص في جبال بني بوطالب التي تقع على بعد 7 مراحل في جنوب ـ جنوب غرب

1- بوعزيز يحي: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية الدولية، الجزائر، د. م.ج، 1949، ص 326.

2- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 54

3- Ibid, pp. 54-55.

4- De Haedo, Diego : La vie à Alger les années 1600 : Topographie et histoire générale d'Alger, Trad , et notes de A. Berbrugger et D. Monnereau présentation de Abderrahmane Rehabi, Alger, Edition grand Alger livres (Ex.M.LP), 2004, p. 104.

5- Ibid, p. 241.

6- Peyssonnel : Op cit, p. 277.

7- De La Malle : Op cit, p.123.

8- Ibid, p. 85.

9- Idem.

10- Ibid, p. 123.

11- Feraud, Ch : Histoire des villes, la calle… p. 29.

سطيف[1]، أما حامض الكبريت فإنه يوجد في المنابع الساخنة لحمام المسخوطين بين قسنطينة وقالمة[2].

أما الرخام فيعتبر في مقدمة المعادن التي توجد في الشرق الجزائري[3]. أما الفحم فيتواجد في غابات القبائل الغنية حيث أصبح عدد من الموانئ تسمى باسم المادة التي يتم تصديرها مثل الفحم: مرسى الفحم[4] Cap Carbon - Mars Al-Fahm. وقد أشار إليه شاو وحدد موقعه وسماه بميناء زفون[5]Zuf-foone. وهناك كذلك رأس الحديد[6] أو Cap Ferro وقد حدد شاو موقعه[7].

ولقد أدى وجود كل هذه المعادن إلى ظهور صناعات حيث برع سكان مقاطعة قسنطينة في استخدام هذه المعادن وأشار شاو إلى أن سكان منطقة بجاية يقومون بتجارة الأدوات الحديدية وأواني أخرى من الحديد الذي يستخرجونه من الجبال المحيطة[8] "كانت الموجودات الأساسية لمعدني الحديد الحديد والرصاص في بلاد القبائل، كما كانت هناك محتويات لأنابيب القرميد والفلوريد وصخر الملح...[9]".

كما أن سكان جبال القل يصنعون البارود والفولاذ[10] وصناعة البنادق والسيوف بالإضافة إلى صناعات أخرى مرتبطة بثروات طبيعية غير معدنية أو حيوانية كالصناعات الخشبية، تحضير الفحم، صناعة السفن[11] والصناعة الجلدية كالسروج والأحزمة والأحدية الجلدية والأقمشة وكانت قسنطينة _ عاصمة البايلك _ مركزاً هامًّا لهذه الصناعات التقليدية حيث عرفت تطورا من حيث الكمية والنوعية[12] فقد ذكر دي بارادي أن عدد دكاكين الأقمشة في عهد صالح باي وصل ما بين

1- Ibid, p. 80.

2- Feraud, Ch : Document pour servir l'histoire de Phillipe ville…Op cit, p. 104.

3- Ibid, p. 80.

4- Filali, K : L'Algérie mystique…, Op cit, p. 120.

5_ ذكر شو أن سبب تسميته بمرسى الفحم يعود إلى الكمية الكبيرة التي تنقل منه إلى الجزائر العاصمة. انظر : Shaw : Op cit, p. 111.

6- Ibid, p. 117.

7- يبعد حوالي 12 فرسخا (Lieu) من شرق الرؤوس السبع التي تشكل حسب رأيه أقصى شرق خليج شتورة. انظر: Shaw : p. 112

والمرحلة عبارة عن قياس قديم للمسافة يقدر بحوالي 4 كلم، أما المرحلة البحرية Lieu marin فهو 3 أميال أو 5555.5 متر. انظر :

Le petit Robert: Dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, Paris, 1990, p. 1094.

والمرحة كذلك: ج مراحل، وهي المسافة التي قطعها المسافر في يومه، انظر : المنجد في اللغة والإعلام، بيروت، دار الشرق، توزيع المكتبة الشرقية، 1988، ص 253.

8- Shaw : Op cit, p. 112.

9- سبتسر وليم: المرجع السابق، ص 118.

10- De La Malle, D : Op cit, p. 86.

11- قشاعي: المرجع السابق، ص ص 16-17.

12- المرجع نفسه، ص ص 16-17.

10 و12 بعد أن كان عددها 02 قبل حكمه[1]. كذلك وجد في قسنطينة صناعات أخرى كالصناعات الحديدية والخشبية[2].

و ـ التجارة

1 ـ التجارة الداخلية

لقد كانت التجارة الداخلية في الشرق الجزائري تنقسم إلى نوعين تجارة تتم في المدن وأخرى في الريف، رغم أن نوشي يربطها بالمدينة ويقر بصعوبة وجودها في الريف، وعلى هذا فقد ذكر أن هناك إشارات لوجود نشاط تجاري ريفي أي وجود أسواق ريفية[3].

وتكون التجارة في الريف بين القرى والمداشر ولها أسواق دورية بعدد أيام الأسبوع[4]، فقد نشأت عند مفترق الطرق وعند اتصال مناطق مختلفة تسمح للسكان بمقايضة بضائعهم[5]، فعلى سبيل المثال كان لكل قبيلة في منطقة القل سوق ينعقد مرة في الأسبوع[6]، إضافة إلى دوره التجاري كان له أدواراً سياسية واجتماعية[7].

أما التجارة في المدن فقد كانت تتم في قسنطينة، بونة، القالة، القل، سطيف وتبسة[8]، وكانت أسواق سطيف وتبسة تتميز بالنشاط ولكن أقل من سوق قسنطينة الذي كان يعتبر الأكثر أهمية[9] فقد كانت قسنطينة تعتبر مركز لشبكة من الطرقات تتصل ببونة، سكيكدة، القل، تبسة، وبسكرة[10] سمح بوجود نشاط تجاري مع هاته المدن[11].

كما كان هناك كذلك تبادل تجاري بين البدو الرحل وسكان الشمال وتكون في الربيع يبيعون فيها منتجاتهم من تمور وأقمشة مصنوعة في الصحراء مقابل الحبوب أو أدوات حديدية[12].

وقد شجع البايات التجارة الداخلية حيث كان شيخ العرب يشرف بصفة شخصية على أكبر تظاهرة اقتصادية التي كانت تقام بواد العثمانية غرب مدينة قسنطينة. وقد جذب هذا التوجه مختلف

1- De Paradis, V : Op cit, p. 33.
2 - Mercier, E : Constantine avant la conquête française, in R.S.A.C, T. XIX, 1878, pp. 50-51.
3- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p.118.
4- بوعزيز، يحي: الحالة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي...، المرجع السابق، ص 313.
5- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p 118.
6- Feraud, Ch : Document pour servir l'histoire de phillipe ville, Op cit, p. 96.
7- كانت قبيلة ما تستقبل القبائل التي هي في حالة سلم أو هدنة معها، كذلك كانت تعالج في الأسواق كل القضايا العامة أو الخاصة كما ينتقل القضاة القضاة إليها للحكم في الخلافات حول الملكية أو حول الاتفاقيات التجارية.
8- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 126.
9- Ibid, p. 123.
10- Idem.
11 - Noushi : Constantine à la veille de la conquête…, Op cit, p. 378.
12- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 56.

القبائل للاتجار بأحواز قسنطينة[1]. وقد كان الهدف من ذلك فرض سلطتهم على الأرياف، كجباية الضرائب، وحصار القبائل المتمردة لمنعها من دخول تلك الأسواق ومحاولة حصارها[2].

2 ـ التجارة الخارجية

لقد كان للموقع الجغرافي لمقاطعة قسنطينة، المطل على البحر في الشمال والمحادي للحدود التونسية والممتد جنوب في الصحراء أثره في ازدهار التجارة وتنوعها حيث كانت برية (شرقية ـ جنوبية) وبحرية (شمالية) مع الدول الأوروبية وخاصة فرنسا[3].

وقسنطينة كعاصمة للبايلك لها علاقات تجارية مع الخارج عن طريق تونس وعنابة[4].

إذا فقد تميزت التجارة الخارجية لإقليم الشرق الجزائري بنوعين: تجارة برية وتجارة بحرية.

2ـ1 ـ التجارة البرية

تتمثل في تجارة القوافل وتتم بين مدن الشمال وأسواق وواحات الصحراء الكبرى في النيجر ومالي وإفريقيا الوسطى والسينغال وتوات والسودان الغربي حتى إلى مدينة تمبكتو[5] وكذلك تتم من الشرق إلى الغرب والعكس حيث كان سكان مدينة تقرت يسيرون بقوافلهم نحو بلاد الجريد التونسية كذلك إلى ليبيا والحجاز[6].

وكان هذا التبادل يتم منذ قرون خلت وكانت مدينة قسنطينة محطة مهمة لهذا التبادل[7] حيث تنطلق وتنتهي عندها القوافل[8].

إذا فحركة القوافل في الشرق الجزائري تتم عن طريق محورين:

الأول: شرق غرب أو غرب ـ شرق.

الثاني: شمال ـ حنوب، جنوب ـ شمال.

وتتبع قوافل المحور الأول المسار الآتي :

1- معاشي: المرجع السابق، ص 181.

2- السايح: المرجع السابق، ص 16.

3- فركوس: المرجع السابق، ص 10.

4- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 126.

5- بوعزيز: الحالة الاقتصادية والاجتماعية...، المرجع السابق، ص 316.

6- معاشي: المرجع السابق، ص 183.

7- توجد في قسنطينة (المدينة العتيقة) ساحة تسمى رحبة الجمال تتوقف فيها القوافل الآتية من الجنوب والشرق ومازالت التسمية مستعملة إلى الآن.

8- كانت تنطلق من قسنطينة مرّة كل شهر قافلة نحو تونس، تضم 300 بغل. انظر :

Noushi : Constantine à la veille…, Op cit, p. 377.

ـ قافلة تونس إلى الكاف، قسنطينة وسطيف، برج حمزة الجزائر ـ وهران وتلمسان إلى فاس ومراكش.

ـ قافلة نفطة واد ميزاب إلى الأغواط ـ بوسعادة ـ قسنطينة ـ الكاف إلى تونس والعكس خلال العودة.

ـ قافلة واد سوف إلى غدامس وطرابلس.

ـ قافلة ورقلة إلى غدامس وطرابلس[1].

وكان البوني يسيرون طريق شمال شرق المؤدي إلى تونس، وأولاد ناجي يتحكمون في طريق جنوب شرق المؤدية إلى ليبيا، وأولاد سيدي بوطالب بتبسة كانو يقومون بحماية القوافل التي تتجه من قسنطينة إلى تونس[2].

أما قوافل المحور الثاني فتتبع محور شمال ـ جنوب ـ جنوب ـ شمال كالآتي:

ـ طريق سكيكدة ـ قسنطينة إلى أمقيد والهقار، وتمبكتو ويمر بباتنة ـ بسكرة ـ تقرت ورقلة ـ والبيوض، وأمقيد تيميساو ـ إيفراون ـ مبروك ـ تمبكتو أو إلى سوبوروح (برنوح).

ـ ولهذا الطريق فرع يبدأ من بسكرة ويتجه إلى واد سوف، ومن هناك إلى غدامس وغات وحيادو، وبلما واقاديم وماو[3].

ـ وكانت هذه القوافل تنقل مختلف البضائع منها مسحوق الذهب وريش النعام والتمور والعبيد الموجهين للأعمال التي لا تتطلب المهارة[4].

وقد أولى البايات أهمية كبيرة لتجارة القوافل حيث أنهم لم يفرضوا أي قيد على التجارة البرية مع تونس وليبيا إضافة إلى هذا فقد شجعوا التجارة مع تونس لأنها تدر على البايلك أموالا طائلة[5].

2 ـ 2 ـ التجارة البحرية

لقد توفرت عوامل عديدة أدت إلى ازدهار التجارة البحرية في إقليم الشرق الجزائري منها:

ـ توفر ساحل إقليم الشرق الجزائري على موانئ عديدة ونشيطة. ففي نهاية القرن السادس عشر كان نشاط معظم الموانئ الجزائرية منعدما ماعدا موانئ الشرق الجزائري الذي تتواجد فيه موانئ بجاية ـ جيجل ـ القل ـ عنابة ـ حيث انحصرت فيهم المبادلات التجارية.

---

[1]- بوعزيز يحي: الحالة الاقتصادية والاجتماعية...، المرجع السابق، ص 316.

[2]- Filali, K : L'Algérie mystique…, Op cit, p. 114.

[3]- هلال عمار: الطرق الصوفية ونشر الإسلام في غرب إفريقيا السمراء، الجزائر، م.و.ف.م، ص 73.

[4]- سبنسر: المرجع السابق، ص119. انظر كذلك : عمري الطاهر: المرجع السابق، ص 223.

[5]- معاشي: المرجع السابق، ص 183.

ـ غنى إقليم الشرق الجزائري من الناحية الفلاحية والرعوية وكذلك وجود سلع ذات أهمية كبيرة للتصدير كالمرجان[1].

ـ وجود علاقات قديمة بين بعض مدن الإقليم والأوروبيين كالقالة وعنابة[2] وقد أدى ذلك إلى ازدهار هذه المدن، فقد تحدث شاو عن عنابة بقوله "يمكن اعتبار هذه المدينة بكل بساطة الأكثر ازدهارا في البربرية". ولم يقتصر التبادل التجاري على هاتين المدينتين فقط بل تعداهما إلى موانئ أخرى كسكيكدة والقل[3]. وكانت هذه المبادلات تتم عبر مصارف الشركة الملكية الإفريقية (La compagnie royale d'Afrique) التي أضحت نافذة لمقاطعة الشرق على البحر والعالم الخارجي[4].

ـ سهولة الاتصالات حيث يقابل موانئ الشرق الجزائري موانئ الجنوب الفرنسي كموانئ مرسيليا، طولون، سيوتات Ciotat، وكاسيس[5] Cassïs وقد أدى هذا إلى انحصار العلاقات والمبادلات التجارية بين موانئ الجنوب الفرنسي وموانئ بايلك الشرق[6].

وقد أصبحت المدن التي تتواجد فيها هذه الموانئ كالقالة وعنابة والقل، سطورة، جيجل مراكزاً لتجميع الإنتاج وتصديره إلى أوروبا[7] وأصبحت كذلك مصدرَ عيشٍ لمدن داخلية كقسنطينة، سطيف وتبسة[8].

إذا فقد تميز إقليم الشرق الجزائري عن باقي أقاليم الجزائر الأخرى بوجود علاقات قديمة تربطه بالأوروبيين خاصة أشار إليها كل الكتاب من رحالة ومؤرخين وخاصة بمنطقة عنابة والقالة اللذين أشار إليهما هايدو Haedo "بحصن الفرنسيين" حيث يتواجد شرق بونة، ويوجد فيه فرنسيون من مرسيليا يدفعون ضريبة سنوية لصيد المرجان[9] وأشار إليهما دوبا رادي بالشركة الإفريقية[10]

---

[1] - غطاس عائشة: العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619-1694)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، 1984، ص 103.

[2] ـ ذكر إرنست مرسييه أن التواجد الفرنسي في الجزائر قبل 1830 كان ممثلا بموظفي القنصلية والأسرى المسيحيين وكذلك مؤسسات الصيد والتجارة في القالة الذي كان يسمى "حصن فرنسا". انظر :

Mercier, E : L'Algérie est les questions algériennes…, Op cit, p. 113.

[3]- Shaw : Op cit, p. 119 et voir p.122.

[4]- Noushi: Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 118.

[5] - غطاس عائشة: المرجع السابق، ص 104.

[6] - المرجع نفسه، ص 101.

[7] - قشاعي: المرجع السابق، ص ص 21-22.

[8]- Noushi : Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 118. Voir aussi : Noushi : Constantine à la veille…, Op cit, p 380.

[9]- De Haedo : Op cit, p. 241.

الإفريقيـــة[1] La Compagnie d'Afrique.

تعود بداية هذه العلاقات إلى سنة 1604 حيث قامت مجموعة من التجار أثناء حكم هنرى الكبير وتحت حمايته بعقد معاهدة مع ديوان الجزائرللصيد الحر للمرجان والتجارة ببضائع الجبال مقابل مبلغ كبير من المال بالإضافة إلى مجموعة من الامتيازات منها الإقامة في الموانئ البحرية لهذا الساحل وممارسة الديانة بحرّية[2].

أما شاو فيذكر أنه للتمتع بهده المزايا فإنهم يدفعون كل سنة إلى حكومة الجزائر وقايد بونة وقادة العرب 30 ألف إيكو Ecus أي ما يعادل خمسة آلاف جنيه من العملة الإنجليزية[3].

من هنا نرى أنه لم يكن الباي هو المستفيد الوحيد من وجود الحصن بل القبائل المتواجدة في الجوار وعلى رأسها أحرار الحنانشة[4] ولدى لم يكن من الغريب أن يثور الحنانشة ضد الأتراك سنة 1638 لأنهم قاموا بتدمير الحصن والذي يضر بالتجارة مع القبائل الموضوعة تحت حمايته[5].

وقد تم نقل الحصن من مكانه الأول إلى مكان أكثر شرقا لأسباب عديدة منها الهواء غير الصحي بسبب المستنقعات التي تحيط به[6] وكذلك بسبب الحرب مع الأتراك[7].

ولكن على الأرجح كان سبب الانتقال هو الوضع غير الصحي حيث أنه في صيف أحد السنوات لم يبق من بين 400 رجل إلا 6[8].

وعلى العموم فقد كانت لهذه المنشأة أثرها البالغ في كثافة التبادل التجاري بين إقليم الشرق الجزائري وأوروبا وقد أدى ذلك إلى وجود علاقات إنسانية نتيجة لاستيطان هؤلاء التجار وقد مثل هذا استثناءً في أيالة الجزائر و لم تقتصر المبادلات على المرجان بل تعدته إلى سلع أخرى خاصة بعد أن جاوزت الشركة امتيازاتها الرسمية المتمثلة في صيد المرجان[9] إلى استيراد سلع أخرى كالصوف، الجلود والشمع[10] من القبائل لتقوم بتصديرها لأوروبا[11].

وسوف نستعرض هذه المبادلات بنوع من التفصيل:

---

[1]- De Paradis : Op cit, p. 21.
[2]- Peyssonel : Op cit, p. 270.
[3]- Shaw : Op cit, p. 122.
[4]- معاشي: المرجع السابق، ص 184.
[5]- Feraud : Histoire des villes…..la calle, Op cit, p. 38.
[6]- يذكر شو أنه تم الانتقال إلى القالة في خليج يبعد 3 مراحل شرقا ويتفق معه بايسونال في ما ذهب إليه.
[7]- Peyssonel : Op cit, p. 313.
[8]- De La Malle : Op cit, p. 142.
[9]- معاشي: المرجع السابق، ص 184.
[10]- Shaw : Op cit, p. 122. Voir aussi : Peyssonel : Op cit, p. 277.
[11]- معاشي: المرجع السابق، ص 184.

2 ـ 3 ـ الصادرات

2 ـ 3 ـ 1ـ المرجان: ويعتبر من بين أهم صادرات إقليم الشرق الجزائري حيث كان يعتبر نشاطا أساسيا[1] ويتم تصنيعه بأشكال مختلفة[2] وكان المادة التي أثارت اهتمام أولى الشركات التي تأسست بالشرق الجزائري[3] وقد شكل فرعا من فروع التجارة الدولية مما جعله يحظى باهتمام أغلب التجار الأوروبيين[4].

وهذان جدولان يمثلان كمية المرجان المصدر في القرن السادس عشر والثامن عشر :

القرن السادس عشر

السنــــة	الكميــــة
1559	21748 رطلا
1560	33805 رطلا
1580-1579	44051 رطلا
1581-1580	21601 رطلا
1582-1581	3133 رطلا
1583-1582	23823 رطلا
1583	20752 رطلا
1584	18391 رطلا
1585	20038 رطلا
1586	19765 رطلا[5]

القرن الثامن عشر: أما إحصائيات القرن 17 فغير موجودة[6]

السنــــة	الكميــــة
1707	24000 رطلا
1718	15600 رطلا
1726	15000 رطلا
1785	8970 رطلا
1786	8870 رطلا
1787	6890 رطلا

1-De Haeodo : Op cit, p. 241.
2- De Paradis : Op cit, p. 21.

3- غطاس: المرجع السابق، ص 105.
4- المرجع نفسه، ص 105.
1 ـ المرجع السابق، ص 108.
6ـ المرجع نفسه، ص 109.

8220 رطلا	1788
8190 رطلا	1789
2080 رطلا	1790
6370 رطلا[1]	1791

2 ـ 3 ـ 2 ـ الجلود: وتعتبر كذلك من المواد التي تكتسي أهمية كبيرة في الصادرات وهذا نتيجة للثروة الحيوانية إذ تميز بايلك الشرق الجزائري عن نظيريه بوفرة الثروة الحيوانية[2].

وكان يصدر من موانئ سكيكدة، القل[3]، بجاية، عنابة والقالة، وكانت مدينتا عنابة والقل في مقدمة المصدرين بـــ 20 ألف جلد سنويا وحتى أن البعض ذكر 70 ألف جلد، أما الحصن فكانت حصته مابين 3 آلاف إلى ستة آلاف جلد[4].

جدول يوضح بعض كميات التصدير

السنـــــة	المكـــــان	الكميـــــة
1575-1582	المؤسسة الفرنسية	75974 وحدة
1582-1591	المؤسسات الفرنسية	86000 وحدة
1591-1594	المؤسسات الفرنسية	27789 وحدة

السنـــــة	المكـــــان	الكميـــــة
المعدل السنوي	عنابة	20 000 وحدة
	القل	20 000 وحدة
	القالة	6000 وحدة
	الحصن	300 وحدة[5]

2 ـ 3 ـ 3 ـ الحبوب: ومنها القمح فقد كان يعتبر من المواد الأساسية التي ترتكز عليها معيشة السكان ولهذا فلم يكن تصدير الحبوب مسموحا به خارج الجزائر إلا ابتداء من سنة 1679 والتي كانت بشروط من حيث الكم والغاية ويتمثل ذلك في :

1- بالنسبة لإحصائيات القرن السابع عشر ذكرت الباحثة غطاس أنها غير متوفرة نتيجة لعدم توفر الوثائق.

2- المرجع نفسه، ص 111.

3- Shaw : Op cit, p. 122. Voir ausi : Peyssonel : Op cit, p. 277.

4- غطاس: المرجع السابق، ص 111.

5- المرجع نفسه، ص 113.

ـ يسمح بتصدير حمولة مركبين لتموين عائلات التجار المقيمة بمرسيليا و لم يسمح بتصدير القمح بصورة رسمية لتموين فرنسا إلا في سنة 1714[1].

ولكن لا يعني هذا أنه لم يكن هناك تصدير قبل ذلك التاريخ فقد كان يحق للشركة بفضل امتياز قديم أن تحصل على 500 كافي Caffis[2] من بونة بثمن السوق، وقدمنحت هذه الكمية من ناحية المبدأ لإطعام البحارة صائدي المرجان بالقالة[3].

ومن بين الوسائل التي اعتمدتها الشركات الفرنسية لتصدير القمح قبل أن يرخص لها هي أساليب التقرب من الحكام بواسطة منح الهدايا إلى البايات وأعوانهم كما كانت تعطى صلاحيات تحديد الأسعار إلى البايات[4]، حتى أنهم لم يكتفوا بذلك إذ شاركوا في هاته التجارة منهم بايات قسنطينة ومعسكر الذين يشترون القمح بثمن ويعيدون بيعه للأكثر دفعا[5].

ومن المناطق التي اشتهرت بتصدير القمح منطقة الحصن التي تصدر سنويا مابين عشرة إلى إثني عشر ألف قيسة[6] أما مدينة عنابة فكانت تصدر حوالي 20 ألف قيسة كمعدل سنوي[7].

وقد ذكر دي بارادي أنه عندما يكون محصول جيد تكون في عنابة حمولة لــ39 سفينة من الحبوب بينما تكون 26 في أرزيو و3 أو 4 في دلس[8].

وهذا جدول لمعدل تصدير القمح خلال القرن السابع عشر من طريق المؤسسات الفرنسية

المكـــــان	الكمية بالكلية "تساوي ثلاثين صاعا"	الكمية بالصاع الجزائري
القالـــــة	30 إلى 40 ألف	12000.00
عنابـــــة	20 ألف	6000.00
الحصـــــن	10 إلى 12 ألف	360000
المجمـــــوع	الحد الأدنى 60 ألف كيلة الحد الأقصى 72 ألف كيلة	1800.00 2160.000[9]

1- المرجع نفسه، ص ص 114-115.

2- يساوي الكافي : ثلاث كيلات ونصف وزنه مرسيلية أو ما يعادل 120 كلغ ويقدر سعر الكافي الواحد بسبع ريالات.

3-De Paradis : Op cit, p 21.

4- غطاس: المرجع السابق، ص 117.

5- De Paradis : Op cit, p 22.

6- تساوي القيسة أو الكيلة ثلاثون صاعا.

7- غطاس: المرجع السابق، ص 118.

8- De Paradis : Op cit, .pp. 21-22 .

9- غطاس: المرجع السابق، ص 119.

2 ـ 3 ـ 4 ـ الصوف: من المواد التي كانت تصدر والتي لم تبلغ أهميتها أهمية المواد التي ذكرناها سابقا، إذ لم يكن حجم تصديرها كبيرا بسبب حاجة السكان لهذه المادة وكذلك توفرها في فرنسا نفسها وكانت عنابة مدينة اشتهرت بثرواتها الحيوانية(1) حيث تصدر منها الشركة الإفريقية من 10 إلى 12 قنطارا وفي 1707 حصلت الشركة على 25000 قنطار(2)، وباعت الشركة الملكية الإفريقية 16000 قنطار من الصوف(3).

2 ـ 3 ـ 5 ـ الشمع: وكان تصديره يتم في إطار محدود جدا ويخضع شراؤه لضريبة تدفع للسلطات المعنية ويصل المعدل السنوي للتصدير إلى 900 قنطار وبلغ 725 قنطارا سنة 1785 و169 قنطارا سنة 1791(4).

2 ـ 3 ـ 6 ـ الزيت: وكان ميناء بجاية مصدرا أساسيا لتصدير زيت الزيتون[5] حيث كان يمنح حمولة أو حمولتين من الزيت(6).

2 ـ 3 ـ 7 ـ الخيول: وكانت من المواد التي تصدر إلى الخارج(7) وكان تدفع ضريبة عليها تقدر بخمس سعر الشراء قدرت بـــ 13 عشر بياستر(8)، ومن أهم مراكز تصدير الخيول منطقة الحصن(9).

ز ـ قوة إقليم الشرق الاقتصادية

لقد كان لخصوصيات إقليم الشرق الجزائري (الجغرافية ـ السكانية ـ الاقتصادية) أثرها على غناه. وقد انعكس ذلك على قيمة الضريبة وحتى على خصوصيتها (من حيث قيمتها وشكلها) وهذه خصوصية أخرى تضاف إلى خصوصيات إقليم الشرق الجزائري وخاصة في عهد أحمد باي بعد احتلال الجزائر العاصمة حيث ذكر نوشي "أن هذه الميزة زادت من تفرّد وغرابة وتميز المقاطعة بالمقارنة مع البايلكات الأخرى للأيالة"(10).

إذا تعتبر الضريبة مظهرا على ثراء المقاطعة حيث يذكر شـــاو "أن الضريبة التي يدفعهـــا

---

[1] - المرجع نفسه، ص 121.

[2]- De Paradis : Op cit, p 18 .

[3] - Noushi Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 124.

[4] - غطاس: المرجع السابق، ص 122.

[5] - سبنسر: المرجع السابق، ص 118.

[6]- De Paradis : Op cit, p. 22 .

[7] - سبنسر: المرجع السابق، ص 119.

[8] - البياستر: عملة إسبانية، تساوي 5.08 فرنك فرنسي إلى 5.58 فرنك فرنسي.

[9] - غطاس: المرجع السابق، ص 124.

[10]- Noushi: Enquête sur le niveau…, Op cit, p. 96.

إقليـــم الشرق الجزائري هي الأكثر أهمية بين المقاطعتين الأخريتين"، فباي التيطري لا يدفع إلا 12000 إيكو Ecus[1]، وباي مقاطعة الغرب الجزائري يدفع مابين 40000 و50000 بينما لا تقل مساهمة باي قسنطينة عن 80000 وفي بعض الأحيان 100000 إيكو Ecus في السنة[2].

وقد قدر شالر الضرائب على إقليم الشرق الجزائري والمدفوعة من باي قسنطينة بـــ 60000 دولار[3].

وقد أوجز الزهار مكانة الإقليم وقوته قائلا "... من حيث القوة ووفرة الرعية فلا يضاهيه باي التيطري وباي الغرب ولزمته لا تعدلها لزمتهما..."[4].

إذ كان الباي يذهب في شهر مارس إلى الجزائر بنفسه[5] أو يرسل خليفته[6]، ليقود 22 بغلا كل واحدة محملة بـــ2000 بياستر وهذا ما مجموعه 44000 بياستر[7] Piastre.

ولا يكتفى بهذا بل هو مجبر على حمل 22 بغلة أخرى في شهر سبتمبر محملة بـــ 40000 بياستر وهذه البغال تكون مصحوبة بزنجي أو حيوان متوحش[8].

وكان باي قسنطينة يذهب بـــ 50 بغلا أو حتى 60 تحمل كل واحدة منها بقيمة 2000 بياستر، ويرسل الآغا التابع له مرتين في السنة إلى مدينة الجزائر وفي كل مرة يحمل هدية بـــ 80.000 بياستر[9].

ومن مظاهر قوة إقليم الشرق الاقتصادية أن "باي معسكر يدفع في الربيع وفي سبتمبر 14000 خزنة تبغ تحمل إلى الجزائر على 7 بغال وهذا يمثل ثلث مايدفعه باي قسنطينة"[10].

---

1 ـ Ecus: عملة فرنسية تساوي 5 فرنكات ومنها قطع تقدر بـــ2 فرنك و 1.50 فرنك و 1 فرنك.. الخ.

2- Shaw: Op cit, p. 109.

3- شالر وليم: المرجع السابق، ص 59. كان حساب الدخل والخرج للخزينة في 1822 بالدولار الإسباني.

4- الزهار: المرجع السابق، ص 35.

5 ـ وهو الدنوش الكبير ويكون مرة كل ثلاث سنوات.

6 ـــ وتعتبر هذه ضريبة الدنوس يتكفل الخليفة بدفعها مرتين في السنة في الربيع والخريف. انظر: سيساوي: المرجع السابق، ص 123.

7- Peyssonel : Op cit, p. 290.

8- Ibid, p. 291.

9- Filali : Le Don : Epine Dorsale…, Op cit, p. 12.

10- Idem.

رابعًا_ أهمية قسنطينة كعاصمة للبايلك

إن تاريخ قسنطينة موغل في القدم وأهميتها لم تكن في عهد الأتراك كعاصمة للبايلك فقط، بل إلى ما قبل ذلك بكثير حيث شهدت فترات استقرار الإنسان الأولى بسبب توفر الحماية وضرورات الحياة الأخرى كالماء والغذاء والكهوف[1] التي تقبه الحر والبرد ووجود غطاء نباتي[2]. وقد أشير إلى قسنطينة منذ القديم والتي كان اسمها سيرتا من قبل المؤرخين القدماء حيث يرجع أقدم نص يشير إلى سيرتا إلى بوليبيوس[3] Polybius وكان للأحداث السياسية دورا في تلك الكتابات حيث ذكر بوليبيوس "لقد وصل سيبيوس إلى سيرتا بعد ثلاثة أيام من موت الملك ونجح في حل المشاكل بحكمة"[4].

أما ديودورس الصقلي Diodoros de Sicile فقد ذكر أحداثا سياسية أخرى "في هذه الأثناء، قام يوغرطا بتطويق مدينة سيرتا بحنذق وبحث عن كل وسيلة لإخضاع المدينة..."[5].

أما سترابون فتحدث عن سيرتا، على أنها عاصمة لمسينيسا وخلفائه ويقول أنها محصنة، وأنها مدينة رائعة... ويضيف أنها جميلة وثرية في مختلف الأشياء، وفي عهد مكوسن، يمكن أن تزود بـــ 10000 فارس و20000 من المشاة[6] ومن هنا تتضح حصانة مدينة سيرتا وقوتها العسكرية.

أما تيتيوس ليفيوس Titius Livius فقد ذكر "تعتبر سيرتا، عاصمة الفنون والذوق الرفيع"[7].

الرفيع"[7].

ومن هنا نرى أن مدينة سيرتا قد بلغت أوج التقدم والازدهار في عهد ماسينيسا ونجله مسيبسا[8].

وعراقة هذه المدينة لم تتوقف عند عصر معين بل كانت العاصمة النوميدية في كل إفريقيا القديمة استطاعت أن تحتفظ بالمكانة الأولى وقد نافستها مدن أخرى دون أن تنتزع منها مرتبتها

---

[1]- توجد بمتحف سيرتا الوطني وفي قاعة "ما قبل التاريخ" حزانتان أرضيتان لقى لهما لقى أثرية تعود إلى العصر الحجري القديم الأوسط وعظام حيوانات كوحيد القرن والحمار الوحشي والأيل والغزلان وعثر عليها بكفه الدببة والأروى بسيدي مسيد بقسنطينة.

[2]- غانم، محمد الصغير: قسنطينة عبر تاريخها القديم، مجلة العلوم الإنسانية، قسنطينة، جامعة منتوري، عدد 12، 1999، ص 133.

[3]- Berthier, A : Juillet, (Jacques) ; Charlier, (René) : Le « Belum Jugurthinum » de Salluste et le problème de Cirta, in R.S.A.C, T. LXVII, 1950, p. 123.

[4]- Polybius : Histoire générale, XV, 5, 13, Trad. Felix Bachat, Paris, librairie Adolphe Delays, pp. 265-266.

[5]-Diodoros de Sicile : Bibliothèque Historique, XXXIV. Trad. P.F. Milot, Paris, 1934.

[6]- Strabon : Géographie, XVII, 3, 13, Trad. G.A. Tardien, Paris, Hachette, 1886.

[7]-Titius Livius : Histoire romaine, XXX,12, M. Nisard, Paris, 1839.

[8]- عقون، محمد العربي: من التاريخ البلدي للجزائر القديمة في العهد الإمبراطوري الأول: الاتحاد السيرتي منذ استيلاء لسيتوس على سيرتا (46 ق.م) إلى أحداث القرن الرابع : دراسة في تاريخ وآثار ونظم سيرتا العتيقة، دكتوراه العلوم، جامعة قسنطينة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، 2004-2005، ص 2.

الأولى[1].

وقد استمرت قسنطينة لفترات طويلة كعاصمة لإقليم الشرق الجزائري أو لدولة متمركزة في الشرق الجزائري[2].

و لم تكن أي مدينة في الأيالة في مستوى مدينة قسنطينة في العهد العثماني، فالمدية مثلا في منطقة التيطري لم تكن سوى مدينة عسكرية، أما تلمسان التي كانت عاصمة للمغرب الأوسط ولكن ورغم أنها منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر م كانت مقر الأسرة الزيانية إلا أنها فقدت بعد ذلك صلاحيتها السياسية.

أما مدينة بجاية التي فرضت نفسها في العهد الحفصي كعاصمة سياسية على قسنطينة ولكنها مع هذا لم تبلغ مستوى قسنطينة كمركز ديني، أما مدينة معسكر التي كانت مكان إقامة بايات الغرب عوضت بمدينة وهران بعد انتزاعها من الإسبان.

كل هذا قد بين ديمومة وضع مدينة قسنطينة كمركز سياسي وإداري ولهذه الديمومة أسبابها التاريخية[3].

وهكذا لم تنحصر أهمية قسنطينة في الجانب السياسي فقط كمقر للسلطة الجهوية عبر العصور بل كانت مركز العلاقات التجارية بين الشرق والغرب والشمال والجنوب[4].

وقد كتب عنها مختلف الرحالة والدبلوماسيين كدي فونتين الذي وصف تضاريسها وآثارها وسكانها[5] أو الرحالة الألماني هاينريش فونمالتسان الذي وصف تاريخ إنشائها وازدهارها الاقتصادي الاقتصادي وموقعها وباياتها واحتلالها من قبل الفرنسيين[6].

كما أشار لها شالر قنصل أمريكا لدى الجزائر قائلاً "وموقع مدينة قسنطينة من أعظم المواقع ومتى أشرفت على إدارتها حكومة حكيمة، يمكن للمدينة أن تأمل في الحصول على فوائد جمة"[7].

ومن هنا نستنتج أن هناك عدة أسباب أدت إلى محافظة قسنطينة على موقعها الريادي منها

1- المرجع نفسه، ص ث.

2- قشي: المرجع السابق، ص ت.

3- Grangaud, I : Op cit, pp.243-244.

4- قشي: المرجع السابق، ص ص ب. ت.

5-Desfonatine : Op cit, pp. 216-217.

6- فون مالتسان هاينريش: ثلاث سنوات في شمال إفريقيا، ج 3، ترجمة أبو العيد دودو، ش.و.ن.ت، 1980، ص 29.

7- شالر: المرجع السابق، ص 36.

مميزاتها الطبيعية وغناها الاقتصادي حيث بقيت قسنطينة مدينة عامرة في أغلب العصور[1].

وهذا ما أدى بدي لمال إلى أن يوصي باختيار قسنطينة كعاصمة لإقليم الشرق الجزائري حيث ذكر "أن اجتماع كل هذه الظروف الإيجابية يجعل من احتلال قسنطينة والاحتفاظ بها، وإقامة القوانين والإدارة الفرنسية ومقر الحكومة للجزائر الشرقية ومحاولة صهر السكان، والاستعمار الأوروبي"[2] ويصل إلى خلاصة أنه لا توجد أي نقطة في الأيالة تمنح كل هذه الحظوظ للنجاح مثل مدينة قسنطينة[3].

وقد تأكد هذا القول بعد احتلال مدينة قسنطينة في رسالة بعث بها الجنرال نقريبي Negrier إلى المارشال فالي Valée الذي يؤكد فيها على أهمية قسنطينة[4] "... البحث عن تدمير مركزية السلطة في المقاطعة هو إلغاء تأثير عاصمتها الذي هو ضخم اليوم لأنه امتلاكها لوحدها قد أدى إلى خضوع واستسلام كل القبائل تقريبا.."[5] ومن هنا نجد أن نفود قسنطينة كعاصمة للبايلك فاق حدود المدينة[6].

وكان تعبير نقريبي عن التخلي عن قسنطينة كعاصمة للبايلك "... هو تنازل بخسارة صافية عن الإرث الذي تركه لنا الأتراك ولقوة رسخها الزمن والذي كلف تضحيات كبيرة للإنسانية"[7].

ولكي يثبت وجهة نظره ذكر أهمية قسنطينة قائلا "... قسنطينة هي أكبر عاصمة: هي المدينة الوحيدة التي نصادفها على الامتداد الشاسع للبلاد، إنها النقطة الوحيدة التي استطاعت فيها التجارة والصناعة أن تستقر..."[8].

وأبرز نقريبي كذلك نفوذ قسنطينة الاقتصادي الذي اثر في الأحداث العسكرية قائلا "الصحريون أنفسهم مجبرون على جلب أصوافهم والذي لا يمكن أن ينمو في المناطق الملتهبة التي

1- قشي: المرجع السابق، ص ص ت. ث.

2- De La Malle : Op cit, p. 146.

3- Idem.

4- لقد كتب نقريبي هذه الرسالة لأن فالي فكّر في تسليم قسنطينة إلى إقطاعي كبير وكذلك نقل عاصمة المقاطعة إلى بونة. انظر كذلك:

Iver, George : Correspondance du Maréchal Valée, Gouverneur général des possessions françaises dans le monde de l'Afrique II (Juin Décembre 1838). Gouvernement général de l'Algérie, collection de documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830, 1ère série correspondance générale, Paris, (V°) édition la Rose, 1950, p. 3.

5- Bernard, Augustin : Une lettre du Général Negrier au Maréchal Valée, in R.S.A.C, T LXIV, 1837, 1937: Constantine son passé, son centenaire, p. 154.

6- قشي: المرجع السابق، ص ج.

7-Bernard, A : Une lettre du Général…Op cit, p. 154.

8-Idem.

يسكنون فيها... و لم يحمل الصحراويون السلاح مع أحمد باي إلاّ لأنه وعدهم أنه سيقودهم في أيام قليلة لقسنطينة..."[1].

ويبدو أن ڤالي قد اقتنع بوجهة نظرا نقريي إذ في رسالة إلى وزير الحرب في 8 جوان 1838 ذكر "القسم الأكبر من سكان الصحراء الذين اتبعوا أحمد باي قاموا بإعلان خضوعهم إلى الجنرال نقريي وجاؤا للإقامة مع قطعانهم في إقليم قسنطينة..."[2].

وقد أكد كل هذه الآراء رسالة وزير الحرب إلى ڤالي في 11 جويلية 1838 "أغتنم هاته المناسبة لتذكيركم بالرأي الذي كونته قبل ذلك أن الأحداث قد أثبتت مزايا مرتبطة بامتلاك قسنطينة والإقامة في هاته المدينة مقر السلطة الرئيسية للمقاطعة، هنا مركز العلاقات القديمة والحالية من هنا يخترق التأثير والعمل."[3]

مما سبق تناوله ونظرا للمكانة التي تحتلها مدينة قسنطينة فإننا نتفهم الأسباب الموضوعية التي دفعت بإرنست مرسييه إلى الكتابة وبعمق عن هاته المدينة وتصفح مختلف أوجه الحياة فيها وهو لم يقم إلا بإعطاء هذه المدينة المكانة التي تستحقها فهو بذلك لم يكن إلا "معجبا" آخر أضيف إلى قائمة المعجبين بهاته المدينة عبر عن إعجابه وخلده في كتاباته وخاصة كتابه تاريخ قسنطينة في 730 صفحة، وخاصة وأنه سيّر وأسرته شؤون هذه المدينة لفترة طويلة.

وهكذا نرى أن خصوصيات إقليم الشرق الجزائري التي تناولناها إرنست مرسييه بالبحث والدراسة قد "أغرته" أن يخوض فيها. فصطلحات: الأكثر مساحة، والأغنى ثروة، والسكان الأكثر عددا، كانت عبارة عن عوامل ومؤثرات للكتابة عنه والاهتمام به.

---

[1]- Ibid, pp. 154-155.
[2]- Iver, G : Op cit, p. 21.
[3]- Ibid, pp. 65-66.

كان لانتقال إرنست مرسييه إلى قسنطينة تأثيراً كبيراً في كتاباته، فقد "سحرته" هذه المدينة بماضيها وموقعها الجغرافي[1]. وقد كانت مؤلفاته مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالمكان الذي تواجد فيه من أوّل موضع نزل فيه في الجزائر[2] إلى آخر مكان استقرّ به وهو مدينة قسنطينة.

وقد نتج عن الإقامة بهذه المدينة نتائج إيجابية على مسيرته الإبداعية والفكرية، يمكن أن نوجزها فيما يأتي:

ـ وجود مجلات علمية في مدينة قسنطينة كمجلة الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة التي كرّس لها وقته كلّه، فقد انتقل من مجرّد عضو سنة 1867 إلى نائب رئيس من سنة 1875 إلى 1892 إلى رئيس من سنة 1892 حتى وفاته سنة 1907.[3]

ـ توفر مدينة قسنطينة على عدد من دور النشر مكّنته من نشر كتبه، فقد لجأ لأوّل مرة إلى ناشر خاص هو مارل Marle وكان ذلك في 1874 حيث نشر فيها كتاب :

"Comment l'Afrique du Nord a été arabisée"، ثم كتاب : آخر في سنة 1875 بعنوان :

"Histoire de l'établissement des Arabes en Afrique septentrionale".[4]

كذلك سمح له وضع مدينة قسنطينة ـ كعاصمة في الفترة القديمة[5] ثم عاصمة لبايلك الشرق الجزائري في عهد الأتراك وأخيرًا عاصمة لإقليم الشرق الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي ـ من الاطلاع على كثير من الوثائق، والتعرّف على بعض الشخصيات التي عايشت الأحداث أو

---

[1] ـ بقي إرنست مرسييه مرتبطا بهذه المدينة، وذكر بيرتيي Berthier "أنه لم يبق فيها بسبب تحجر الذهن أو بسبب وفاء روتيني، ولكن بسبب نبيل نابع من القلب وقد كان سرّه، هذا السرّ يعود إلى الماضي السحري لمدينة قسنطينة". انظر:

Berthier, André : Conférence sur Ernest Mercier et l'idée d'empire : commémoration à Marseille du centenaire d'Ernest Mercier, historien de l'Afrique du Nord, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Pris, librairie orientaliste Paul Guethner, 1944, p. 119.

[2] ـ بدأ إرنست مقالاته الأولى الإثنوغرافية والأثرية عن المنطقة التي استقرّ فيها في الجزائر أوّل مرة وهي "أومال Aumal" أو سور الغزلان حاليًا وذلك في سنة 1863 و 1864 قبل التحاقه بهيئة المترجمين العسكريين الذي كان في عام 1865. كما استمرّ بالكتابة عن المنطقة بعد التحاقه بوظيفته الإدارية في المكتب العربي بسبدو.

[3] - Toutain, Jules : Ernest Mercier et l'épigraphie romaine dans l'Afrique du Nord, l'Afrique à travers ses fils. [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1944, p. 24.

[4] - Marçais : Op cit, p. 35.

[5] ـ ذكر شارل تيليارت أهمية مقاطعة الشرق الجزائري فيما يتعلق بالفترة القديمة "عندما تتجول في البلاد، نكتشف خاصة في مقاطعة قسنطينة خاصة، آثارا عديدة ومدن كثيرة ذات أهمية مع أقواس النصر، ساحات، مسارح، قنوات مياه، انظر: Tailliart, Ch : Op cit, p. 162.

كانت قريبة منها.[1] وقد مكّنه هذا ليس فقط من تناول تاريخ قسنطينة بل تاريخ الشرق الجزائري عمومًا.

لقد جسّد إرنست مرسييه "الشراهة" في الكتابة والخلط النسبي بين التخصّصات لتلك الفترة[2]، لهذا فقد تنوعت مواضيعه من تاريخية، إثنولوجية إلى المسائل الجزائرية والاستعمار،...

لهذا وبسبب كثرة المواضيع التي تناولها حاولنا التركيز على موضوعين: التاريخ والإثنوغرافيا، لأنهما الموضوعان اللذان ذكرهما إرنست مرسييه بصريح العبارة مع استعماله لكلمة "غرابة" حيث قال "هذه المقاطعة هي بالتأكيد الأكثر غرابة للدراسة من وجهة النظر الإثنوغرافية حيث نجد العنصر البربري بقي كما هو... ".[3] وقال أيضا "سكنت بقسنطينة منذ 1871، ارتبطت بعمق بهذه المدينة الغريبة جدًّا... فمنذ وصولي إلى هذه البلاد جلب انتباهي الماضي المجيد لهذه المدينة التي تعود أقدميتها إلى 300 سنة ق. م".[4]

أولا ـ الجانب التاريخي

يمكن تقسيم ما تناوله إرنست مرسييه فيما يخص التاريخ إلى ثلاثة أقسام.

أ ـ التاريخ القديم

تناول مرسييه التاريخ القديم للشرق الجزائري وذلك في مقالات نشرت أغلبها منذ أن استقرّ بقسنطينة كما أنه تطرّق إليه قبل ذلك باختصار عند حديثه عن الشعوب التي سكنت إفريقيا الشمالية ومنهم النوميديون[5] Les Numides الذين كانوا يسكنون تقريبا الرقعة الجغرافية

---

[1] ـ ذكر إرنست مرسييه في هذا الإطار أنه بذل جهوداً كبيرة لكي يتحصل من حمودة بن شيخ لفقون على مراسلاته مع فالي ولكنه لم يتمكن من ذلك، وبعد وفاته ذكر أنه استأنف المفاوضات مع ابن حمودة، وقد استمرت 12 سنة وأخيراً تحصل على 9 رسائل مقابل خدمة طلبها ابن حمودة من مرسييه. انظر :

Mercier, E : Les idées et les actes du Maréchal Valée : Les documents nouveaux, in R.S.A.C, T. XXXIV, 1900, p. 22.

[2] ـ لوكا فيليب، فاتان جون كلود: جزائر الأنثروبولوجيين؛ نقد السوسيولوجيا الكولونيالية، ترجمة محمد يحياتن، بشير بولفراق، وردة لبنان، الجزائر، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، 2002، ص 67.

[3] - Mercier, E : Histoire de l'Afrique septentrionale, T3.., Op cit, p. 549.

[4] - Mercier, E : Histoire de Constantine…, Op cit,p. V.

[5] - Mercier, E : Un mot sur les étymologies à propos de la signification de Sour El Rozlane, in R.A, T XVI, p.47.

التي تسمى إقليم الشرق الجزائري حاليا. ثم عرّف القبائل التي سكنت هذه المنطقة قبيل الفتح الإسلامي[1].

كما كتب كذلك عن تاريخ إقليم الشرق الجزائري ضمن كتب عامة وفي إطار واسع مثل كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية في ثلاثة أجزاء، تناول فيه التاريخ القديم في جزئه الأول وفي إحدى عشر فصلاً[2] من ضمنها فصول تناولت الشرق الجزائري خاصة في الفصل الثالث الذي تناول افيه لحرب البونيقية الثانية[3] وكذلك الفصل الرابع الذي تناول فيه الحرب البونيقية الثالثة ودور الملك مسينيسا فيها منذ صراعه مع سيفاقص إلى تعيينه ملكا[4]، وتناول في الفصل الخامس ملوك البربر الذين أصبحوا تابعين لروما بعد وفاة مسينيسا[5].

أما الفصل السادس فتناول فيه الحروب الأهلية في إفريقيا وتأثيرها على نوميديا الشرقية كما عرض فيه التسلسل التاريخي لملوك نوميديا[6]، أمّا الفصل السابع فتكلم فيه عن سقوط إفريقيا تحت السلطة الرومانية[7] والحروب الأهلية التي جرت فيها وانتصار قسطنطين وتحويل اسم سيرتا إلى قسنطينة.[8]

أما كتاب تاريخ قسنطينة فيعتبر الكتاب الذي عرض فيه مجمل الأخبار والحوادث التاريخية المرتبطة بمدينة قسنطينة والشرق الجزائري وهو عبارة عن مونوغرافية ضخمة[9]، بدأه منذ الفترة النوميدية حتى الاستعمار الفرنسي مروراً "بالغزوات" الرومانية، الوندالية، العربية والتركية.[10]

ويحتوي الكتاب على اثني عشر فصلاً، نصيب الفترة القديمة فيه فصلان، أما الفصل الأول الذي عنونه بـــ"الفترة الفينيقية والبربرية" فقد احتوى على 25 صفحة فقط.[11]

وقد قدّم فيه لمحة عن تاريخ قسنطينة بدأه باستعراض الموقع المتميز لمدينة قسنطينة والذي

---

1 - Mercier, E : Episodes de la conquête de l'Afrique par les arabes : les héros de la résistance berbère Kocéïla, la Kahena, in R.S.A.C, T XXII, 1882, p. 242.

2 ـ عدد صفحات الفصول الإحدى عشر في الجزء الأول من كتاب تاريخ إفريقيا الشمالية من ص 1 إلى ص 178.

3 ـ تبدأ صفحات الفصل الثالث من ص 27 إلى ص 44.

4 ـ تبدأ صفحات الفصل الرابع من ص 45 إلى ص 56.

5 ـ تبدأ صفحات الفصل الخامس من ص 57 إلى ص 70.

6 ـ تبدأ صفحات الفصل السادس من ص 71 إلى ص 82.

7 ـ تبدأ صفحات الفصل التاسع من ص 120 إلى ص 139.

8 - Mercier, E : Histoire de l'Afrique septentrionale, T 1…, Op cit, p. 125.

9 ـ ضرب عمل مرسييه هذا كمثال لمونوغرافيات المدن المصمّمة باجتهاد ودقة والتي لم تترك أي تفصيل إلاّ وتمّ ذكره. انظر : Tailliart, Ch : Op cit, p. 260.

10 - Debanne, O : Hommage à un grand algérien…, Op cit, p. 106.

11 ـ تبدأ صفحات الفصل الأول من ص 1 إلى ص 25.

ساهم بشكل كبير في استقرار السكان الأوائل في جماعات حيث قال "إنه من الصعب حقيقة أن نجد تحصينا طبيعيا يُدافع عنه جيّدًا أو يسمح بكل سهولة أن يقاوم أعداء لا يملكون أسلحة نارية" .[1]

ثم بدأ بالحديث عن الشعب الذي سكن ذلك المجال الجغرافي وأطلق عليه مصطلح "الشعب البربري" وقام بتعريفه تحت عنوان "الشعب الأصلي Peuple autochtone"، وقام بعرض حالتهم الاجتماعية كما تعرّض للفينيقيين وعرّفهم باختصار وتناول ظروف اتصالهم بالبربر[2].

بعد ذلك انتقل مرسييه إلى جانب آخر هو الجانب السياسي وذكر تقسيم الشعب النوميدي إلى قسمين:

الماسيل في الشرق وعاصمتها زاما ريجيا[3] Zama Regia، والماسيسيل في الغرب وعاصمتها سيغا Siga عند مصب التافنا.

كما ذكر ملوك هاتين المملكتين سيفاقص ملك النوميديين الذي كان حليفا للرومان في أول الأمر، وغولا أب مسينيسا الذي كان ملكا على الماسيل[4]. وفي العشر صفحات الموالية استعرض الصراع بين القرطاجيين والرومان ومحاولة كل طرف منهم كسب التحالف مع النوميديين الذين كانوا يغيّرون تحالفهم كلّ مرّة إلى أن أصبح مسينيسا وحده ملكًا لنوميديا واستقراره في سيرتا[5]، وتحدث عن دوره الحضاري حيث ذكر "حكم مسينيسا لسنوات طويلة واستدعى المعمّرين الإغريق الذين علّموا النوميديين ممارسة الفنون... " [6].

وبدأت المعلومات حول الشعب النوميدي تتوفر عند نهاية القرن الثالث ق. م[7] وذلك نتيجة للأحداث السياسية التي سبق ذكرها[8].

وبعد وفاة مسينيسا ذكر حكم ابنه مسيبسا لمدة ثلاثين سنة[9] ثم ذكر مشاكل الخلافة

---

[1] - Mercier, E : Histoire de Constantine, Op cit, p. 1.
[2] - Ibid, pp. 2-3.

[3] ـ مكان هذه المدينة يوجد في تونس جنوب مجردة.

[4] - Ibid, p. 3.
[5] - Ibid, p. 11.
[6] - Idem.
[7] - Ibid, p. 3.

[8] ـ ذكر مرسييه أنّ الكتابات التي تحدثت عن إفريقيا الشمالية والشرق الجزائري قد كتبها المؤرخون الإغريق والرومان خاصة بعد سقوط قرطاجة، وبالإضافة إلى كتابات المؤرخين كانت هناك معلومات ضمن التقارير العسكرية الرومانية. انظر :

Historique des connaissances des anciens sur la géographie de l'Afrique septentrionale, in R.S.A.C, T XVI, 1873, p. 27.

[9] - Mercier, E : Histoire de Constantine, … Op cit, pp. 14-15.

بعد استيلاء يوغرطا على الحكم[1] مما أدى إلى التدخل الروماني ثم تولي بعض الملوك النوميديين الحكم الذين جاءوا بعد سقوط يوغرطا إلى أن أصبحت نوميديا مقاطعة رومانية[2].

وفي الفصل الثاني تعرض بتفصيل دقيق وملفت للفترة الرومانية، الوندالية والبيزنطية أي حوالي ثمانية قرون من 45 ق.م إلى 648 م.

وقد بدأ هذا الفصل بذكر التنظيم الإداري الجديد حيث أصبحت نوميديا مقاطعة رومانية وعاصمتها سيرتا وأصبح اسمها نوميديا الجديدة أو إفريقيا الجديدة. وقد عيّن سالوست[3] Salluste حاكما عليها ومنح لقب برو قنصل. والجدير بالذكر أنه لدراسة الوضع القانوني الجديد لسيرتا بالتفصيل ولإثبات أفكاره لم يكتف فقط بالرجوع إلى كتب المؤرخين القدماء بل اعتمد كذلك على الآثار، فمثلا عندما طرح إرنست مرسييه سؤالاً "هل جاء واستقرّ مؤرخ حرب يوغرطا بسيرتا"؟[4] فعند إجابته على هذا السؤال فإنه رجع إلى النقوش الكتابية[5].

كذلك كان الأمر عندما تكلم عن التنظيم البلدي لسيرتا وعن الكونفدرالية السيرتية[6] التي كانت تضم أربعة مدن أساسية هي : سيرتا Cirta، رويسكادا Ruicicada، شولو Chulu، وميلاف Milev، وسميت بمستعمرة جوليا ـ سيرتا Colonia Julia cirta وتمّ وضع سيتيوس نسيرينوس Sittius Nucerinus على رأسها[7]، وقد أعطت النصوص الكتابية التي أخرجت من قسنطينة ومن كل نواحيها لإرنست مرسييه المعطيات الدقيقة والضرورية لتدعيم آرائه واستنتاجاته حول جمهوريات المستعمرات الأربع وعن التنظيم الإداري في سيرتا حيث قام إرنست مرسييه باستكشاف، ملاحظة ودراسة كل الآثار والمعالم القديمة المحفوظة في قسنطينة وضواحيها من بنايات، طرق، مسالك، قناطر، خزانات، معالم أثرية وكتابات[8].

وقد قال إرنست مرسييه في هذا الصدد "نحن نجهل نص هذا الدستور أو القانون الأساسي الذي يديرها ولكن اكتشافات علم الآثار سمحت لنا بإعادة تشكيل معالمها الأساسية... "[9].

---

1 - Ibid, pp. 16-17.
2 - Ibid, p. 24.
3 ـ هو سالوست مؤرخ حروب يوغرطة وصديق قيصر.
4 - Idem.
5 ـ نقيشة وجدت فوق خط السكة الحديدية قبل الوصول إلى الحامة، تحدد لمجال المخصص لبساتين سالوست والتي جاء فيها :
Limes Fundi Sulustiani
6 - Mercier, E : Histoire de Constantine, p. 31 et les pages suivantes.
7 - Ibid, p. 26.
8- Albertini, Eugène: Ernest Mercier, historien de l'Afrique romaine : Conférence faite à Marseille en décembre 1938, L'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1944, p. 25.
9 - Mercier, E : Histoire de Constantine, … Op cit, p. 27.

ثم تعرّض إرنست مرسييه للغزو الوندالي لنوميديا سنة 431 م وكذلك قسنطينة وتساءل إرنست مرسييه عن دورها خلال هذه الأحداث بسبب عدم وجود مادة تاريخية تتحدث عن ذلك[1].

ثم تحدث مرسييه عن عودة نوميديا وقسنطينة للسيادة البيزنطية[2] وقد خرج بنتيجة وهي أنّ قسنطينة لم تلعب دورًا كبيراً أثناء الفترة البيزنطية بعدما جرّدت من مرتبتها كعاصمة[3].

وفي الأخير ذكر أن البلاد سوف تدخل في مرحلة جديدة وهي وصول العرب الفاتحين في ظروف ملائمة لهم تتمثل في الفوضى وانقسام البيزنطيين وعدم استعداد البربر التام للدفاع عن بلدهم، حسب رأيه شكل هذا عائقا كبيرا للمقاومة[4].

ب ـ التاريخ الوسيط

تناول إرنست مرسييه الأحداث التي مرّ بها الشرق الجزائري ومدينة قسنطينة في هذه الفترة، جاعلاً منها محوراً مهمًّا في تلك الأحداث ومتسائلاً عن دورها في كل مرحلة من مراحل تلك الفترة[5]. وبالإضافة إلى كتاب "تاريخ قسنطينة" نالت تلك الفترة حيّزا معتبراً في الجزء الثاني الثاني من كتابه "تاريخ إفريقيا الشمالية"[6].

بدأ كتابته عن تلك الفترة بتقديم ـ وباختصار شديد ـ بداية الإسلام وانتشاره السريع المتزامن مع فتوحات آسيا وإفريقيا، وركّز في كتاباته على فتح إفريقيا من قبل المسلمين خاصة بعد احتلال مصر الذي كان في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه الذي "أطلقهم" على البربرية[7] حسب رأيه.

ثم تكلّم عن المقاومة التي أبداها البيزنطيون والبربر وركّز عليها تركيزًا كبيراً خاصة مقاومة كسيلة والكاهنة[8]. فقد اعتبر إرنست مرسييه "الغزو" العربي ومقاومة الأهالي للغزاة نقاط نقاط يجب منحها أكبر اهتمام[9].

---

1 - Ibid, pp. 61-62.
2 - Ibid, p. 65.
3 - Ibid, p. 68.
4 - Ibid, pp. 68-69.
5 - Ibid, p. 85.
6 - Mercier, E : Histoire de l'Afrique septentrionale, T 2 (de 1045 à 1515), Paris, Leroux, 1888, 477 p.
7 - Mercier, E : Histoire de Constantine… Op cit, p. 81.
8 ـ لقد أبدى إرنست مرسييه اهتمامًا شديدًا بهاتين الشخصيتين، خاصة الكاهنة، فقد خصص لها صفحاته الأولى في مقال في حوليات المجلّة الأثرية لمدينة قسنطينة سنة 1868. انظر :

Mercier, E : Une page d'histoire de l'invasion arabe : La Kahena, in R.S.A.C, T XII, 1868, pp. 241-254.

وبعد 14 سنة أعاد الكتابة عنها، انظر :

Mercier, E : Episode de la conquête de l'Afrique par les arabes… Op cit, pp. 232-268.
9 - Mercier, E : Une page d'histoire de l'invasion arabe… Op cit, p. 241.

كما ذكر أيضاً "أحد هذه النقاط الأكثر إثارة للاهتمام والتي تتطلب أن نوجه لها العناية الخاصة هي دراسة المقاومة التي واجهت الفاتحين العرب من قبل الشعب الأصلي" [1].

كذلك استمر إرنست مرسييه في التركيز على مقاومة البربر فيما بعد، ولكن هذه المرة من خلال ثورة الخوارج حيث أولاها اهتمامًا خاصًّا ليس بتأثيرها على الأحداث في المغرب فحسب بل على أوروبا كذلك حيث ذكر مرسييه "كان من نتيجتها أنها حفظت المسيحية بوقفها للتيار الذي حمل المسلمين إلى أوروبا"[2]. وبعبارة أخرى ذكر "الحرب بين الجيوش العربية والبربر الخوارج أدمت إفريقيا من جديد وكان من نتيجتها أنها أوقفت هجرة المور وكان في ذلك خلاص للمسيحية"[3]. تتمثل قيمة هذه الفكرة أنّ إرنست مرسييه ربط تاريخ المغرب بالتاريخ الأوروبي[4].

وقد فصّل هذه الفكرة في مقال له في المجلّة التاريخية حيث ذكر أن ثورة الخوارج التي انطلقت سنة 740 م واستمرت لسنوات وانتشرت في شمال إفريقيا كله[5] وكان من نتائجها أنّ الجيش الإسلامي لم يتمكن من الحصول على المدد للتقدم نحو فرنسا ولهذا أجبر على التراجع[6].

وهكذا خرج إرنست مرسييه بنتيجة وهي أنه حتّى وإن هزم شارل مارتل في بواتييه فإن المسيحية لن تتعرض للخطر وهذا بسبب الأحداث التي شهدها المغرب والتي تتمثل في ثورة الخوارج[7].

كما تناول إرنست مرسييه مختلف الدول التي قامت في الشرق الجزائري أو التي كان الشرق الجزائري ضمن نفوذها كالأغالبة حيث عرّف بمؤسس هذه الأسرة إبراهيم بن الأغلب وتحدث عن استقرارهم في القيروان ومد سلطتهم على تونس والشرق الجزائري[8].

كما تعرّض لدخول المذهب الشيعي إلى إفريقيا وانتشاره بين البربر في قبيلة كتامة غير بعيد عن مدينة قسنطينة[9].

---

[1] - Mercier, E : Episode de la conquête de l'Afrique…, Op cit, p. 233.
[2] - Mercier, E : Histoire de Constantine… Op cit, p 87..
[3]- Mercier, E : Chute de la dynastie des gouverneurs Arlébites en Afrique : Etablissement de l'empire Obeidite (886-912) in R.A, T XV, 1871, p. 113.
[4] - Funck-Brentano Frantz : L'œuvre historique d'Ernest Mercier et ses rapports avec l'histoire générale : La bataille de Poitiers, Saint Louis à Tunis, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris librairie orientaliste Paul Geuthner, 1944, p. 25.
[5] - Mercier, E : La bataille de Poitiers et les vrais causes du recul de l'invasion arabe, in R.A, mai-juin 1878, 3ème année, Paris, pp. 11-12.
[6] - Ibid, p. 13.
[7] - Idem.
[8] - Mercier, E : Histoire de Constantine… Op cit, pp. 87-88.
[9] - Ibid, p 88.

وعند حديث إرنست مرسييه عن بداية الدعوة الفاطمية وما تلاها من أحداث _ منها محاربتهم للأغالبة[1] ثم القضاء عليهم[2] _ أراد أن يبرز دور قسنطينة منها استيلاء الشيعة على قسنطينة وخاصة عند عودة عبيد الله المهدي الخليفة الفاطمي من الأسر في سجلماسة[3] حيث جزم مرسييه بمروره بقسنطينة في طريق عودته رغم قلّة المادة الخبرية التي تحدثت عن ذلك، فقد قال "لا نتبع بالتفاصيل تاريخ الأسرة العبيدية (الفاطمية) رغم أنّ قسنطينة كانت أجمل لؤلؤة في تاج "امبراطوريتها"..." [4].

ثم استعرض مرسييه حكام الدولة الفاطمية الذين جاءوا بعد عبيد الله المهدي وهو القائم الذي واجه خلال حكمه ثورة صاحب الحمار ثم الخليفة الثالث المنصور الذي قضى على ثورة صاحب الحمار وأخيرا الخليفة المعزّ الذي نقل الخلافة إلى مصر[5].

ثم ذكر الممالك البربرية التي تأسست بعد رحيل الفاطميين إلى المشرق وهي الأسرة الزيرية من قبيلة صنهاجة ثم خروج ابن عمه حماد وتأسيس الدولة الحمادية[6].

ثم يصل إلى نقطة تعتبر محورية في كتاباته وهي غزوات العرب الهلاليين[7]. فعند عزوهم للبلاد في القرن الحادي عشر بدأوا بالمشاركة في الأحداث السياسية حيث ذكر مرسييه "فبعد أن غزوا صحراء طرابلس وتونس، استغلوا الخلاف الذي كان بين الأهالي وأصبحوا في خدمة أمرائهم... وأخذوا يستقرون في الأودية على حساب العنصر الأهلي" [8].

ثم تناول ثورة ابن غانية[9] التي حدثت في نهاية القرن الثاني عشر[10] والتي مكنت حسب إرنست مرسييه عددا من الهلاليين من دخول التل والاختلاط بالبربر حتى وصلوا إلى الساحل و لم

---

[1] - Ibid, p. 90.

انظر كذلك ما تناوله إرنست مرسييه حول الصراع بين الأغالبة والفاطميين في مقالة بالمجلة الإفريقية:

Mercier, E : Chute de la dynastie des gouverneurs Arlebites…, Op cit, pp. 112-137.

[2] ـــ رأى إرنست مرسييه في سقوط دولة الأغالبة زوال آخر بقايا السلطة العربية المفروضة على البربر لمدة قرنين ونصف القرن. انظر :

Marçais, George : Op cit, p 33.

[3] - Mercier, E : Histoire de Constantine..., Op cit, p. 92.

[4] - Idem.

[5] - Idem.

[6]- Ibid, p. 95-96.

[7] ـــ لقد كانت هذه الفكرة من الأفكار التي تناولها إرنست مرسييه وكررها كثيرا في كتاباته وخرج بعد دراستها باستنتاجات خطيرة في الجانب التاريخي والإثنولوجي والذي سوف نتعرض له في حينه.

[8] - Mercier, Ernest : Ethnographie de l'Afrique septentrionale : Note sur l'origine du peuple berbère, in R.A, TXV, 1871, p. 421.

[9] - Mercier, Ernest : Révolte et dévastation en Afrique de deux Ibn Rania (1183-1233), in R.S.A.C, T XV, 1871, pp. 381-406.

[10]ـــ هو تمرد قام به مغامران ينتمون إلى المرابطين عند نهاية القرن الثاني عشر، جاءوا من البليار ونزلوا في بجاية ثم انتقلوا إلى الجنوب التونسي ومن هناك قاموا بغارات شديدة القسوة على تونس والشرق الجزائري.

يختلطوا قبل هذا التاريخ بالعرب[1]. وقال مرسييه في هذا "بعد ثلاثة قرون احتلوا سهول التل والهضاب العليا، من مصر حتى المحيط الأطلسي، محاطين بالعنصر الأهلي من كل جانب" [2].

ثم تعرض إلى قيام الدولة الموحدية بعد قضائها على الدولة المرابطية[3] وعلى الدولة الحمادية بعد دخولهم إلى بجاية سنة 1152[4].

و لم يغفل إرنست مرسييه عن ذكر مدينة قسنطينة عند كل حدث كبير، فقد كانت ملاذا للناصر الحمادي ضد العرب الهلاليين ثم شهدت ثورة بلبار عم المنصور خليفة الناصر بقسنطينة وبعد خضوعها للدولة الموحدية أخذت نصيبها من الحصار خلال ثورة ابن غانية وفشلهم في الاستيلاء عليها ثم نجدة الموحدين لها[5]. ثم ذكر وضعها في عهد الحفصيين بعد ضعف الدولة الموحدية وذكر مختلف الأحداث السياسية التي ارتبطت بها في ذلك العهد[6].

وقد كانت خلاصة إرنست مرسييه أن قسنطينة بقيت خارج الأحداث السياسية المهمة خلال السنوات التي أعقبت الفتح العربي في القرن السابع ميلادي، و لم تستعد مكانتها وأهميتها إلاّ في عهد الحفصيين حيث شكلت مقاطعتها أحد أجمل مقاطعات الدولة[7].

فمن الناحية الاستراتيجية كانت مقاطعة قسنطينة تحمي تونس من هجمات حكام المغرب الآخرين لذلك منح حكم قسنطينة إلى الأعضاء الأساسيين في الأسرة الحفصية[8].

ج ـ التاريخ الحديث

بدأ إرنست مرسييه كتاباته عن التاريخ الحديث لقسنطينة والشرق الجزائري بمقالات لمونوغرافيات للبايات وكذلك عن قسنطينة قبل الغزو الفرنسي وخلال القرن السادس عشر كذلك كتب عن احتلال مدينة قسنطينة وما جاء بعد ذلك[9].

---

[1] - Marçais, George : Op cit, p. 34 -35.
[2] - Mercier, Ernest : Ethnographie de l'Afrique septentrionale…, Op cit, p. 421.
[3] - Mercier, E : Histoire de Constantine…, Op cit, p. 103.
[4] - Ibid, p. 104.
[5]- Ibid, p. 110.
[6] ــ من الأحداث التي ذكرها استيلاء الحفصيين عليها وحصارها من قبل المرينيين.
[7] - Ibid, p. 178.
[8] - Ibid, p. 179.
[9] - Le Blond, Marius : Ernest Mercier et l'idée d'empire.- L'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Librairie orientaliste Paul Guethner, 1944, p. 93.

وكان ترتيب هذه المقالات كما يأتي: بدأها بمقال "عبد الرحمن باي قسنطينة" في 1876 و"قسنطينة قبل الغزو الفرنسي في 1878" وفي السنة نفسها مقال "قسنطينة في القرن XVI، سمو عائلة لفقون" ومقال في 1896 عنوانه "حصارا مدينة قسنطينة»[1].

إذًا فتناول التاريخ الحديث لدى مرسييه يعتبر استمرارية لما تناوله قبل هذا التاريخ ويسجل لنا انتقال مدينة قسنطينة من سلطة الحكام الأغالبة في القيروان إلى سلطة الفاطميين في المهدية، ثم الحماديين في القلعة إلى أن أصبحت أخيراً عاصمة لبايلك الشرق في عهد الأتراك[2].

وقد خصص ستمائة صفحة من الجزء الثالث لكتابه تاريخ إفريقيا الشمالية للفترة العثمانية في شمال إفريقية عامة والشرق الجزائري على الخصوص[3] كما تناول التاريخ الحديث للفترة العثمانية والفرنسية للشرق الجزائري وقسنطينة في كتابه تاريخ قسنطينة[4].

كذلك تحدث إرنست مرسييه عن الثورات التي قامت في الشرق الجزائري منها ثورة المقراني التي اندلعت عام 1871 والتي أثرت فيه[5].

ومن خلال تصفحنا لكتاباته يمكن تلخيص القضايا والأفكار التي طرحها كما يأتي:

- تطرق إلى وضعية قسنطينة من الناحية السياسية قبل مجيء الأتراك حيث بدأت القوة الحفصية بالضعف من جهة وتنامي قوة العرب من جهـــة أخرى[6] وخاصـــة أولاد صاولة[7] Ouled Saoula.

وكما ذكر مرسييه الفوضى التي عمت البلاد فقد ذكر قوة وحيدة بقيت سالمة أمام كل هذه التحولات وهي السلطة الدينية التي استغلها الحفصيون لصالحهم مقابل تنازلات وامتيازات من كل نوع[8].

---

[1] - Mercier, Maurice : Op cit, p. 214.
[2] - Marçais, George : Op cit, p. 39.
[3] - Mercier, Ernest : Histoire de l'Afrique septentrionale, T 3,…, Op cit, 627 p.
[4] - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine…, Op cit, 691 p.
[5] - Gautier, EF : Ernest Mercier, historien de l'Afrique moderne, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie orientaliste Paul Genthner, 1944, p. 42

[6] _ اعتمد إرنست مرسييه في وصف هذه الوضعية على ابن خلدون حيث زادت هذه الوضعية خطورة في القرن الخامس عشر، فقد أدخل عرب تونس البلاد في فوضى كبيرة ودخلوا إلى إقليم قسنطينة واتحدوا مع القبائل "الأصلية الجديدة" التي أخذت عادات ولغة العرب كالحنانشة والحراكتة وحتى مع القبائل الهلالية من عائلة الأثبج كالدريد وقرفة ووسعوا خراجهم في البلاد، حينئذ بدأ أولاد صاولة في ممارسة سلطتهم على قسنطينة بالتنافس مع الدوادة في الزاب والحضنة. انظر :
Mercier, Ernest : Constantine au XVI siècle, élévation de la famille El-Feggoun .., p. 217.

[7] _ هي قسم من القبيلة العربية سليم.

[8] - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine..., Op cit, pp 176-177.

ومن العائلات التي تملك السلطة الدينية في قسنطينة ذكر إرنست مرسييه عائلة ابن عبد المؤمن وابن باديس وابن لفقون[1]. وقد استمر نفوذ هذه العائلات في العهد التركي إذ كانت من بين الوسائل التي اعتمد عليها الأتراك في تثبيت حكمهم باستعمالها ومواجهة بعضها للبعض الآخر[2]. وكانت هذه العائلات تمنح لقب شيخ الإسلام[3].

كما طرح مرسييه قضية تاريخ دخول الأتراك واستقرارهم في قسنطينة بسؤال كالآتي : في أي فترة كان الاستقرار الأول للأتراك في قسنطينة؟[4]

حول هذه النقطة ذكر مرسييه أقوال الكتابات العربية التي قدمت تواريخ 1519، 1520، 1521 و 1522[5] كما ذكر أنّ فايست أعطى تاريخ 1517[6]، أمّا التاريخ المقبول لدى مرسييه حول إقامة الأتراك في قسنطينة فيبدأ من 1519[7].

وبخصوص فترة الوجود التركي في الشرق الجزائري فقد قسمه إلى فترة إقامة "الهيمنة" التركية وحدد لها تاريخا من (1500 إلى 1600)[8].

ثم الفترة التي جاءت بعد الفترة الأولى وأطلق عليها قسنطينة تحت حكم البايات الأتراك[9] الأتراك[9] والتي قسمها إلى ثلاث فترات :

_ الفترة الأولى وتبدأ من (1600-1771): تناول فيها الأحداث السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية التي شهدها قسنطينة وبايلك الشرق كما ذكر البايات الذين حكموا قسنطينة في هذه الفترة[10].

_ أما الفترة الثانية فبدأها من 1771 وهي سنة بداية حكم صالح باي إلى 1826 سنة تولية آخر بايات قسنطينة أحمد باي[11].

---

[1] - Ibid, p. 177.

[2] - Mercier, Ernest : Constantine au XVI siècle…, Op cit, p. 222.

[3] ــ ذكر مرسييه أن هذا اللقب يمنح إلى عائلة ويبقى فيها وذلك رغم العواصف السياسية؛ فوظيفة شيخ الإسلام أو قائد الدين تعمل بالتوازي مع مع الوظيفة السياسية للباي والتي كان اللقب يمنح عن طريق تفويض من السلطان أمير المؤمنين عن طريق الباشا أو الداي في الجزائر العاصمة. فالبايات يسقطون بإشارة من سلطة مركزية أو ... نزوة الانكشاريين أو السكان ولكن شيخ الإسلام يبقى. انظر :

Mercier, Ernest: Abd-Er-Rahamane Bey de Constantine, Op cit, p. 431.

[4] - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine…, Op cit, p. 190.

[5] - Ibid.- p. 191.

[6] - Ibid.- p. 190.

[7] - Marçais, George : Op cit, p. 39.

[8] - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine..., Op cit, p. 181.

[9]- Ibid, p. 271

[10]ــ عرض كل هذه الأحداث في الفصل السادس من كتابه تاريخ قسنطينة، من ص 219 إلى 269.

[11] - Ibid, p. 271.

وقد خصص جزءا كبيرا من هذه الفترة لعرض أعمال صالح باي العسكرية منها حملاته ضد القبائل وسياسته اتجاهها وصراع أحمد باي ضد المرابطين ثم بداية أفول تأثيره وتولي إبراهيم بوصبع الحكم ثم توليه حسين ابن حسين باي كما كتب عن أعمال وإنجازات صالح باي منها الإنجازات العمرانية وتجميع اليهود فيما سمي الشارع وتنظيم إدارة الحبوس.

كما تناول مرسييه جميع البايات الذين جاءوا بعد صالح باي، كما تعرض في الفترة الأولى للأحداث السياسية، العسكرية، الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مدينة قسنطينة وبايلك الشرق[1].

ـ أمّا الفترة الثالثة، فقد خصصها لآخر بايات قسنطينة الحاج أحمد وذلك منذ توليته سنة 1826 إلى تاريخ سقوط قسنطينة في 1837[2].

وقد بدأ بتقديم بيوغرافية عن حياة الباي حاج أحمد كما تعرض لحادثة المروحة وما نجم عنها من حصار فرنسي انتهى حسب رأيه بالحملة الفرنسية على الجزائر ثم حملتين فرنسيتين على قسنطينة انتهت "بهروب" أحمد باي نحو الصحراء[3].

ثم تطرق إلى فترة الاحتلال الفرنسي لقسنطينة والشرق الجزائري، وقسمها إلى أربع فترات:

الفترة الأولى : 1837 ـ 1845[4].

الفترة الثانية : 1845 ـ 1854[5].

الفترة الثالثة : 1854 ـ 1861[6].

الفترة الرابعة : 1861 ـ 1870[7].

وقد تناول مرسييه في هذه الفترات أهم السياسات الاستعمارية التي شهدها إقليم الشرق الجزائري وأهم الجنرالات الذين تداولوا على حكم الإقليم مثل فالي ونقربي وقالبوا وأهم المراسيم والقرارات التي شهدها الإقليم وانعكاساتها على السكان من الناحية الاقتصادية، الاجتماعية والسياسية.

---

[1] ــ تناول هذه الأحداث في الفصل السابع من كتابه تاريخ قسنطينة، من ص 271 إلى ص 370

[2] - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine..., Op cit, p. 371.

[3] - ذكر هذه الأحداث في الفصل الثامن من كتابه تاريخ قسنطينة. من ص 371 إلى ص 434.

[4] - تناول أحداث هذه الفترة في الفصل التاسع من ص 441 إلى ص 509.

[5] - تناول فيها أحداث هذه الفترة من ص 510 إلى ص 553.

[6] - تناول فيها أحداث هذه الفترة من ص 595 إلى ص 656.

[7] ــ تناول فيها أحداث هذه لافترة من ص 595 إلى 656.

ثانيا ـ الجانب الإثنوغرافي[1]

لقد حاول إرنست مرسييه أن يستكشف ميادين عديدة في مختلف المعارف. فقد رأى "أن احتلال الجزائر لم يمنح فرنسا مستعمرة فقط، ولكنه فتح إفريقيا الشمالية على العلوم، الجغرافية، التاريخ، الإثنوغرافية، فقد كانت إثنوغرافية البلد مجهولة... ولكن بدأت أسرار هذه القارة تفتح واحداً واحداً من قبل الباحثين"[2].

أمّا منهجه في التطرق إلى تلك المجالات المعرفية فكان بطرح أسئلة ثم الإجابة عنها محاولاً بذلك التعرف على أصل هؤلاء السكان الذين سكنوا إفريقيا الشمالية والشرق الجزائري.

فبدأ من القديم بطرح سؤال: كيف كانت وضعية إفريقيا الشمالية فيما يخص السكان في فترة تعود إلى ثلاثين أو أربعين قرنًا قبل المسيح؟[3] وهل "أصل هؤلاء السكان هو إفريقي أم هم وافدون من مناطق أخرى"؟[4]

ثم كيف كانت أعراق السكان أثناء الهيمنة العربية والتركية وما هي هذه التغيرات التي حدثت منذ الاحتلال الفرنسي؟[5]

ينطلق إرنست مرسييه من تأكيد وهو أنّ إفريقيا كانت مأهولة وقد ذكر أن هيرودوت هو من تكلم بجدية عن هذه المنطقة وقد سمى منطقة المغرب الحالي بليبيا وبعد سقوط قرطاجة كانت هناك مجموعات إثنية أساسية هي :

- الليبيون : سكنوا طرابلس.
- الإفرقيون : سكنوا إفريقيا نفسها.
- النوميديون : سكنوا نوميديا.
- المور : سكنوا موريطانيا

---

[1] ـ الإثنوغرافيا هي فرع من العلوم الإنسانية تهتم بوصف الأعراق وهي إمّا الدراسة الوصفية لكل النشاطات لمجموعة إنسانية محددة (تقنيات الحياة المادية، التنظيم الاجتماعي، الديني، الجمالي) وإمّا كوصف لإثنية أو مجموعة عالمية لقطاع معين (مثال: الصيادون في المجتمعات البدائية). انظر:
Grand Larousse encyclopédique. T 4, Librairie Larousse, Paris, 1961, p Eth.
وظهرت كلمة إثنوغرافيا للمرة الأولى عام 1772 لدى المؤرخ الألماني شلادزر (Schläzer). انظر: لابورت فيليب، تولرا جان بيار فارنييه: إثنولوجيا أنتروبولوجيا، ترجمة د. مصباح الصمد، لبنان، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2004، ص 27.

[2] - Mercier, Ernest : Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale, Constantine Marle, 1875, pp. I-II.

[3] - Mercier, Ernest : La race berbère véritable population de l'Afrique septentrionale, in R.S.A.C, T XXXIX, 1905, p. 23.

[4] - Ibid, p. 25.

[5] - Mercier, Maurice : Op cit, p. 198.

ـ الجيتول : سكنوا خط الهضاب العليا والصحراء[1].

كما تطرق إلى العديد من المؤلفين القدماء الإغريق والرومان والتسميات أو الأسماء التي أطلقوها على شعوب إفريقيا الشمالية ومنها السكان الذين كانوا مستقرّين في الشرق الجزائري، فقد كانت هناك شعوب مثل اللبيين، النوميديين، المور، الجيتول في الجنوب ثم تجمعات الفينيقيين على الساحل ثم السيطرة الرومانية والوندالية فالبيزنطية، كل هذا أنتج تأثيرا إغريقيا لاتنيًا[2].

و لم تقتصر هذه التأثيرات على العرق بل تعدته إلى ميادين أخرى[3].

أما الحدث الأبرز الذي أثر في سكان الشرق الجزائري حسب إرنست مرسييه فيرجع إلى دخول العنصر العربي عن طريق هجرتين:

الأولى : حدثت في القرن السابع ميلادي، وهو الفتح العربي، وهي هجرة حسب فهم مرسييه عسكرية. فرغم أنها قضت على العنصر اليوناني إلا أنها لم تغير شيئا كبيرا في إثنوغرافية البلاد لأنها لم تحمل عنصرا جديداً، فقد بقي البلد حسب مرسييه بربري بالكامل لأن الجيوش عادت إلى المشرق بعد انتهاء مهمتها[4].

أما الحدث الثاني فقد كان حسب رأيه ذا تأثير أكبر وأضخم ويتمثل في الغزو الهلالي في القرن الحادي عشر، حينها دخل العنصر العربي ككتلة سكانية[5] وقد أدى هذا إلى تعرّب الشرق الشرق الجزائري أو كما أطلق عليه مرسييه "شرق البربرية" [6] وقد بقيت هذه النتيجة إلى حد الآن عن طريق الامتزاج بين العرق العربي مع عرق البلاد المحلّي[7].

أما الأتراك فيقول عنهم إرنست مرسييه أنهم اختفوا بعد غزونا لهاته البلاد بعد أن حكموها والشيء نفسه حدث للكراغلة حيث امتزج أحفادهم بالأهالي[8].

---

[1] - Mercier, Ernest : La population indigène de l'Afrique sous la domination romaine, vendale, bysantine, in R.S.A.C, T XXX, 1895, p. 129.

[2] - Mercier, Ernest : Un mot sur les étymologies…, Op cit, p. 47.

[3] ـ لقد بين إرنست مرسييه نتيجة أخرى خلال عرضه لهذه الأجناس التي تعاقبت على شمال إفريقيا والشرق الجزائري منها صعوبة دراسة الإيتومولوجيا (الدراسة العلمية لأصل الكلمات) في الجزائر والتي وصفها بالمستحيلات في بعض الأحيان نتيجة لوجود كل هذه الأجناس وتعددها.

[4] - Idem.

[5] - Ibid, p. 48.

[6] - Idem.

[7] - Marçais, George : Op cit, p. 34.

[8] - Mercier, Ernest : Français et indigènes en Algérie, Constantine, Imprimerie-librairie D. Braham, 1906, p. 9.

أمّا السود فلم يؤثروا في الامتزاج السكاني و لم يبقوا عبيدًا كذلك كان عليه الحال بالنسبة للأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام، فقد ذابوا بين الأهالي[1].

وفي الأخير يصل مرسييه إلى نتيجة أنّ كل تلك الأعراق قد اختفت لفائدة العرق البربري[2].

[1] - Idem.
[2] - Idem.

ثالثا ـ نقد رؤيته التاريخية

عند تناول كتابات إرنست مرسييه فيما يتعلق بتناوله التاريخ بالتحليل نجده يركز على فترات معينة وكذلك أحداث ونقاط محددة في فترات أخرى.

ففي الفترة القديمة أولى اهتمامًا خاصًّا بالمرحلة الرومانية ـ حيث اعتبرها أهم مرحلة في تقدم "إفريقيا" من حيث التغلب على الظروف الطبيعية قبل الغزو الفرنسي ـ ولهذا شكّلت دراسة إفريقيا الرومانية بالنسبة له جزءاً أساسيًا من برنامج عمله(1).

وتعتبر هذه المقارنة بين الاحتلالين (الروماني والفرنسي) طبيعية ضمن سياق الكتابة الاستعمارية الفرنسية. فلم يوجد أي فرنسي في أي مستوى لم يطرح السؤال الآتي كيف كانت البلاد في القديم في الفترة الرومانية والتي هي الآن ملكية فرنسية تحت اسم الجزائر(2)؟

لم يشكّل مرسييه استثناءً لهذه القاعدة، فقد قارن هو أيضا بين الاحتلالين الرماني والفرنسي وأبدى ملاحظات حول الأخطاء التي قام بها الرومان في هذا الشأن والتي لا يجب على الفرنسيين القيام بها، فقد قال "أنتجت عشرون سنة من الحروب إخضاع البلاد والاحتفاظ بها ثم استعمارها، ثم التوسع نحو الجنوب... مرّ الرومان بتلك المراحل نفسها ولكن ببطء شديد جدًّا، فلم يخترقوا الجنوب بالشكل الكافي والذي أدى بجهودهم وتضحياتهم أن تكون عديمة الفائدة رغم أنها امتدت فترة طويلة من الزمن" (3).

أو مقارنة أخرى لإبراز المهمّة الشاقّة التي تنتظر الفرنسيين في الجزائر "إذ أنّ الرومان لم يصلوا إلى الازدهار إلاّ بعد ستة قرون ووجود الفرنسيين في الجزائر لم يتعدّ المائة سنة" (4).

أو مقارنة بهدف إبراز الجانب السلبي للجزائريين إذ استولى الرومان على بلد مزدهر وكان عدد كبير من السكان جيرانًا للقرطاجيين أمّا الفرنسيون فقد احتلوا بلداً متوحّشًا يقطنه أناس جاهلون، أفظاظ وأجلاف، لقد اصطدموا بحواجز لم يعرفها اللاتينيون من قبل، أحقاد وطنية ومعارضة دينية(5).

أو أنّ الرومان وجدوا مدنًا مزدهرة وكثيراً من الأرض المزروعة قاموا بتطوير ما هو

---

[1] - Albertini, Eugène : Op cit, pp. 28-29.
[2]- Tailliart, Charles : Op cit, p. 161.
[3] - Mercier, Ernest : L'Algérie devant le parlement en 1893, Constantine, Imprimerie Marle, 1913, p. 18.
[4] - Tailliart, Charles : Op cit, p. 163.
[5] - Idem.

موجود فقط، أمّا الفرنسيون فلم يكن عملهم إلاّ كمن يحاول بعث الحياة في جثة وهذا نتيجة للأحقاد الوطنية والدينية[1].

إنّ هذه الأقوال تناقض ما كتبه المؤرخون الاستعماريون عن التاريخ القديم حيث كان النوميديون يمثلون دائمًا الطرف السلبي وكانت كتبهم تؤرخ لروما وحدها وإنجازاتها[2].

ولعلّ الهدف من وصف مقاومة الأهالي بالتعصب هي أعذار للقمع دون رحمة[3] وكذلك إضافة الشرعية على الحملات العسكرية الفرنسية وتمجيد أهدافها[4].

لقد كان إرنست مرسييه واحدًا من المؤرخين الاستعماريين الذين استخدموا التاريخ لتبرير الاحتلال وجعل الاستعمار شرعي[5] فقد ذكر أن الاستعمار الروماني في عهد سبتيم سيفر Septem Sever قد بلغ أوج اتساعه في بداية القرن الثالث ميلادي وأنّ الشعب المحلّي قد هزم وشتت وأدمج مع المنتصر[6].

فقد رأى الفرنسيون أنفسهم كرومان جدد جاءوا لاسترجاع فردوسهم الذي ضاع من أجدادهم[7] أي إنهم هم الورثة المباشرون للإمبراطورية الرومانية وإنهم أتوا فقط لاستعادة ما فقدوه من أرزاق وممتلكات[8] أما السكان الأصليون فقد نظروا إليهم على أنهم نوميديون متخلفون وبدائيون[9].

إذًا فقد تمّ الاحتلال بمرافقه ذلك الاعتقاد الغريزي الذي تطرّقنا إليه إضافة إلى أنه مهمة حضارية لتحضير السكان الأصليين غير المتطورين[10]، وكانت هذه الفكرة من الأفكار التي شكلت أهم ركائز المشروع الاستعماري والذي امتدّ من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن العشرين والذي حمل شعارات "تحضير المتوحشين" و"تحرير الشعوب ونشر الأنوار" و"إدخال السكان المتخلفين إلى الحضارة وإلى الفكر المعاصر"[11]. رأى المنظرون للاستعمار الفرنسي

---

[1] - Gselle, Stéphane : L’Algérie dans l’antiquité, Alger, typographie Adolphe Jordan, Imprimeur, libraire, éditeur, 1903, pp. 144-145.

[2] ـ العروي عبد الله: مجمل تاريخ المغرب، المغرب، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط 3، 1992، ص 51.

[3] - Malakey, J.M: Op cit, p. 30.

[4] - Idem.

[5] - Ibid, p. 27.

[6] - Mercier, Ernest : Episode de la conquête de l’Afrique par les arabes…, Op cit, p. 236.

[7] - Malakey, J.M: Op cit, p 28.

[8] ـ الأشرف مصطفى: الجزائر : الأمة والمجتمع، ترجمة :حنفي بن عيسى، الجزائر، م.و. ك، 1983.- ص 283.

[9] - Malakey, J.M: Op cit, p 28.

[10] - Idem.

[11] - Ageron, Ch R : France coloniale ou partie coloniale ?, Paris, presse universitaire de France, p. 62.

كذلك في غزوهم للجزائر والذين استقرّوا منذ فترة قليلة في الجزائر أن التاريخ يعيد نفسه وأنّ السابقة الرومانية هي إثبات تاريخي خاص بالاستعمار وحده الذي يتمثل في إعادة الإنجاز الروماني والذي أعادته فرنسا نيابة عن أوروبا[1]. فقد انتمت الجزائر إلى روما لمدة خمسة قرون ويجب أن تبقى. ولّما دمرت روما الدولة النوميدية في عهد مسينيسا، فإنّ الدور نفسه يعود لفرنسا لكي تدمّر الدولة الإسلامية في بلاد "البربرية" [2].

وبدت هذه الفترة (أي الفترة الإسلامية) من تاريخ إفريقيا والجزائر للكتّاب الاستعماريين كفترة خاصة وفي تعارض تام على مستوى الحضارة المادية والثقافية مع كل الذي سوف يحدث خلال القرون اللاحقة[3] وخاصة الفترة الإسلامية حيث وضعوا هذه الفترة بكاملها ضمن عهد تقهقر وغموض جاءت بين العهد الروماني والعهد الاستعماري[4].

وقد اعتُبِر الإسلام مشكلة من قِبل العديد من المؤرخين الاستعماريين ومن بينهم إرنست مرسييه، إذ سبّب اندثار المسيحية في شمال إفريقيا والشرق الجزائري بالذات واستخلاف الإسلام لها نظرة سلبية له[5].

وقد شرح إدوارد سعيد هذه المشكلة وسمّاها بـــ"الموقف الأوروبي الإشكالي اتجاه الإسلام لأن العالم الإسلامي كان هو الوحيد الذي واجه أوروبا وتحداها على الصعيد السياسي والفكري والاقتصادي، كذلك فإن المجال الإسلامي كان دائما هو القريب لأوروبا وكان يشكل تهديداً في شكله العربي والعثماني والشمال الإفريقي والإسباني منذ نهاية القرن السابع حتى معركة ليبانتو عام 1571" [6].

إذًا فقد وُظّفت الأحقاد التاريخية من قبل الكتاب الغربيين للتحامل على الإسلام وكانت للمؤثرات التي خلفتها الحروب الصليبية نصيبا مهمّا في ذلك[7].

---

[1] - Djender, M : Op cit, p. 95.

[2] - Filali, Kamel : Dynamique identitaire…, Op cit, p. 6.

[3] - Djender, Mahieddine : Op cit, pp. 95-96.

[4] ـ العروي عبد الله: المرجع السابق، ص 12.

[5] - Malakey (J.M).- Op cit.- p 28.

[6] ـ سعيد إدوارد: الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمه إلى العربية كمال أبو ديب، لبنان، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، الطبعة العربية السادسة 2003، ص 101.

[7] ـ مغلي محمد البشير: مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 2002، الرياض، ص 258.

كما أرجع هؤلاء الكتاب الاستعماريون هدف الفتوحات الإسلامية إلى الاستيلاء على الغنائم(1). وكان إرنست مرسييه من الذين أكّدوا هذه الفكرة حيث اعتبر الحرب المقدسة المفروضة على المؤمنين هي فرصة للقيام بغزواتهم(2).

ولم يكتف إرنست مرسييه بجعل العامل الاقتصادي سببا مقتصرًا على الفتوحات الإسلامية بل اعتبره عاملاً رئيسيًا فسّر به أغلب الأحداث فيما بعد.

فقد فسّر الهدوء الذي أعقب الفتح العربي بأنه كان بسبب إرسال الفاتحين المسلمين للبربر إلى أقاليم شبه الجزيرة الإسبانية والذي أدى إلى تحقيق فائدة مزدوجة وهي ضمان الهدوء في إفريقيا والاستفادة بشكل جيّد من الشعب المهزوم(3).

وقد ذهب مرسييه إلى أبعد من هذا؛ فقد أرجع دخول البربر في الإسلام إلى السماح لهم بالاشتراك في الحرب المقدسة وبالتالي المشاركة في الحرب والنهب(4). وبسطحية كبيرة قال "لا يطلب منهم إلاّ النطق بالشهادة لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، وهكذا أصبحوا مسلمين" (5).

كما ربط بين ثورة الخوارج فيما بعد ونقص الموارد في الأندلس حيث قال "بعد أن لم يعد أي شيء يسلب، لم يجد الواصلون الجدد تسهيلات للإقامة بعد أخذ كل الأماكن حينئذٍ قلّت الهجرة إلى إسبانيا واستيقظ روح الاستقلال لدى البربر... " (6).

إنّ ما ذهب إليه مرسييه في اعتماده على العامل الاقتصادي في دراسته للتاريخ الإسلامي لا يعتبر حالة شاذة بل كان منهج عدد كبير من علماء الغرب والمستشرقين حيث تناولوا التاريخ الإسلامي مرتكزين على الجانب المادي ومستهينين بالجانب الروحي والأخلاقي. فقد فسّروا كل أحداث التاريخ الإسلامي بالعامل الواحد "الاقتصادي" منذ ظهور الإسلام إلى الفتوحات الإسلامية إلى حركته الحضارية الواسعة(7).

كما تناول إرنست مرسييه كذلك تاريخ العرب والبربر والقبائل والأسر والحضر والبدو وهذه القضايا كلها قد خاض فيها المؤرخون الاستعماريون(8).

---

1 ـ العروي عبد الله: المرجع السابق، ص 109.

2 - Mercier, Ernest : Histoire de Constantine, Op cit, p. 81.

3 - Mercier, Ernest : Chute de la dynastie des gouverneurs Ar'lébites en Afrique…, Op cit, p. 112.

4 - Mercier, Ernest : La bataille de Poitiers et les vraies causes du recul de l'invasion arabe..., Op cit, p. 6.

5 - Ibid, p 7.

6 - Mercier Ernest.- Chute de la dynastie des gouverneurs Ar'lébites…, Op cit, pp. 112-113.

7 ـ مغلي محمد البشير: المرجع السابق، ص 259.

8 - Djender, Mahieddine: Op cit, pp. 89-90.

ونحن نعتقد أنّ اهتمام إرنست مرسييه بهذه القضايا يرجع إلى ماضيه في المكاتب العربية إذ أن الاهتمام هو من باب فرّق تسد وتأجيج الصراعات بين البربر والعرب وبين القبائل عن طريق زرع الفتن العرقية فيما بينها[1].

فقد ركّز إرنست مرسييه على أحداث معيّنة تتناول "الغزو العربي" منها حادثة الكاهنة وحسان وكسيلة وعقبة بن نافع ويعتبر هذا الاهتمام قاعدة في الكتابات التاريخية الفرنسية[2].

وعلى العموم فقد تميّز منهج بعض الكتّاب الغربيين في منتصف القرن التاسع عشر عند تناولهم للتاريخ الإسلامي بما يأتي:

إثارتهم للعنصريات وتعميمها بين العرب والبربر فيما يخص تاريخ الجزائر كما ركّزوا على فترات الخلاف بين المسلمين دون غيرها[3].

كذلك فقد اهتموا اهتمامًا غير طبيعي بالمنشقين عن الإسلام واعتبروهم أصحاب فكر تحرري وعقل والتنويه بالفرق المنشقة[4].

كما قاموا بانتقاء الروايات التاريخية وفسّروا النصوص التاريخية تفسيرًا اختياريًا وكذلك الوقائع التي تتماشى مع أهوائهم[5].

أمّا الحدث الأكبر الذي ضخم بشكل كبير من قبل المؤرخين الاستعماريين هو غزوات بني هلال التي سقط على إثرها المغرب عامة والشرق الجزائري بالخصوص وغدا ضحية لها[6].

وتعتبر غزوات بني هلال ثاني أهم محور تناولته "المدرسة القديمة" [7] في الكتابة التاريخية بعد الاهتمام بالفترة الرومانية[8].

وقد بدأ تناول هذا المحور مع كاريت[9]، ثمّ تأكّد مع إرنست مرسييه حيث أدى جمع

---

[1] - Malakey, J.M : Op cit, p. 34.

[2] ـ سعد الله، أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 1، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط 2، 1981، ص 29.

[3] ـ مغلي، محمد البشير: المرجع السابق، ص 257.

[4] ـ المرجع نفسه، ص ص 407-408.

[5] ـ المرجع نفسه، ص 260.

[6] ـ العروي، عبد الله: المرجع السابق، ص 25.

[7] ـ المدرسة القديمة: أو المدرسة الفرنسية القديمة بدأت في 1837 لتنتهي سنة 1880 سنة إنشاء جامعة الجزائر. كان البحث في المجال المعرفي فيها من عمل العسكريين بالخصوص وموظفي الترجمة بالجيش أو الإدارة، ويطلق على هذه الفترة كذلك عهد المؤرخين العسكريين.

[8] - Djender, Mahieddine : Op cit, p. 95.

[9] ـ أشير إلى غزوات بني هلال التي حدثت في القرن الحادي عشر قبل كاريت وذلك من قبل المؤلفين الإسبان كمارمول كربخال ثم نقلت إلى كاريت التي أثرت فيه بصورة واضحة في أبحاثه حول أصل هجرات القبائل الأساسية في إفريقيا الشمالية. انظر :

Marçais, George : Op cit, pp. 35-36.

الوثائق وإنجاز الترجمات ونشر المختصرات عند نهاية الإمبراطورية الثانية من إنجاز المفاهيم الأولى حول ماضي الجزائر وإفريقيا الشمالية[1].

وقد عبّر مرسييه بنفسه عن استفادته من هذه التراكمات وذكر أعمال بعض الذين سبقوه كدي لمال وكاريت وترجمة دوسلان لكتاب تاريخ البربر لابن خلدون[2].

وقد قال مرسييه في ترجمة دي سلان "إنّ الترجمة العلمية لتاريخ البربر لابن خلدون من قبل دوسلان مع الملاحظات الثمينة والملاحق المرافقة للنصوص، جعلت منه منجماً حقيقيًا من المعلومات سمحت _ بطريقة تقريباً كاملة _ من إعادة تشكيل جزء كامل من تاريخ إفريقيا الشمالية" [3].

وهذا لم يتوفّر لكاريت Carette لذي كتب عن هذا الموضوع قبل مرسييه بـــ22 سنة، ولم تكن في حوزته إلاّ مراجع ووثائق غير كافية[4].

وكان هذا الحدث قد أفلت من اهتمام الباحثين ولكن مباشرة بعد اكتشافه استولى عليه العلم التاريخي الفرنسي فيما يتعلق بالانحطاط التدريجي، وخراب المدن والمعارضة الأبدية بين بربر وعرب وحضر وبدو وبين قبائل وممالك[5].

فقد وصف هذا الغزو بالوحشي وأنه السبب في تراجع "بلاد البربرية" إلى الوراء[6] وأنه الكارثة الكبرى التي أصابت شمال إفريقيا والذي أدى إلى انحطاط سياسي وأخلاقي[7]. كما طرح طرح مرسييه كذلك فكرة أن هؤلاء العرب الهلاليون تسببوا في المسار الفوضوي الذي كان السبب في تخلف الشرق الجزائري بشكل خاص والمغرب بشكل عام[8].

وقد شمل هذا الانحطاط مستويات عدة منها السياسي حيث حمّل مرسييه العائلات الأميرية التي تقاسمت الإرث الموحدي في القرن 13 م المسئولية الكبيرة في تطور "الآفة" و"الكارثة العربية" بسبب قبولهم التعاون مع تلك القبائل الناهبة لأجل حروبهم الكثيرة[9]. وقد قال مرسييه في هذا الشأن "إنّ تصارع الأسر الحفصية، الزيانية والمرينية قد مكّن العرب الغرباء من استغلال

---

1 - Djender, Mahieddine : Op cit, p. 95.
2 - Mercier, Ernest : Histoire de l’établissement des arabes en Afrique du Nord, Op cit, p. II.
3 - Mercier, Ernest : Notice sur les Almoravides et les Almohades d’après les historiens arabes, in R.A, T XII, 1868, p. 217.
4 - Marçais, George : Op cit, pp. 35-36.
5 - Djender, Mahieddine : Op cit, p. 96.
6 - Malakey, JM : Op cit, p. 28.
7 - Mercier, Ernest : Histoire de l’établissement des arabes dans l’Afrique septentrionale, Op cit, p. III.
8 - Djender, Mahieddine: Op cit, p. 97.
9 - Marçais, George: Op cit, p. 35.

ضعف "الإمبراطوريات" البربرية الثلاث الذين يقدمون خدماتهم لكل واحدة من تلك الأسر في حروبهم غير المنتهية" [1].

كما ذكر نتيجة هذا التعاون الذي كان سلبيا على الشرق الجزائري وعاصمته قسنطينة "هكذا وبهاته الطريقة استقرت هذه الوضعية غير الطبيعية لشعب أجنبي ومغتصب فارضاً سلطته على الأمة الأصلية التي تفوقه عددًا... وهكذا كان حفنة من "اللصوص" و"قطاع الطرق" يعيشون على تخوم الصحراء تمكنوا من فرض تفوقهم وغلبتهم داخل المدينة الكبيرة قسنيطنة» [2].

كما أدخل هذا التعاون البلاد في فوضى كبيرة ومستمرة "فبعد استعمالهم من قبل الحكام البربر ضد جيرانهم وضد السكان من عرقهم، أصبحوا القوة الوحيدة وفرضوا إرادتهم على ملوك البربر وعن طريق خياناتهم وثوراتهم ساهموا في قطع وحدة الشعب الأهلي إلى الأبد... " [3].

وهذه الفوضى كلها هي التي تسببت في دخول المغرب القرون المظلمة وكانت هي أصل الانحطاط الذي وجده الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر في 1830 [4].

إنّ هذه الأفكار التي طرحت حول الغزو الهلالي تصب في مصلحة الإيديولوجية الاستعمارية التي استخدمت مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية ومنها التاريخ استخدامًا وظيفيا وإيديولوجيا. وقد أنتجت هذه العلوم نظريات ومواقف منها القول بالتفوّق العنصري والحضاري، أو بوجود أمم متحضرة وشعوب متوحشة [5].

وقد وُصفت هذه الأفكار فيما بعد بـــ"المركزية الأوروبية Euro centrisme" [6] ومجمل تلك الأفكار هي تأكيد للتفوّق الغربي على التخلّف الشرقي [7]، وهي في الوقت نفسه تبرير للاحتلال إذ أنه عندما يشبّه إرنست مرسييه دور العرب بدور القراصنة الذين استولوا على الأرض ومسكوا البلاد عن طريق الرعب [8] والذي أدى إلى تدمير أي سلطة سياسية فإن هذه

---

1 - Mercier, Ernest : Constantine au XVIème siècle, élévation de la famille El Feggoun, …op cit, p. 215.
2 - Ibid, p. 216.
3 - Mercier, Ernest : Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale..., Op cit, pp 313-314.
4 - Berthier, André : Conférence sur Ernest Mercier et l'idée de l'empire…, Op cit, pp. 114-115.
5 ـ كوثراني وجيه: الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل: دراسات في البحث والبحث التاريخي، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، 2000، ص ص 32-33.
6 ـ المرجع نفسه، ص 32.
7 ـ سعيد إدوارد: المرجع السابق، ص 42.
8 - Mercier, Ernest : Constantine au XVIème siècle, élévation de la famille El Feggoun…, Op cit, p. 216.

الإيديولوجية الاستعمارية تؤكد على أن الأرض التي احتلّها الفرنسيون هي محتلة إنسانيًا ولكن شاغرة سياسيًا[1].

كما أنها أرادت أن تثبت أنّه ليس هناك وجود شعب أو أمة أو كيان[2] فقد قال مرسييه "السكان المتنوعون جدًّا لا يملكون أي رباط وطني وتمّ تخليصهم من السادة القساة" [3].

إنّ هذا القول يؤكد فكرة أخرى وهي أنه لا يوجد "مجتمع متماسك" وإنما هناك قبائل متنافرة لا تخضعها إلا القوى الكبرى كالرومان والأتراك والفرنسيين[4]. فقد ذكر مرسييه "أن الفرنسيين وجدوا أنفسهم أمام فوضى وفي وضعية سياسية هي نفسها التي وجدها الأتراك سنة 1515 والذين تمكنوا من وضع حد لها في السابق" [5].

إذًا من هنا نرى أنّ الصراعات العرقية قد استعملت لتفسير النقص في تكوين دولة لتضفي دائما الشرعية على الحكم الأجنبي كطرف ثالث قادر على القضاء على الفوضى[6] وهذا الطرف الطرف الثالث هم بطبيعة الحال الرومان، الأتراك ثم الفرنسيون.

كما اجتهد منظرو الاستعمار في استغلال "البربرية" الهلالية لتبرير إيديولوجياتهم التي كانت تتم تحت غطاء المصطلح اللغوي "إحلال السلم" والتي كان الهلاليون أو الإسلام نفسه قد ضرب الجزائر بالجمود والذي أدخلها في ركود. ولقد جاء الفرنسيون لإخراج الجزائر من هذا التخلف ووضعها على دروب التقدم[7].

أمّا عند تعرّض إرنست مرسييه لفترة الوجود التركي في الجزائر، ورغم أنه أثنى على الدور التركي كما ذكرنا في السابق والذي تمثل في إنهاء "الفوضى العربية الهلالية" حيث قال "إنه عمل نعتقد أنه لم يكشف عنه من قبل أي مؤرخ غير أنه يجب أن يوضع لصالحهم" [8]، ولم يذكر هذا حسب اعتقادنا إلاّ من أجل تأكيد فكرة استعمارية كنا قد تناولناها من قبل. ومع هذا فقد شبّه الوجود التركي بالغزو العربي الهلالي حيث قال أن الأتراك لعبوا الدور نفسه الذي لعبه العرب مع اختلاف حسب رأيه "أن العرب كانوا قراصنة أرض أمّا الأتراك فكانوا قراصنة في المتوسط" [9].

---

1 - Addi, Lahawari : L'impasse du populisme, l'Algérie : Collectivité politique et état de construction, Alger, ENAL, 1990, p. 25.

2 _ سعد الله، أبو القاسم: المرجع السابق، ص 36.

3 - Mercier, Ernest : L'Algérie devant le parlement en 1893…, op cit, p. 17.

4 _ سعد الله، أبو القاسم: المرجع السابق، ص 36.

5 - Mercier, Ernest : L'Algérie devant le parlement…, Op cit, p. 17.

6 - Malakey, J.M: Op cit, p. 29.

7 - Filali, Kamel: Dynamique identitaire…, Op cit, p. 9.

8 - Mercier, Ernest : Constantine au XVIème siècle, élévation de la famille El Feggoun…, Op cit, p. 217.

9 - Ibid, p. 216.

ولعل هذا التحامل على الأتراك هو مظهر من مظاهر التشويه في الكتابات الاستعمارية حيث صبّ هؤلاء الكتّاب حقدهم على كل من وقف في وجه الزحف الأوروبي الصليبي، وكان العثمانيون من هؤلاء[1].

كما أن نقده الشديد للأتراك هو تبرير للغزو الفرنسي حيث قال "قدمت فرنسا في 1830 خدمة للإنسانية تتمثل في وضع حد للوضعية غير المحتملة التي صنعها القراصنة الجزائريون في البحر المتوسط وشواطئه" [2]، ومن نتيجة لذلك "كان القرار بتدمير "وكر" القراصنة الذين نشروا الرعب في المتوسط منذ 3 قرون" [3].

كما أن هذه الكتابات تهدف إلى تكرار الفكرة السابقة في عدم وجود كيان سياسي في الجزائر لأن الوجود السياسي في العهد التركي هو امتداد للباب العالي وبالتالي فهو غير شرعي وأنّ الاحتلال الاستعماري يضع حدًّا للجزائر التركية التي لم يكن للسكان المحليين وجود سياسي فيها[4].

---

1 _ مغلي، محمد البشير:.المرجع السابق، ص 257.

2 - Mercier, Ernest : L'Algérie devant le parlement..., Op cit, p. 17.

3 - Mercier, Ernest: L'Algérie en 1880..., Op cit, p. 11. Voir aussi : Mercier, Ernest : L'Algérie et les questions algériennes..., Op cit, p. 1.

4 - Addi : Op cit, p. 25.

رابعاً ـ نقد رؤيته الإثنوغرافية

لقد ذكر مرسييه أن مسألة المعارف حول السكان الأهالي تبدو له كافية، ولكن هذه المعارف نفسها حول هؤلاء السكان هي التي لا تبعث على الرضى، وهذا سبب طبيعي للخروج بالنتيجة الآتية أن هناك فرقًا بين الأوروبيين والأهالي ومن ثمّ حق الأوائل في إدارة شؤون الآخرين[1].

فمنذ البداية "لجأ صناع الغزو الاستعماري إلى استعمال الإيديولوجية في "العادات والتقاليد" للمجتمعات "الأهلية" للقيام بتغيير مضبوط حسب القوالب المعدة سابقاً الحق في الاستعمار وواجب المهمة الحضارية"[2].

إذًا فهاته المعارف حول الأهالي تبرز واقعًا متخلفًا في أبعاده السياسية، الاجتماعية والنفسية، وهذا كله يصور نقطة محورية مجتمع متوحش ومجتمع حديث[3].

وأصل هذا التوحش هي غزوات بني هلال التي أنتجت فوضى أدخلت المغرب كله ومنها الجزائر في قرون مظلمة وكانت السبب في الانحطاط الكبير الذي وجده الفرنسيون عند احتلالهم للجزائر سنة 1830[4]. فحسب منظّري الاستعمار ومنهم إرنست مرسييه أن هذا الغزو أوقف التطور الطبيعي للعرق الأهلي[5].

إن هاته الأفكار التي انتشرت في أوروبا خلال القرن التاسع عشر ناتجة عن مركزية عرقية ذات صفة احتقارية تبرّر السيطرة. فكل العالم غير الأوروبي أصبح ميداناً للدراسات الإثنوغرافية وأدين الإسلام الذي أصبح يمثل التعصب[6]، فالتهمة إذًا هي إلحاق "بلاد البربرية بالإسلام" وبـــ»الهيمنة العربية" [7].

وقد أبرز مرسييه واقع هذا التخلف من عدة نواحي : سياسيا وأخلاقيا وفكريا، وهذا راجع للعقلية الأهلية نفسها التي سببها التأثير القديم والتقليدي للمحيط ممّا أدى إلى عدم تطور الفكر وأن يكون مختلفًا إطلاقًا عن فكرنا[8].

---

1 - Lucas, Philippe ; Vatin, Jean Claude : L'Algérie des anthropologues, Paris, Editeur français Maspero, 1975, p. 29.

2 - Filali, K : Dynamique identitaire…, Op cit, p. 9.

3 ـ لوكا فيليب، خاتان جون كلود. - المرجع السابق. - ص 25.

4 - Berthier, André : Op cit, p. 109.

5 - Marçais, George : Op cit, p. 33.

6 ـ جعيط هشام. - أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط 2، ص 17.

7- Marçais, George : Op cit, p. 33.

8 - Bernard, Augustin : Ernest Mercier et la question indigène...,Op cit, p. 56.

إن هذه الأقوال تنطبق على ما قاله إدوارد سعيد "على أنها ناتجة عن تسلط ثقافي وهي ما تمنح الاستشراق قوته ومتانته، أو أن الاستشراق يرتبط بفكرة أوروبا، وهو "مفهوم جمعي يحدد هويتنا "نحن" الأوروبيون كنقيض "لأولئك" الذين ليسوا أوروبيين" [1].

ولكي يعطي الدليل على أقواله قال مرسييه "الجزائريون ليسوا ناضجين كل شيء يشهد على ذلك... إنهم يحتاجون أن يُحكموا والمزايا الحالية كافية"[2].

وذكر أيضا "أن الأهالي لا يريدون أن يتجنسوا أو يقوموا بالخدمة العسكرية، أو إرسال بناتهم إلى المدارس أو أن يكون التعليم إجباريا أو حتى أن يمنح حق الاقتراع العام لإخوانهم"[3].

كما قسم مرسييه الجزائريين إلى قسمين : قسم وصفه بالحمق وقسم آخر وصفه بالتوحش ويشكلون أغلبية السكان[4].

إن هذه الأقوال لإرنست مرسييه تذهب من منطلق أولي وتطرح فكرة صراع بين هويتين وإيديولوجيتين، فكرة كون الهوية الأوروبية متفوقة بالمقارنة مع جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية[5]، وهي لخدمة التوسع الكولونيالي[6] وإيديولوجية جهاد استرجعت الإسلام في شكل شكل حركة مقاومة[7] وجعلت منه مع العربية هوية دفاعية ضد التغلغل الاستعماري وحافظت به على تماسك المجتمع في غياب الدولة، وهذا ما حدث في الجزائر لمدة أزيد من قرن[8] والأرقام خير دليل على ذلك فيما يخص عدد المتجنسين بالجنسية الفرنسية[9].

كما وجه مرسييه انتقادات كبيرة للأهالي على المستوى الأخلاقي، فقد ذكر أن الأهلي لا يملك قاعدة أخلاقية للسلوك L'indigène n'a pas de règle morale de conduite، حيث أن الأهـــلي وبعد تأديته لواجباته الدينية وهذا من حيث الشكل فقط فإن حياته تسير دون تفكير أو

---

[1] ـ سعيد، إدوارد: المرجع السابق، ص 42.

[2] - Mercier, E : La question indigène en Algérie au commencement du XXème siècle, Paris, Augustin, Challamel éditeur, 1901, pp 101.-102.

[3] - Mercier, E : L'Algérie devant le parlement …, Op cit, pp 26-27.

[4] - Mercier, E : Français et indigènes en Algérie, Constantine, Imprimerie-librairie Braham, 1906, p. 21.

[5] ـ سعيد، إدوارد: المرجع السابق، ص 42.

[6] ـ ولد خليفة، محمد العربي: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، الجزائر، د.م.ج، 2003، ص 11.

[7] ـ كوثراني، وجيه: المرجع السابق، ص 32.

[8] ـ ولد خليفة، محمد العربي: المرجع السابق، ص ص 180-181.

[9] ـ كانت حصيلة المتجنسين في نهاية الحرب العالمية الثانية ما بين 25 ألفا و 30 ألفا، عاش أغلبهم منبوذين من قبل المجتمع الجزائري وألصقت بهم بهم كلمة "متورن" التي لا تختلف عن الخيانة.

وعـــي إذ أنـــه لا يفكر من الاستفـــادة من تجاربـــه المباشـــرة لأنه لا يملك خطّ سير أخلاقـــي Il n'a pas de ligne de conduite morale أي أنه لا يبحث عن الفهم، هذا بدوره يؤدي إلى عدم توصله إلى نتيجة أخلاقية للأحداث التي هو شاهد عليها[1]، كما تطرّق كذلك إلى صفات أخلاقية ذميمة : هي غياب روح التضامن بينهم[2]. ورغم اشتراكهم في الإيمان فإنّ هذا لا يشكل عائقًا في معاملة بعضهم البعض بقسوة مع عدم الصفح عن بعضهم البعض[3]، كذلك فإن الكذب يعتبر شائعًا عندهم وأصبح طبيعة ثانية لهم[4].

إن هذه العبارات القاسية في حق الأهالي توافق الكتابات الاستعمارية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث كانت الجزائر الأرض الموعودة للدراسات الإثنوغرافية والأنتروبولجية لعجز الأعراق الدنيا[5] وهي تعتبر مظهراً آخر من مظاهر المركزية الأوروبية حيث أن أوروبا هي هي مركز للحضارة والثقافة والفعل والتاريخ.

وترسّخت هذه الإيديولوجية مع الاستعمار الذي عمد إلى دراسة الأراضي والشعوب وتصنيفها وتمحيصها ثم إخضاعها لثقافة أوروبية مسيحية بيضاء رسخت لديها الشعور بالتفوّق العرقي والفكري والأخلاقي، ولهذا فقد اعتقد الإنسان الأوروبي أنه يمتلك الحق والشرعية في حكم الشعوب غير الأوروبية "المنحطة" والتشريع لها وتأديبها[6].

من هنا نرى أن كتابات إرنست مرسييه هي تجسيد لهذه المركزية الأوروبية وكذلك أفكاره وافقت الكاتب الفرنسي إرنست رينان Ernest Renan الذي قسم فيها الجنس البشري إلى نوعين: جنس سامي يختص فطريا بالإيمان بالغيبيات والأساطير وليست له القدرة على التحليل والتركيب، وجنس آري يتميز بالقدرة على التحليل والتركيب والعمليات العقلية المعقدة[7]، كما كما أن ريتان كان قد أيّد فيما ذهب إليه مرسييه حول الهجمات الهلالية في كتابه: تاريخ إقامة العرب في إفريقيا الشمالية L'histoire de l'établissement des arabes en Afrique du Nord في

[1] - Mercier Ernest.- La question indigène en Algérie..., Op cit, p. 213.
[2] - Ibid, p 214.
[3] - Ibid, p. 215.
[4] - Ibid, p. 216.
[5] Benkada, Sadek : Le Maghreb dans les débats anthropologiques : Edmond Doutté, Robert Montagne, Jaques Berque, Clifford Geetz, Pierre Bourdieu, Ernest Gellner, prologue, revue maghrébine de livre (Casablanca), n°32, hiver 2005, in Insaniyat, Revue algérienne d'anthroplogie et de science sociale : La socio-anthropologie en devenir, 9ème année, n° 27, janvier – mars 2005, p. 127.
[6] _ الهادي، منير: الاستشراق والعولمة الثقافية، وهران، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 1، 2002، ص ص 30-31.
[7]

رسالة بعثها في 19 ديسمبر 1875 نعرض مقاطع منها :

« … je n'ai pas besoin de vous dire qu'en présentant l'ouvrage j'ai dit tout ce que je pense de son mérite, vous avez fait un usage très judicieux des documents, et plusieurs de vos vues, surtout celle qui sont exposées dans les premiers chapitres de la deuxième partie, me paraissent neuve vraies… »(1) E. Renan

إلاّ أن ما كتبه إرنست مرسييه عن الأهالي بصفة عامة يعتبر نقيضًا لما كتبه عن البربر لأن تلك الكتابات الاستعمارية نفسها قد أعطت أفضلية للعرق البربري وأنه لا يجب أن يعامل كالعرق العربي(2). وقد اعتبر مرسييه استمرارية لهذا التقليد الاستعماري في دراسة الإثنوغرافية في الجزائر حيث مجّد العرق البربري في كتاباته، فقد قال "وجد العرب الهلاليون في البلد الذي غزوه عرق أهلي قوي" (3)، كما قال أيضا "لقد اصطدموا بشعب كثير العدد ومحارب وصادفوا حضارة حضارة متطورة على حضارتهم... " (4). كذلك ذكر تميزهم عن العرب في النواحي السياسية ومقدرتهم على إقامة الدول وإدارتها في القرون الماضية(5).

ويقابل هذا الثناء للعرق البربري مهاجمته بشدة العرب الهلاليين حيث قال "كان على الغزاة العرب أن يبادوا ويطردوا حتى آخر رجل" (6).

ولعلّ هذا التفضيل يندرج ضمن ما عرف بالأسطورة البربرية التي عرفت أوجها مع قانون وارنييه (1873)(7) وسمي كذلك بالسياسة القبائلية التي تهدف إلى الارتكاز على البربر ضد العرب العرب وإدارتهم بشكل مختلف(8) لتحقيق أغراضهم الاستعمارية(9) بالترويج لخرافة العداء بين العرب والبربر والتمايز العنصري بينهما(10)، كما كان الزواج المختلط بين الأوروبيين والقبائل

---

1 - Mercier, Maurice : Op ci,p. 172.
2 - Benkada, Saddek: Op cit, p. 127.
3 - Mercier, E : Ethnographie de l'Afrique septentrionale…, Op cit, p. 420.
4 - Ibid, p. 421.
5 - Marçais, G : Op cit, p. 40.
6 - Mercier, E : Ethnographie de l'Afrique septentrionale..., Op cit, p. 421.
7 - Filali, Kamel : Dynamqiue…., Op cit, p 7.
8- Ageron Charle Robert : L'Algérie algérienne de Napoléon III à De Gaule, Sindbad, Paris, 1980, p. 37.
9 ـ كان الدكتور وارنييه من دعاة الإدماج، وقد حاول إثارة القبائل ضد السياسة الإمبراطورية التي اعتبرها ليست في صالحهم وأنها تخدم العرب فقط، وبذلك حاول هؤلاء خلق التفرقة والنفور بين العرب والقبائل للقضاء على مشروع المملكة العربية. ومن هذا المنطلق بدأ الاستعماريون في الكتابة عن هذه المنطقة مع إبراز الخاصية القبائلية وأن القبائل ينحدرون من أصل أوروبي وليس عربي وأنهم يختلفون عن العرب في العادات والتقاليد والأنظمة. انظر : جلوش، عبد القادر: السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر 1871-1941، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة دمشق، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1985، ص ص 63-64.
10 ـ ولد خليفة، محمد العربي: المرجع السابق، ص 298.

ضمن مشروع الأسطورة البربرية[1]، لأن امتزاج هذين العرقين ينقذ العرق الأدنى من الانحلال والانحطاط، وقد نادى إرنست مرسييه بهذا كذلك حيث قال "يمكننا أن نتنبأ بأن الاحتلال الفرنسي للجزائر سوف يأتي بتجديد وبعث إفريقيا الشمالية، ليس بإحياء الأعراق المحكوم عليها بالانطفاء والزوال، بل بإقامة العنصر الأوروبي في البلاد لتشكيل سكان جدد يمكنهم الاستفادة من هذه البلاد الجميلة... "[2].

و لم يكتف مرسييه بنقد الأهالي بل تعدّاه إلى النخبة منهم؛ فقد شكا من غياب المنهجية عند المؤرخين العرب والمسلمين ومنهم ابن خلدون رغم أن كتابات هذا المؤرخ كانت مادة رئيسية لأعماله باعترافه بنفسه بذلك[3]، وقد عبّر عن هذا الازدراء بشكل واضح عند حديثه عن عن العنتري ومقارنة مؤلفه بكتابات فايست فيما يخص الفترة العثمانية حيث قال "... إذا كان فايست قد استطاع أن يكون أكثر شمولاً للوقائع قريبة العهد التي استقى منها الروايات والأوصاف بعناية وصححها ببضعها البعض وبمطابقتها مع المعطيات العامة من التاريخ، فإن عمل العنتري هو عمل حديث بدون قيمة، نتاج يميز الوضعية الحالية للآداب عند مسلمي إفريقيا..."[4].

و لم يكتف مرسييه بهذا بل ذهب إلى نفي أيّ عمل جزائري إسلامي في ميدان الكتابة في التاريخ العثماني حيث قال «العمل الوحيد الذي نملكه حول تاريخ قسنطينة خلال فترة الهيمنة التركية قد أنجز من قبل زميلنا السيد فايست والذي نشر في حولياتنا لسنوات 1867-1868 تحت عنوان: "Histoire de Constantine sous la domination de Beys "[5].

و لم يكن مرسييه يشكل حالة منفردة في تقليله من شأن كتابات المحليين، فقد علّق شارل سان كلبر على عمل العنتري وابن المبارك قائلا "لا يمكننا أن ننتظر من هذه الوثائق أن تأتي بجديد حول هذه الفترة من التاريخ الجزائري" [6].

---

[1] ـ كان هؤلاء يقولون بأن الشعب البربري ينحدر من الغاليين الرومان ومن البربر المسيحيين في الفترة الرومانية والوندالية. انظر:

Ageron, Charle Robert : Histoire de l'Algérie contemporaine, Paris, que sais-je. Presse universitaire de France, 1964, p. 66.

[2] - Mercier, E : Histoire de l'établissement des arabes dans l'Afrique septentrionale…, Op cit, p. 358.

[3] - Mercier, E : Notice sur les Almoravides et les Almohades…, Op cit, p. 217.

[4] - Mercier, E : Abd-Er-Rahmane bey …, Op cit, pp. 428-429.

[5] - Ibid, p. 428.

[6] - Saint Calbre, Charles : Op cit, p. 76.

كما انتقد المنهجية المتبعة من طرف المؤلفين قائلا "حتى المنهجية المتبعة من قبل هؤلاء المؤلفين لا يمكنها أن تستوقف وتلفت انتباه المحدثين كثيرا... "[1].

إنّ هذه الأقوال لهؤلاء تعبّر عن روح استعلائية استعمارية يمكن دحضها بسهولة إذ أن كل باحث ومؤرخ للشرق الجزائري في العهد الاستعماري وخاصة مدينة قسنطينة مضطر للعودة إليهما. ولكن أغلب الكتاب الاستعماريين يُحبذون حصر المصادر فيهم وأغلبهم لا يعترفون بالمؤرخين المسلمين، فقد دأبوا على اللجوء إلى كتابات من سبقوهم من زملائهم وكأنها المصادر الأصلية[2].

أما عند تناوله للعالم النسوي فقد خالف إرنست مرسييه معظم الكتاب الاستعماريين حيث ذهب أغلبهم إلى وصف المظاهر السلبية وتقاسموا تقريبًا الرأي نفسه وهو أن المرأة تابعة ودونية وفي حالة تشبه الرقيق بالنسبة للرجل. إذا فوضعية المرأة هي عامل من عوامل التخلف[3].

وكانت هذه الآراء والأفكار متداولة لدى الكتاب الغربيين وخاصة المستشرقين[4]، إذاً فقد صوّرت الجزائر انطلاقا من صورة النساء كبلد متخلف جامد بسبب الأخلاق والسلوكات التقليدية والرجعية للديانة الإسلامية والعادات العربية[5].

أمّا إرنست مرسييه فعند حديثه عن المرأة مزج بين وضع المرأة في الواقع ووضعها في القانون[6] مع الإشارة إلى البطلات اللاتي أنتجهنّ التاريخ[7].

فقد تعرّض للأفكار المسبقة والمشوَّهة التي تناولت وضعية النساء حيث قال "عندما يلتقي الفرنسيون في الأرياف بامرأة أهلية أصبحت عجوزا قبل الوقت، ترزح تحت أثقال حمولات الحطب ويتبعها رجل يحمل هراوة، عندما يعلمون أنها زوجة شريفة لا يمكنها أن تخرج من منزلها إلاّ للذهاب إلى الحمام تحت حراسة شديدة وأنه يمنع عليها أن تكلم أي رجل إلاّ أولئك الذين

---

1 - Ibid, p. 76.

2 _ مغلي، محمد البشير، المرجع السابق، ص 260.

3 _ لوكا فيليب، فاتان جون كلود: المرجع السابق، ص 27.

4 _ عقيلة حسين: المرأة المسلمة والفكر الاستشراقي، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 2004، ص 207.

5- Mesadi, Sakina : Les romancières coloniales et les femmes colonisées : contribution à une étude de la littérature coloniale en Algérie, Alger, ENAL, 1990, p. 270.

6 - Lucas, Philippe ; Vatin, Jean Claude : Op cit, p. 31.

7 - Idem.

ينتمون إلى العائلة التي تعيش فيها، فإنهم يستنتجون أن وضعية المرأة هي من أكثر الوضعيات البائسة التي توجد... "[1].

ويعرض مرسييه الأفكار السائدة لدى الفرنسيين حيث قال "إن الرجل يشتري زوجته كحيوان وأنه يمكنه أن يعيدها كما يرغب في ذلك أو يبقيها محبوسة... "[2].

ثم يذكر إرنست مرسييه الكتب والمقالات المنشورة حول وضعية المرأة المزرية وعن التسامح غير المقبول للسلطة الفرنسية التي تأوي تحت حمايتها استبدادًا بشعًا مثل هذا[3].

ثم يبدأ إرنست مرسييه بدحض تلك الأفكار والأقوال بطرح بعض الأسئلة: "لماذا لم تتمكّن الضحايا من الإفلات من جزاريهنّ و لم يطلبوا الحماية من القضاة" [4]؟

وسؤال آخر: "لماذا لم تتخلص أي واحدة منهنّ من البؤس والشقاء الذي تعيش فيه"[5]؟

ثم أجاب عن هذه الأسئلة بطرحه استنتاجاً على شكل سؤال: "هل يمكننا أن نستنتج أنهم ليسوا بالتعاسة التي نفكّر بها؟ إنه المنطق البسيط" [6].

أما عن وضعية المرأة من حيث القانون فقد تناول مرسييه وضعية المرأة قبل الإسلام[7] ثم وضعيتها في الإسلام حيث تكلم عن السلطة الأبوية[8] والزواج[9] وعن واجبات وحقوق الأزواج[10] والطلاق[11] والميراث[12]...الخ، وكل التغيرات التي جاء بها الرسول ρ وما نص عليه القانون الإسلامي، وقد كان موضوعيًا في طرحه حيث نبّه إلى الفارق والاختلاف بين ما هو موجود في القانون الإسلامي وما هو موجود في الواقع الذي هو غير مطبق[13] ..... كالزواج على سبيل المثال الذي يعرض من قبل الأب وعدم اتباع ما أوصى به الرسول ρ من استشارة المرأة في أمر زواجها[14].

---

1 - Mercier, Ernest : La condition de la femme dans l'Afrique septentrionale, Alger, Adolphe Jourdan, 1895, p.9.
2 - Idem.
3 - Ibid, p. 10.
4 - Idem.
5 - Ibid, p. 11.
6 - Idem.
7 - Ibid, p. 13.
8 - Ibid, p. 44.
9 - Ibid, p. 48.
10 - Ibid, p. 55.
11 - Ibid, p. 62.
12 - Ibid, p. 71.
13 - Ibid, p. 96
14 - Ibid, pp. 77-78.

وفي الأخير توصل إرنست مرسييه إلى نتيجة مهمة وهي أنّ المرأة في الجزائر ليست مضطهدة أكثر من الواقع الفرنسي[1].

كما تعرّض إرنست مرسييه للمرأة الأهلية في التاريخ كالكاهنة[2] ونساء أخريات كفاطمة نسومر [3].

[1] - Ibid, p. 113.
[2] - Ibid, p. 122.
[3] - Ibid, p. 132.

خامسا ـ حصيلة إرنست مرسييه كمؤرخ وإثنوغرافي

إن معاصرة إرنست مرسييه لأواسط القرن التاسع عشر وهي الفترة التي شهد فيها التوسع الأوروبي ازدهاراً كبيرًا[1]، حاملاً مشروعاً غربيًا متطوّراً علميًا باحتكاره للعلوم والتكنولوجيا، ومتطورًا ثقافيا باحتكاره لعلوم أنتجها هذا المشروع للسيطرة على الشعوب الأخرى كالإثنولوجيا على سبيل المثال[2]، جعلت منه واحدا من الذين أرادوا تحقيق ذلك المشروع. فقد كان فردا من أفراد جيش الغزاة العسكريين الذين حاولوا منذ البداية تلمس مختلف أوجه الحياة الجزائرية من نواحي عديدة اقتصادية، اجتماعية وخاصة التاريخية والإثنوغرافية منها[3] وذلك بغية السيطرة على هذه الأرض الجديدة بالنسبة لهم.

لقد سبقت فترة مرسييه فترة أخرى بدأت فيها إرهاصات الكتابات الفرنسية التي حاولت التعرّف على المجال الجزائري منذ العهد النابليوني، فقد كان الفرنسيون يرون في إنجاز ومعرفة العلوم ذات الصلة بالشرق من اهتماماتهم منذ حملة نابليون على مصر ثم أخذت شكلاً واضحًا بعد احتلال الجزائر[4].

وبهذا الأسلوب والرؤى عمد الفرنسيون إلى التحضير المادي والموضوعي و"العلمي" لإنجاح عملية الغزو والاحتلال ثم السيطرة على الجزائر[5] وأخيراً البقاء واستعمار البلاد، وهذا ما نستشفه من خلال مجمل الدراسات التي وضعت فيما يعرف بعملية استكشاف الجزائر من قبل المستعربين الفرنسيين وغيرهم[6].

إن أغلب هذه الدراسات التي وضعت خلال القرن التاسع عشر بدأت من محاولة "معرفة الآخر" للسيطرة عليه[7]. وتناولت مجمل أوجه المعرفة حول سكان الجزائر : اللهجات المحلية، العادات والتقاليد[8]، تركيبة الأعراش، في العهد العثماني، الموارد الاقتصادية، محاولة هؤلاء الباحثين الغوص في أعماق المجتمع بدراسة الثقافات الشفوية، الزوايا والطرقية[9].

---

[1] ـ لكلرك، جيرار: الأنتروبولوجيا والاستعمار، ترجمة جورج كتورة، لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، 1990، ص 17.

[2] ـ لهادي، منير: المرجع السابق، ص ص 52-53.

[3] - Djender, M: Op cit, p. 93.

[4] - Filali, K : Chaires arabes et études orientales….Op cit, p. 86.

[5] - Djender, M: Op cit, p. 93.

[6] ـ سعد الله، أبو القاسم: المرجع السابق، ص 18.

[7] - Filali, K : Dynamique…, Op cit, p. 9. Voir aussi : Stora, Benjamin…, - Op cit, p. 22.

[8] - Filali, K : Chaires arabes…, Op cit, p. 87.

[9] ـ سعد الله، أبو القاسم: المرجع السابق، ص ص 14-15.

وحين نتمعن في مجمل الدراسات سالفة الذكر يمكن ملاحظة فترتين بارزتين:

الأولى : هي المدرسة الفرنسية القديمة، بدأت سنة 1837 سنة أولى الأبحاث لتنتهي عام 1880 سنة إنشاء جامعة الجزائر[1].

كان البحث التاريخي فيها خاصة من عمل العسكريين، موظفي الترجمة العاملين بالجيش أو الإدارة ولابد من الإشارة إلى أن أغلب تلك الدراسات كانت في مجملها من إنجاز العسكريين الذين كان لهم دور في العمليات الحربية ثم التسيير الإداري[2] سمي كذلك بالاستشراق المرتبط عسكريا باستكشاف العالم الجديد[3].

إذاً فقد كان الضباط العسكريون رواد الاستكشاف العلمي للجزائر وخاصة المترجمون العسكريون منهم[4] وكانت مساهمة المترجمين في تجسيد هذا الاستشراق واضحة[5] حيث أصبح أصبح أغلبهم من ذوي الاختصاص ونتيجة لذلك تحولوا من مجرد مرافقين إلى مختصين وأكاديميين.

فقد صدر في 1844 كتاب هام بعنوان "المذكرات التاريخية والجغرافية حول الجزائر" لبيليسيي ثم تبعه في1853 كتاب "أبحاث حول الأصول والهجرات للقبائل الأساسية لشمال إفريقيا" وخاصة الجزائر للضابط كاريت De Carette ثم ترجمة دي سلان لابن خلدون والنويري، وترجمة الهولندي دوزي وكويج Dozy et Coeje لكتاب المؤرخ ابن عدارى في 1848 و1851 واليعقوبي وابن حوقل في 1860[6].

ثم توالت المؤلفات في هذا المنحنى وهكذا بدأت تظهر الدراسات ذات الشكل والمضمون الاستنتاجي لحوصلة تاريخ الجزائر وشمال إفريقيا عموماً.

وقد استفاد إرنست مرسييه كثيرا من المعارف المنجزة والتراكم المعرفي عموماً خاصة عند نهاية الإمبراطورية الثانية حيث أدت به أن يقدم أعمالاً اعتبرت منجزات طلائعية مقارنة

---

[1] ـ يطلق سعد الله على هذه الفترة أي فترة 1830-1880 تسميته "عهد المؤرخين العسكريين".

[2] - Djender, M: Op cit, p. 94.

[3] - Stora Benjamin: Op cit, p. 22.

[4] - Alazard : Célébration du centenaire : Séance solonel, in R.A, TCI, 1956, le centenaire de la société historique algérienne (1856-1956), p. 33.

[5] - Feraud, Ch : Les interprètes de l'armée d'afrique..., Op cit, p. 142.

[6] - Djender, M: Op cit, p. 94.

بنظرائه[1] حيث كان الأول الذي قدم رؤيا استعمارية ومشروع واضح المعالم حول ماضي الجزائر وإفريقيا الشمالية وكان ذلك سنة 1875 في كتابه "تاريخ إقامة العرب في إفريقيا الشمالية" ووجد ضالته لإثبات العديد من أطروحاته، وهذا التاريخ يسجل كذلك بصورة أكيدة تطورًا في المفاهيم الاستعمارية[2] والتي استمرت بعده لزمن طويل[3].

وبالإضافة إلى استفادته من الفترة التي عاصرها في كتاباته، كان يملك أيضا ثلاث أدوات أساسية وهي : قوة الملاحظة[4]، اللغة اللاتينية واللغة العربية.

فقد كان متحكما في وسيلة استحضار الماضي وهي تمكنه من التعرّف على الكتابات القديمة وخاصة اللاتينية التي استعان بها لقراءة النصوص الكلاسيكية، كذلك دراسة الآثار القديمة[5]. كما كان قادرا على فهم حاضره بفضل تعلمه للغة العربية واستعمالها في كتاباته التاريخية والإثنوغرافية، وقد قال مرسييه في هذا الشأن :

« Frappé de problème éthnographique et historique qui s'offrait a ma vue je commençais, tout en étudiant lalangue du pays à réunir les éléments du travail qui s'offre aujourd'hui au public »[6].

و لم يكتف إرنست مرسييه بتعلم اللغة العربية ثم استعمالها في أعماله بل نبغ فيها حيث نشر كتابه عن اللغة العربية وعن كيفية ترجمتها، وقدم كذلك نصائح وتوصيات وهي عبارة عن خلاصة تجاربه في هذا الميدان كمترجم عسكري، ثم قضائي، فقد اعتبر الترجمة فن[7] وليس تقليدًا[8] وأنه يجب على المترجم أن لا يكون متمكنا من اللغة فقط بل أن تكون له مفاهيم صحيحة في العلوم، الفلسفة، التاريخ والإثنوغرافيا والعلوم الدينية والتشريع فيما يخص المجتمعين الإسلامي والفرنسي[9]، كما كتب عن واقع الترجمة آنذاك في الجزائر[10] وعن كيفية الترجمة من

---

[1] - Ibid, pp. 94-95.
[2] - Ibid, p. 98.
[3] ـ كان مرسييه أول من كتب تاريخ إفريقيا الشمالية وكان حينها موظفا. انظر : Alazard : Op cit, p. 33.
[4] ـ لقد صقل إرنست مرسييه قوة الملاحظة التي كانت لديه بسبب عمله في المكتب العربي، فقد كان من مهامها مراقبة الزوايا والقادة الروحيين وجال الدين لما لهم من دور في اندلاع الثورات ومراقبة التعليم. انظر :
Turin, Yvonne : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale : école, médecine, religion, 1830-1880, Alger, ENAL, 2ème édition, 1983, pp. 123-124. Voir aussi : pp. 134-135.
[5] - Toutain, Jule : Op cit, p. 25..
[6] - Mercier, E : Histoirede l'Afrique septentrionale, Tome 1…, Op cit, p. 1.
[7] - Mercier, E : L'art de la traduction, Alger, Joudan, 1903, p. 7.
[8] - Ibid, p. 10.
[9] - Ibid, p. 12.
[10] - Ibid, p. 13.

الفرنسية إلى العربية[1] والترجمة الشفوية[2] ثم في الأخير تقديم نصائح لإعداد مترجمين جيدين[3].
جيدين[3].

كما تركت بيئته والوظائف التي شغلها بصماتها عليه فمن حياة الكولون إلى مترجم عسكري ثم منتخب جعلته كما قال رينيه مونييه René Maunier، وسيطاً مثاليا بين مجتمعين وحضارتين :

« … l'homme des algériens et des français pas de meilleur poqte pour l'observateur, le chasseur de faits et ce queteur d'ames : ambassadeur de …, ayant porte ouverte sur les deux milieux… »(4).

إن الصورة التي رسمها لنا هذا الفرنسي لم تكن بالمثالية، فقد جعلت منه تلك الظروف نفسها التي ذكرناها من أكبر المتحمسين لاحتلال الجزائر والبقاء فيها عن طريق تمجيد العنصر الأوروبي ومهاجمة العرق الأهلي ووصفه بالتخلف رغم أنه اتّهم بالتعاطف مع الأهالي وتبنى أفكارهم ولكنه يقدم تفسيرًا لذلك حيث يقول:

« Je ne suis pas arabophile et cependant les indigènes me témoignent la plus grande confiance et une réelle sympathie ; je ne suis pas davantage arabophobe et je n'hésite pas à soutenir nos musulmans quand ils le méritent… »(5).

وحسب اعتقادنا فإن هذا التعاطف راجع إلى عمله كضابط في المكتب العربي(6).

ومع هذا فقد حملت كتابات مرسييه إيديولوجيات القرن التاسع عشر التي أرادت أن تكون عونا للحملات العسكرية ومتممة لسياسة عسكرية وإدارية قهرت الجزائريين وضربت كل مقاومة عسكرية وحضارية.

وباختصار فهي إيديولوجية عملت على إقصاء الآخر وثقافته وفرض ثقافة المستعمر عن طريق السيطرة المعرفية والإيديولوجية والسياسية والحضارية(7).

وهذه النظرة يشاركنا فيها المؤرخ عبد الله العروي حيث قال "إن المؤرخين الذي كتبوا

---

[1] - Ibid, p. 30.
[2] - Ibid, p. 34.
[3] - Ibid, p. 39.
[4]- Maunier, René : Ernest Mercier, jurisconsulte, L'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, Librairie Librairie orientaliste Paul Geuthner, 1944, p. 63.
[5] - Mercier, M : Op cit, p. 232.
[6] ـ كانت سياسة المكاتب العربية بصفة عامة قريبة من الأهالي وفي تعارض مع سياسة المعمّرين و"كان النظام العسكري ممثلا في مؤسسة المكاتب العربية حريصا على راحة الأهالي". انظر: فركوس، صالح: المرجع السابق، ص 133.
[7] ـ الهادي، منير: المرجع السابق، ص 33.

حول تاريخ المغرب في عهد الاستعمار يرددون نقمة سوء حظ المغرب، يقولون أنه كان من سوء حظه أنه لم يدرك أنّ الغزو الروماني ذو طابع حضاري، وأنه اعتنق الإسلام وأنه ضحية لهجمة بني هلال وأنه كان قاعدة للقرصنة العثمانية..."[1].

وقد كان إرنست مرسييه متبنيا كل هاته التوجهات الأفكار التي ذكرها عبد الله العروي، فقد كان واحدا من الذين اكتشفوا الجزائر وكتبوا عنها على أنها حقائق مطلقة لا تناقش لأنهم هم الاختصاصيون. ولكن وكما قال العروي أيضا "يبدو من سوء حظ المغرب هو أن تاريخه كتبه لمدة طويلة هواة بلا تأهيل، جغرافيون أصحاب أفكار براقة، وموظفون يدعون العلم وعسكريون يتظاهرون بالثقافة، ومؤرخوا الفن يتجاوزون اختصاصهم، وبكيفية أعم مؤرخون بلا تكوين لغوي وأرخيوليون بلا تأهيل تاريخي، يحيل بعضهم على الآخر، يعتمد هؤلاء على أولئك، وتحبك خيوط مؤامرة لتفرض الافتراضات البعيدة كحقائق مقررة" [2].

ولكن مع هذا فإننا لا يمكننا إنكار الطابع العلمي للعديد من أعمال مرسييه والتي ما زالت تعتبر كمراجع أساسية لكل باحث في ميدان التاريخ غير أننا بدراستنا لهاته الشخصية هي محاولة التعرف على تاريخنا من خلال أحد أقلام العهد الاستعماري في القرن التاسع عشر والتي نحاول من خلالها لها إعادة تناول وقراءة تاريخنا الوطني بموضوعية أو على الأقل نزع الصبغة الاستعمارية عنه.

---

[1] ـ العروي، عبد الله: المرجع السابق، ص 25.

[2] ـ المرجع نفسه، ص 25.

الخاتمـــة

من أهمّ النتائج التي رصدتها وتوصلت إليها خلال دراستي هاته:

ـ أدّى احتلال الجزائر إلى جعلها ميداناً للبحوث والدراسات، وتميّزت هذه الأخيرة بغزارتها واستمراريتها في الزمن وهذا خلافا للكتابات التي كتبها رحّالة أو أسرى دبلوماسيون حيث كانت محدودة في الزمن. كذلك انتقلت المرجعية في هذه الكتابات من العقل إلى إيديولوجية الاستعمار وهيمنته على الآخر.

ـ ساهم الضباط الإداريون وخاصة المترجمون العسكريون في إبراز الواقع الجزائري بمختلف مظاهره من وجهة النظر الاستعمارية، وقد تمّ ذلك في إطار ما يسمى عملية الاستكشاف العلمي التي بدأت بعد احتلال الجزائر بوقت قصير.

ـ شارك إرنست مرسييه في عملية الاستكشاف العلمي هاته ولكن في فترة متأخرة عن بدايتها، وقد تميّز برؤيته الخاصة في طرح المواضيع وبمؤلفاته الضخمة والشاملة من الفترة الليبية إلى الفترة التي عاصرها والتي لم يكن مجرد شاهد عليها بل كان عنصرا فاعلاً أثر في الأحداث من الجانب العسكري والعمراني والثقافي.

ـ ساهمت جهود إرنست مرسييه في إثراء مختلف الجوانب الفكرية والثقافية والتاريخية والعلمية في الجزائر والشرق الجزائري بالخصوص على أسس علمية ومنهجية، غير أنّ كتاباته تميّزت بانطلاقها من أرضية ثقافته الخاصة والتي قام بإسقاطها إسقاطاً غير عادل وكذلك من منطلقات الفكر الأوروبي في مراحل تفوقه في القرن التاسع عشر والذي ارتبط بالمشروع الاستعماري. لذا فقد كانت طروحاته تمثل وجهة نظر المحتل المنتصر، غير أنها تبقى ذاكرة الجزائريين أيضا يشجع البحث فيها على الأقل للتعرّف على كل ما كتبه الفرنسيون عنّا، كما اختزل مرسييه في شخصه كل مظاهر الهجمة الاستعمارية على الجزائر، كان مستوطنًا وعسكريًا وإداريًا ومنظرًا للاستعمار.

ـ كان لإرنست مرسييه دورا كبيراً في بقاء مدينة قسنطينة كمركز إشعاع ثقافي في الفترة الاستعمارية حيث نافس إنتاجه الشخصي والأعمال التي نشرها في حوليات الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة نشاط الجمعيات العلمية في الجزائر العاصمة، كذلك أثر على الوجه العمراني لمدينة

قسنطينة إلى اليوم حيث كان مهندس التوسع العمراني لها جنوبًا عن طريق الكدية وشمالاً عن طريق الكورنيش.

كما يمكن أن أشير في الأخير أن ما كتبه مرسييه يفوق ما تناولته بكثير إلا أنني مع هذا أرجو أن أكون قد ساهمت في تسليط بعض الأضواء على هذه الشخصية من خلال هذا البحث المتواضع وأترك الباب مفتوحًا للباحثين لتناول جوانب أخرى من كتاباته في المستقبل.

الملحق الأول

إنتاج إرنست مرسييه الفكري (مقالات وكتب)[1]

طبيعة الموضوع	عنوانـــــه	مكـــان صـــدوره	تاريخ صدوره
مقال	-Sidi Aissa, tradition orale sur la vie de Sidi Aissa ben Mohamed, origine des Oulad Dil Esslougin.	-Revue Africaine T.VII, 1863, pp. 286 à 292.	1863
مقال	- Une inscription d'Aumale.	-Revue Africaine T. VIII, p. 469.	1864
مقال	- La R'orfa des Oulad Meriem, près d'Aumale.	-Revue Africaine T. X, pp. 72 à 75.	1866
مقال	- Sidjil Massa selon les auteurs arabes. - Tafillala d'après les rapports modernes.	-Revue Africaine T. XI, pp. 233 à 242. -Revue Africaine T. XI, pp. 274 à 284.	1867 1867
مقال	- Notice sur les Almoravides et les Almohades d'après les historiens arabes.	-Revue Africaine T. XII, pp. 217-228 et T.XIII, 1869, pp.265-278 et 355-377.	1868
مقال	- Une page d'histoire sur l'invasion arabe – la Cahena.	-Recueil des mémoires de la société archéologique de Constantine, pp.241-254.	1868
مقال	-Etude sur la confrérie des Khouam de Sidi Abdelkader El Djilani à propos d'un catéchisme à l'usage de la dite Sect.	- société archéologique de Constantine, pp.409-451.	1869
مقال	-Révolte et dévastations Afrique des deux Ibn R'ania (1184-1233).	-R.S.A.C, XV, pp.381-406.	1871
مقال	-Chute de la dynastie des gouverneurs Ar'Lebites en Afrique et établissement de l'empire Obeidite (886-912).	-R. Africaine, T.XV, pp.112 à 137.	1871
مقال	-Ethnographie de l'Afrique septentrionale (note sur l'origine des peuples berbères).	-R. Africaine, T.XV, pp.420 et 433.	1871
مقال	-Un mot sur les étymologies, à propos de la signification exacte de Sour El R'Ozlan.	-R. Africaine, T.XVI, pp.46-52.	1872
مقال	-Examen des causes de la croisade des Saint-Lavis contre Tunis.	-R. Africaine, T.XVI, pp.267-272.	1872
مقال	-Histoire des connaissances des anciens sur l'Afrique septentrionale.	-R.S.A.Constantine, pp.19-39.	1873
مقال	-Les arabes de l'Afrique jugés par les auteurs musulmans.	-R. Africaine, T.XVII, pp.43-56.	1873
مقال	-Comment l'Afrique du Nord a été arabisée.	-Constantine. Marle.	1874
مقال	-Histoire de l'établissement des Arabes dans l'Afrique septentrionale.	-Constantine. Marle. Alger : juillet-Saint-Alger et Paris : Challamel, 410 p.	1875
مقال	-Abd-Er-Rahman, Bey de Constantine.	-R.S.A.C, T.XVIII, pp428-433.	1876

[1] - Esquer, G : Bibliographie des ouvrages d'Ernest Mercier, l'Afrique à travers ses fils [ouvrage collectif], Paris, librairie oriental, Paul Geuthner, 1944, pp. 2-3 et p. 4.

1876	-Revue historique, Paris, pp1-13.	-La bataille de Poitiers et les vraies causes du recul de l'invasion arabe.	مقال
1878	-R.S.A.C, XIX, pp.43-96.	-Constantine avant la conquête française.	مقال
1878	-R.S.A.C, XVIII, pp.215-251.	-Constantine au XVI siècle, élévation de la famille Fgoune.	مقال
1880	- Paris Challamel.	-L'Algérie en 1880. Le cinquantenaire de l'Algérie.	مقال
1882	-R.S.A.C, XXII, pp.193-194.	-Une inscription arabe à Gafsa.	مقال
1882	-R.S.A.C, pp. 232-268.	-Episode de la conquête de l'Afrique par les arabes. Les héros de la résistance berbère : Koceila, la Cahena.	مقال
1883	-Paris, Challamel, 330 p.	-L'Algérie et les questions algériennes.	مقال
1884	--R.S.A.C, XXIII, pp.172-176.	-Inscription arabe trouvée à la ville Franche-sur-mer.	مقال
1884	- Revue libérale.	-Les indigènes de l'Algérie, leur situation dans le passé et le présent.	مقال
1887	-Revue de l'Afrique française, T. V, Mâcan protal.	-Le dérasement du Koudiat-Aty.	مقال
1887	- Constantine, Braham.	-Le cinquantenaire de la prise de Constantine 13 octobre 1937.	مقال
1887	-Constantine, Braham, 16 p.	-Commune de Constantine trois années d'administration municipale.	مقال
1888	-T. I, 444 pp. Paris Leroux. T.II, 476 pp.	-Histoire de l'Afrique septentrionale, T. I et II T.I : des origines à 1045. T.II : de 1045 à 1515.	كتاب
1889	-Paris, Leroux.	-La France dans le Sahara et au Soudan.	كتاب
1889	- Never, 1889.	-La loi municipale de 1884 dans l'application.	
1891	-Paris, Leroux, 628 pp.	-Histoire de l'Afrique septentrionale, T. III de 1515 à 1830.	كتاب
1891	-Paris, Leroux.	-La propriété foncière chez les musulmans de l'Algérie.	
1891	-Le Républicain.	-Déposition devant la commission sénatoriale d'enquête sur l'Algérie.	
1893	- Constantine.	- L'Algérie devant le parlement en 1893.	مقال
1893	-R.S.A.C, XXVIII, pp. 1à 32.	- Inscription arabe inédites de Tunisie.	مقال
1893	-Marle et Biron Constantine.	-Statut de la société de l'Afrique centrale de Constantine.	
1893	- Braham, Constantine.	-La France dans l'Afrique centrale en 1893.	
1894	-Journal asiatique. 23 pp.	-La propriété en Maghreb selon la doctrine de Malek.	مقال
1894	-Marle et Biron Constantine.	-Bulletin de la société de l'Afrique centrale de Constantine, nuémros de janvier, fev, mars, avril, mai, juin, juillet, la plupart des articles son signés E.M.	مقال
1895	-R.S.A.C, Vol. XXX, 87 pp.	-La population indigène de l'Afrique sous la domination romaine, Vandale, Byzantine.	مقال
1895	- Alger, Jourdan.	-La condition de la femme musulmane dans l'Afrique septentrionale.	كتاب

1895	-Extrait de la revue algérienne des jurés prudence 83 pp. Alger Jourdan.	-Le Habous ou Ouakof, ses règles, sa jurisprudence.	مقال
1895	-Constantine poulet, 96 pp.	-Les deux sièges de Constantine 1836-1837 avant un plan de la ville en 1837.	مقال
1897	-Publie par l'Algérie nouvelle. 20 pp. Alger Mustapha.	-La loi du 16 février 1897 sur la propriété foncière en Algérie.	
1898	- Alger Jourdan, 69 pp.	-La propriété foncière musulmane en Algérie, condition légale. Situation intérieure. Etat actuel de la question	كتاب
1898	-Revue Africaine, pp 322-329.	-Sidi Okba et ses expéditions dans l'extrême Sud.	مقال
1898	-R.S.A.C, T.XXXII, pp. 129.	-La propriété indigène au Maghreb selon l'ouvrage de Mohamed El Moustaa Ben Abd-Allah.	مقال
1899	-Constantine Marle-Audrino.	-La question de l'assistance publique musulmane.	
1899	-Constantine, Braham 10 pp.	-Rapport au conseil général sur le trans saharien.	
1900	-R.S.A.C, T.XXXIV, pp.147-176.	- Les Ribat et les Marabouls dans l'Afrique du Nord.	مقال
1900	-R.S.A.C, T.XXXII, pp. 95.	-Les idées et les actes du Maréchal Valée.	مقال
1900	-Alger, Jourdan, Aug Challamel, Editeur, Paris.	-La question des étrangers en Algérie.	كتاب
1901	-La réunion d'études algériennes. 32 pp.	-La Bacha-Agha Mokrani et les causes de l'insurrection indigène de 1871.	مقال
1901	-Challamel, Paris, 248 pp.	-La question indigène en Algérie au commencement du XX° siècle	كتاب
1903	-Alger Jourdan, 42 pp.	-L'art de la tradition.	كتاب
1903	-marle et Biron Constantine, 730 pp.	-Histoire de Constantine.	كتاب
1905	-R.A.S.A.C. Vol. XXXIX, p.23-59.	- La race berbère véritable population de l'Afrique septentrionale.	مقال
1906	-Constantine, Braham, 36 pp.	-Français et indigènes en Algérie.	كتاب
1937 réédition	-Vol du centenaire de Constantine publié par la société archéologique de cette ville, Vol. LXIV, p. 39 à 54.	-Constantine avant la conquête française 1837.	مقال

أعمال لم تطبع لإرنست مرسييه[1]

تاريخ صدوره	مكان صدوره	عنوانه	طبيعة الموضوع
189		La Kahena, biographie romancée, remise vers 1895 à une revue parisienne dirigée par M. Lisagarey (l'Algérie ? ou l'Afrique illustrée ?) et perdu par la succession de M. Lisagaray, décédé subitement.	
1895		Traduction de toutes les parties du chapitre des Houbous du Dorr-El-Mokhtar se rapportant aux ventes, remplois, etc… (utilisé par M. René Maunier dans sa notive : « Ernest Mercier jurisconsulte. »)	
Non daté		De la signification spéciale de quelques termes de jurisprudence. La propriété au Maghreb selon la doctrine du Malek (traduction et textes utilisés par M. René Maunier, Ibid).	
Non daté		Résumé de la doctrine et de la jurisprudence du rite Hanafi sur les Hobous (utilisé par M. René Maunier, Ibid).	
Non daté		Consultation sur un Hobous de Tunis (ni titre, ni date, utilisés par M. René Maunier, Ibid).	
1899		Etude sur l'acte de Hobous de Bouda Mohamed Ben El Hadj Amor (utilisés par M. René Maunier, Ibid).	

[1] - Esquer : Op cit, p. 4.

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن و البلدان

ـ أ ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ج ـ

ـ ح ـ

ـ خ ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

فهرس الأسر والجماعات والقبائل والشعوب والأعراق والمذاهب والأديان

ـ ا ـ

ـ ب ـ

ـ ت ـ

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ ي ـ

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني : خصوصيات إقليم الشرق الجزائري

الفصل الثالث : أهم القضايا التي تناولها أرنست مرسييه في كتاباته

الخاتمـــة

من أهمّ النتائج التي رصدتها وتوصلت إليها خلال دراستي هاته:

ـ أدّى احتلال الجزائر إلى جعلها ميداناً للبحوث والدراسات، وتميّزت هذه الأخيرة بغزارتها واستمراريتها في الزمن وهذا خلافا للكتابات التي كتبها رحّالة أو أسرى دبلوماسيون حيث كانت محدودة في الزمن. كذلك انتقلت المرجعية في هذه الكتابات من العقل إلى إيديولوجية الاستعمار وهيمنته على الآخر.

ـ ساهم الضباط الإداريون وخاصة المترجمون العسكريون في إبراز الواقع الجزائري بمختلف مظاهره من وجهة النظر الاستعمارية، وقد تمّ ذلك في إطار ما يسمى عملية الاستكشاف العلمي التي بدأت بعد احتلال الجزائر بوقت قصير.

ـ شارك إرنست مرسييه في عملية الاستكشاف العلمي هاته ولكن في فترة متأخرة عن بدايتها، وقد تميّز برؤيته الخاصة في طرح المواضيع وبمؤلفاته الضخمة والشاملة من الفترة الليبية إلى الفترة التي عاصرها والتي لم يكن مجرد شاهد عليها بل كان عنصرا فاعلاً أثر في الأحداث من الجانب العسكري والعمراني والثقافي.

ـ ساهمت جهود إرنست مرسييه في إثراء مختلف الجوانب الفكرية والثقافية والتاريخية والعلمية في الجزائر والشرق الجزائري بالخصوص على أسس علمية ومنهجية، غير أنّ كتاباته تميّزت بانطلاقها من أرضية ثقافته الخاصة والتي قام بإسقاطها إسقاطاً غير عادل وكذلك من منطلقات الفكر الأوروبي في مراحل تفوقه في القرن التاسع عشر والذي ارتبط بالمشروع الاستعماري. لذا فقد كانت طروحاته تمثل وجهة نظر المحتل المنتصر، غير أنها تبقى ذاكرة الجزائريين أيضا يشجع البحث فيها على الأقل للتعرّف على كل ما كتبه الفرنسيون عنّا، كما اختزل مرسييه في شخصه كل مظاهر الهجمة الاستعمارية على الجزائر، كان مستوطنًا وعسكريًا وإداريًا ومنظرًا للاستعمار.

ـ كان لإرنست مرسييه دورا كبيراً في بقاء مدينة قسنطينة كمركز إشعاع ثقافي في الفترة الاستعمارية حيث نافس إنتاجه الشخصي والأعمال التي نشرها في حوليات الجمعية الأثرية لمدينة قسنطينة نشاط الجمعيات العلمية في الجزائر العاصمة، كذلك أثر على الوجه العمراني لمدينة

قسنطينة إلى اليوم حيث كان مهندس التوسع العمراني لها جنوبًا عن طريق الكدية وشمالاً عن طريق الكورنيش.

كما يمكن أن أشير في الأخير أن ما كتبه مرسييه يفوق ما تناولته بكثير إلا أنني مع هذا أرجو أن أكون قد ساهمت في تسليط بعض الأضواء على هذه الشخصية من خلال هذا البحث المتواضع وأترك الباب مفتوحًا للباحثين لتناول جوانب أخرى من كتاباته في المستقبل.